
٣
دار
الموقف العربي
لمحة عامة
الى مصر
ا. ب كلوت بك

لمحة عامة إلى مصر ٣

أ. ب. كلوت بك

ترجمة

محمد مسعود



الطبعة الثانية

١٩٨٢

النـــــاشر
دار الموقف العربى
للصحافة والنشر والتوزيع
٣٨ شارع القصر العينى
القاهرة ت ٢٣٢٥١

هـــذا الـــكتاب

هذا هو الجزء الثالث من كتاب « لمحة عامة الى مصر » الذى الفه كلوت بك الطبيب الفرنسى الذى جاء الى مصر فى أعقاب الحملة الفرنسية وبداية عصر محمد على ... وهـــذا الجزء يتناول بالتفصيل أنماط حياة السكان المصريين .. ودياناتهم .. وتشريعات هذه الديانات كما يتعرض للسلوك الاجتماعى لسكان مصر فى هذه الفترة ... ويصف بشكل دقيق الطبقات الاجتماعية ســـواء من خلال تصميم المساكن .. وممارستها لحياتهم اليومية أو من خلال تعاملاتهم بأدق التفاصـــيل حتى على مستوى المتجر والقهـــوة والحمامات الشعبية ... الى التعريف بالمدن الرئيسية وعـــددها وكذلك القرى والحرف فى كل من الوجهين البحرى والقبلى معرفا

بتاريخ كل مدينة من هذه المدن . ويتناول الكتاب المسائل الدينية للرسالات السماوية تناولا خاصا فهو يعرض لمسألة الجن والبعث والحساب والوحدانية والملائكة .

كما يعرض لمسألة القضاء والقدر وصلة الرجل بالمرأة والقضاء والقضاة فى مصر فى هذا التاريخ الذى شهد عصرا من عصور النهضة فى مصر الحديثة « عصر محمد على » وهى رؤية لمؤلف فرنسى شارك وتابع هذه النهضة عن قرب .

ويعتبر الكتاب أحد المراجع الهامة والرئيسية لكل متابع أو مهتم بالدراسات التاريخية .. للمكان أو السكان ...

والدار اذ تختلف مع المؤلف الفرنسى حول بعض ما جاء فى هذا الكتاب كمقولاته عن علاقة المسلمين بالمسيحيين أو رؤيته لقدرات الانسان المصرى فى هذه المرحلة .. انما ترجع ذلك الى أن هذه نظرة الاجنبى دائما حتى ولو كان مفكرا ، يخدم فقط أغراض الاستعمار والمصالح الاجنبية .. وهو لم يختلف منذ قدم التاريخ وحتى نهايته .. المستعمر هو المستعمر .. وأدواته هى أدواته وأخطرها البعثات الثقافية التى تمهد الطريق أمام الاستعمار الاقتصادى والسياسى .. وهو ما يجب أن نفتح أعيننا عليه بالنسبة للمرحلة الراهنة .. اننا نختلف مع المؤلف الفرنسى حول بعض ما جاء بهذا الكتاب .. ولكننا نقدمه كما جاء بقلم المؤلف عملا بالامانة التى نحرص عليها فى اعادة طبع كتب التراث .. وكتاب « كلوت بك » من هذه الكتب الهامة حتى وان اختلفنا حول ما جاء به .

الموقف العربى

الباب السادس

اخـــلاق وعادات المسلمين

ــ لاحــق لســابق ــ

الاغــذية وآداب الطعام

الغذاء ــ الوان الطعام ــ الترتيب المتبـــع فى تقـــديمها ــ المشروبات ــ قهوة البن ــ الشربات ــ الحشيش ــ الافيـــون ــ الوجبة ــ الآنية والاوعية المستعملة للاطعمة ــ آداب الطعـــام ــ الاقتداء بالاوربيين فى طريقة الاكل ــ طعام الفلاحين .

١ ــ الغـــذاء

يتناول المسلمون كثيرا من الاطعمة التى اعتدنا نحن تناولها . فهم يحبون من اللحوم لحم الضأن ويفضلونه على كل لحم سواه . ويأكل أصحاب اليسار ، غير هذا اللحم ، اللحم البقرى . والفقراء اللحم الجاموسى وسكان الصحراء لحم الجمل احيانا . ويمســـك المسلمون جميعا عن أكل اللحوم المحرمة كلحم الخنزير والخيـــل

والحمير الخ . أما لحم العجول وصغار الضأن فانهم لا يتغـــذون به الا فى النادر . لان الشريعـة الاســلامية توصى نصــوصها بالامتناع عن ذبح صغار الماشية دفعا لمــا يخشى من انقــراض انواعها . أما الطيور فمن النادر مثولها على موائدهم لانهم ، كما سبق لنا القول . لا يميلون الى الصــيد والقنص لتعـــذر ذبح الحيوانات المصيدة بعد صيدها . وهم شديدو العناية باستنزاف دماء الحيوانات المذبوحة للتغذى بها . ولكنهم لا يجارون اليهــود فيما يتخذونه من وسائل الاحتياط لهـــذا الامر . فمن ذلك أنهم لا يرون ضرورة فى أن يكون القائم بذبح الحيوانات رجلا اقتصر فى عمله عــلى هــذه المهمة فأصبحت صفة قائمة به لا تتعــداه الى سواه ، ولا أن تكون المدية التى يذبح بهــا جامعة صفات وخصائص لا تتوافر فى سواها الخ .

ويكثر المصريون من أكل الطيور الداجنة والســمك ولكنهم لا يعرفون من خيرات البحر ، غير السمك ، شــيئا من الانواع الاخرى كأنواع المحار والاصداف مع أنها لم تكن محرمة عليهم . ويحبون الالبان والبيض حبا جما ويستنفدون المقادير الوافرة من البقول والخضر والحشائش على اختلاف أنواعها ، ولا ســـيما الخباز (الخبيزة) والباميا والملوخيا (الملوكية) والباذنجــان والطماطم والقرع والكرنب والعدس والفول والفاصوليا والترمس والبسلة . ومن البقول ما اعتادوا تناوله نيئا كالبصل والخيــار والشمام والخس والرجلة (البقلة الحمقاء) الخ . وممــا يوجب الاسف اساءتهم الظن فى البطاطس الذى لو أقبلوا على استعماله غذاء لهم لافادهم فائدة لا تنكر . وتدخل فواكه البلاد بنســبة عظيمة ضمن الاغذية التى يتناولونها .

وهم يطهون الاطعمة بالزبدة ويكثرون من الوانها ، ولــكن العناية بالشطر الاكبر منها تكاد تكون معدومة .

ويجلب الزيت الذى يستنفد فى مصر من الشام واليونان وعلى الخصوص من جزيرة كريد . وهو من الصنف الواطىء الذى لو وجد مثله فى أوربا لما استعمل فى غير الصناعة ، ، على انه تجلب الى مصر انواع من الزيت الجيد كزيت (بروفانس) وزيت (يوك) ولكن استعمالها لا يتعدى الاوربيين والاغنياء من أهل البلاد .

وزيت الزيتون يعتصر فى مصر بمقادير قليلة جـــدا ، لان اشجار الزيتون لا تزال ، كما قلناه سابقا ، نادرة الوجود بها . ويستخرج الزيت ايضا من بذور الخس والسمســـم . وفقـــراء المصريين يستعملون فى بعض الاحيان زيت بذر الكتان المعـــروف بالزيت الحار وهو شديد الدسم خريف الطعم بطبيعته وبما يختلط بالبذر من بذور الخردل .

والبهارات شائعة الاستعمال فى المطابخ المصرية فان الفلفل الاسود والشطة والقرفة والقرنفل والحبهان الخ يستنفد فيهـــا بمقادير عظيمة .

ويكثر المصريون من استعمال الليمون اذ هم يعصرونه عـــلى جميع الوان الطعام تقريبا ويستخرجون الخل من البلح ولكنه رديء النـــوع .

اما الخبز الذى أشرنا فيما سبق الى احترامهم اياه الاحترام العظيم فهو عندهم كما فى أوربا أساس التغذية الذى تقوم عليه ، ولكن الخبز الذى يعجنونه لا يجارى خبزنا فى جـودته وحســن صناعته . لانهم يضيفون المـاء الكثير الى العجينـــة حتى تكاد تصير سائلة ويقللون من الخميرة وينقصون نضج الخبز الذى يختلف أشكاله اختلافا عظيما عن شكل خبزنا . فانه عندهم اشبه بفطائر مستوية كبيرة . ومنذ انتشر الفرانون الاوربيون فى القـــاهرة

والاسكندرية وبعض أمهات مدائن القطر المصرى أخذوا يقلدونهم فى صناعتهم فجعلوا خبزهم بنفس الحجم المرعى فى أوربا .

٢ ــ الوان الطعام

من الوان الطعام عند المصريين الحساء . وهو يعمل على طريقة واحدة تكاد لا تتغير ، فانه عبارة عن الماء الذى سلقت فيه دجاجة أو بعض افراخ الحمام ، على موائد الاغنياء منهم ، او قطعة من اللحم على موائد متوسطى الحال . وقد يضيفون اليه بعض الحشائش أو البقول وأحيانا نوعا من العجين المجفف يسمونه بالشعرية .

ومن الاطعمة التى يميل اليها المصريون ويفضلونها على غيرها شواء اللحم . ويظهر انهم أتقنوا هذا اللون وأجادوا فيه كل الاجادة . واذا شووا اللحم لا يشوونه فى الاسياخ بل فى الافران ، بخلاف الاتراك والعربان فانهم يشوونه فيها وقد يشوون على هذه الطريقة خروفا بأكمله . وبعضهم يربطونه بحبل الى قائمة منصوبة ثم يشوونه بتقليبه على جوانبه المختلفة فوق النار ويهيىء المصريون نوعا آخر من الشواء يسمونه « الكباب » وهو عبارة عن قطع صغيرة من اللحم تسلك فى اسياخ صغيرة . واذ كانوا لا يأكلون دهن الخنزير فانهم يرتبون تلك القطع فى الاسياخ بحيث تتخلل قطع اللحم الاحمر قطع من اللحم الدهنى ، أما الطيور فتجهز بالزبدة فى طوة أو فى الفرن .

ويبتدىء المصريون الطعام بأصناف كثيرة تتألف من اللحم وحده أو مخلوطا بالخضر والبقول ، واحيانا بالزبيب وعصير العنب . وهم يميلون كثيرا الى الاطعمة المحشوة ويضعون الحشو فى الطيور

بل وفى الخراف نفسها أو فى أجزاء منها ومن لحم البقر ، ويحشون أيضا القرع الصغير أو الخيار الخ .

والارز عندهم من الاطعمة الوطنية يأكلونه مفلفلا ويسمونه بالارز المفلفل ويطهونه اما بالزبدة أو فى عصير اللحم (البهريز) ، ويخلطون الارز باللحم المفروم ثم يحشون به ورق العنب ويسمونه بالورق المحشى والضلمة .

اما الفطائر فعندهم شراهة عظيمة اليها . وهم يصنعونها على طرق مختلفة وأصناف متعددة لا تجمعها بفطائرنا رابطة شبه . لان فطائرهم ترجع ، على اختلافها ، الى فطائر مسطحة مستديرة يضعون بداخلها اللحم احيانا أو القشدة أو الجبن الابيض أو المربى أحيانا أخرى . وعلى كل حال فالشرقيون لا يستطيعون مجاراة الاوربيين فى صناعة الفطائر أو تجهيز غيرها من الاطعمة .

وفى جميع الاحياء جوانيت تجهز فيها الفطائر مسطحة مستوية لتباع على الجمهور . ويميل العرب الى المربيات وهم يصنعونها من العسل المتوافر بمقادير عظيمة فى أنحاء القطر المصرى .

ولم يعتد المصريون أن يأكلوا ، قبل الوان الطعام المعتادة شيئا ما على سبيل فتح الشهية مما يسميه الاوربيون (هوردوفر) ولكنهم يأكلون أحيانا السمك المملح المعروف بالفسيخ والبطارخ والصحناة (السردين) وبعض الخيار الصغير المخلل والزيتون الاسود وأنواع السلطات الخ . وهذه الاصناف التى تصف على المائدة ليؤكل منها خلال الاصناف ، قلما تكون مقبولة فى الذوق لشدة ملوحتها أو لشدة حموضتها بسبب الخل .

واذا كان الشرقيون لا يجدون لذة فى طعم زيتنا الطازج فانهم يجدون اللذة فى طعم زيتهم الذى اعتراه الفساد .

ويختم الطعام عادة بالفواكه التى تثمرها البـلاد كالمشمش والخوخ والعنب والبلح الخ مما يقطف ويجنى عادة قبل أن ينضـج على أمه ، والمصريون يعللون أكلها كذلك بقولهم ان الفواكه اذا قطفت بعد بلوغها النضج كان طعمها تافها .

٣ ـ الترتيب المتبع فى تقديم اصناف الاطعمة

تقدم أصناف الاطعمة متتابعة بعضها تلو بعض . ولا توضع ابدا مع بعضها . ولكنهم لا يتبعون فى هذا الترتيب النظام المرعى فى أوربا لتعاقب الاطعمة . فانهم بعد تعاطى الحساء يبـدأون بشواء اللحم ويثنون بأصناف الخضر والفطورات متخللة أصـناف اللحم . أما الارز المفلفل فلا يؤكل الا فى ختام الطعام .

٤ ـ المشـروبات

لا يشرب المسلمون على الطعام سوى المـاء صرفا لان الدين الاسلامى يحرم عليهم خمر النبيذ كما حرم عليهم جميـع الاشربة المسكرة . وهذا التحريم فى الدرجة القصوى من الصواب والحكمة بالنظر الى ان طقسنا كطقس القطر المصرى يضر شرب المسكرات فيه بالصحة الضرر البالغ .

والمسلمون الذين يبيحون لانفسهم شرب النبيذ و غـيره من المشروبات المتخمرة قليلو العدد وهم الذين وقع الاتصـال بينهم والاوربيين فنقلوا هذه العادة عنهم . ومن النادر جدا ان تجد بين العرب من يتعاطى المسكرات بخلاف العثمانيين ولا سـيما الذين أصلهم من تركية أوربا ، فان تعاطى النبيذ عندهم شائع مألوف .

والمتعاطون للخمر من المسلمين لايتعاطونها باعتبار أنها منشط قد يفيد للشارب فائدة بدنية أو نفسية ، كما هو المشاهد غالبا فى

حالة التعـــاطى باعتدال وقناعة . وما السبب فى ذلك الا انهم يلتمسون بتعاطيه فقدان الرشد وضياع العقل بالســـكر جاهلين أن الغرض من تعاطى المشروبات لم يكن الحصول على حالة تقف فيها حركة الادراك والمشاعر وتتعطل المواهب النفسية التعطـل الذى لو شعر به أوربى لمـــا راق له ابدا .

واستعمال العرقى فى مصر اكثر شـــيوعا واقل ضررا من استعمال النبيذ . والعرقى الذى الف الناس شربه فى هذا القطر هو المستخرج من البلح ، ولكنه ردىء النوع . واجـود انواعه يجلب من بلاد الشام واليونان مصنوعا من العنب ، لانه يقطـر مرارا ويكتسب قوة عظيمة (تتراوح بين ١٨ الى ٢٥ واحيانا الى ٣٠ درجة) والذين يقومون باستقطار العرقى نصارى القطـــر الذين يستنفدون منه مقادير عظيمة جدا .

ولدى المصريين نوع من الجعة (البيرة) يسمونه (بالبوظة) وطريقة تحضيرها تقتصر على تخمير الشعير . وهى كثيفة القوام جدا كمدة اللون ذات طعم ردىء فى أفواه الاوروبيين ولذيذ جـدا فى حلوق أبناء البلاد .

٥ — قهـــوة البن

قهوة البن هى الشراب المختار عند المصريين وضرورته لهم كضرورة النبيذ للاوربيين لانهم اذا تذوقوه شعروا ببواعث الارتياح والسعادة والهناءة وتلذذوا بطعمه رويدا متمطقـين . والاغنيـاء والفقراء منهم سواء فى المحافظة على تعاطيها صباحا وبعـد كل طعام وأصحاب اليسار منهم يشربون فى خلال النهار خمسة عشر فنجانا بل وعشرين فنجانا .

وصنف البن الذى يهيئون به قهوتهم فى غاية الجـــودة لانهم يجلبونه من مخا (ببلاد اليمن) ويحمصونه كمـــا نحمصـــه نحن تقريبا ولكنهم يختلفون هنا فى كونهم لا يسحقونه بالطاحـــون بل يدقونه فى الهاون زاعمين انهم بدقه يستخرجون منه الزيت الـــذى هو الاصل الفعال فيه .

وطريقتهم فى تهيئة القهوة بسيطة جدا اذ تقتصر على وضـــع المـــاء على النار فى اناء القهوة (التنكة) فاذا ما بدأ الغليـــان رفعوا الاناء واسقطوا فيه المقدار اللازم من دقيق البن وحركوه فى المـــاء ثم أعادوه الى النار مع استمرار التحريك فاذا غلا المـــاء وفار رفعوا الاناء نهائيا وترك زمنا ريثما يتم امتزاج المـــاء بالبن ثم يفرق على الفناجين . وقهوة البن المجهزة على هذا المثال لا شك فى لذتها وجودة صنعها حتى أن كثيرين من المغرمين بشرب القهوة يفضلونها على المصنوعة منها بحسب الاسلوب الاوربى .

أما انا فانى مقتنع بأن فى الاستطاعة اذا اتبعنـــا فى تهيئة القهوة الطريقة التى استنبطها (دوبلوا) أن تكون القهوة أحسن بكثير من التى تصنع على الطريقة الشرقية .

٦ — الشـــربات

تعاطى المشروبات المرطبة المعروفة بالشربات كثير الشـــيوع فى مصر . ويقدم غالبا بعد تعاطى القهوة أو قبله . وهـــذه المشروبات أنواع كثيرة أبسطها المـــاء المحلى بالســـكر والمضاف اليه ماء الورد أو ماء زهر البرتقال (ماء زهر) أو عصير البرتقال أو الليمون ويتعاطى المصريون أيضا شراب اللوز أو بذور الشمام والبطيخ والقرع الخ . ويشربون غالبا فى نهاية كل طعام الخشاف وهو ماء محلى بالسكر غلى فيه من قبل الزبيب والكراز وعطـــر

بماء الورد . وأعظم انواع المشروبات المرطبة اعتبارا فى نظــــر المصريين شراب البنفسج ، وطريقة عمله أن يجرد زهر البنفسج من ساقه ويعجن بالسكر ثم يجفف . وبعد جفاف العجينة يدق دقا ناعما جدا ثم يذاب فى المــاء عند الاستعمال . ويبـــــاع فى الطرقات برسم العامة من الشعب منقوع عرق السوس أو الخرنوب (الخــروب) .

٧ ـ الحشيش

نرى من المناسب هنا الكلام على مجهز مخدر قد كلف بتعاطيه الشعب المصرى . هذا المجهز هو الحشيش المستخرج من القنب المصرى . وطريقة استخراجه أن تسحق ثمار هذا النبات حتى تصير الى عجينة ثم تطبخ بالعسل والفلفل وجوز الطيب وخلاصات الروائح العطرية . وبعد طبخها تصنع منها أقراص صــــغيرة ضارية اللون الى الخضرة تافهة الطعم قليلا عند المذاق . ويكفى للمرء أن يبتلع منه قطعة بحجم البندقة ليشعر فى الحال بنتــائج تأثيرها . وفى بعض الاحيان يجهز الحشيش سائلا كالشراب وعلى هذه الصورة يستعمله الفقراء . وفى الغالب يتخذ منه مســحوق يدخن ضمن ما يحرق فى نوع من الشيشة يسمى الجوزة . وهــو فى هذه الاحوال المختلفة يحدث عند من يستعمله غيبوبة غريبـــة لا تلبث أن تتحول الى أقوال وافعال شاذة .

واستعمال المجهز المسكر المتخذ من القنب قديم جــدا وكان شائعا فى الاقطار الهندية منذ العصور الموغلة فى القدم . وروى المؤرخ (هيرودتس) فى الفصل الخامس والســبعين من المجلد الرابع من تاريخه أن الحيثيين كانوا يستعملونه فى حفلاتهم الدينية. وقد ذكره أيضا الحكيم (جالينوس) وشاع فى بلاد الفرس على

أثر اتصالهم بالهنود فانتقل من هناك أثناء القرون الوسطى الى بلاد الشام ومصر حيث شاع بين مسلميها . والمحتمل أن الشيع المتعصبة التى زلزلت بفعالها أركان الشرق على عهد الحروب الصليبية تحت قيادة زعيم أطلق عليه اسم شيخ الجبل انما كانت تعمل تحت تأثير الحشيش ومن ثم سموا بالحشاشين ، وهو اللفظ الذى حرفه مؤرخو الفرنجة بلفظة (أساسين) التى أطلقوها على أولئك الاقوام ولا تزال موجودة فى معجم لغتنا حتى اليوم .

وفى أيامنا هذه يقتصر تجهيز القنب حشيشا على عامة الشعب، فهو محصور بينهم كما قدمنا يأكلونه ويشربونه ويدخنونه فى القهاوى العامة وفى حوانيت خاصة به تسمى (المخاشش) وكلمة حشاش التى تطلق للدلالة على متعاطى الحشيش تستعمل أيضا فى لغة القوم للسباب والشتم .

والحشيش يؤثر فى الجهاز العصبى تأثيرا بالغا من الشدة والقوة الغاية القصوى . والظاهر انه يكسب التصور قوة وحركة فائقتين فيصبح مخ من يتعاطاه ويلتمس منه الغيبوبة والخدر مركز ازدواج أفكار غريبة بأحلام خيالية مضطربة . وبالجملة فان الحشيش يحدث تأثيرا يشعر صاحبه بشىء من الهناءة ونعيم البال يزداد ويتسع نطاقه الى أن يبلغ درجة الهذى والاختلال والشذوذ. وهو يثير الشهية الى الطعام ، ويدعو عند انتهاء التهيج المخى ، الى النوم الذى تخالطه الاحلام السعيدة . على انه لا يصيب الرأس بصداع ما ولا التنفس بشىء من الصعوبة والعناء وهو كجميع المشروبات التى تزعزع اركان المجموع العصبى يصيب متعاطيه بالجمود الذى يجعله الى الحيوانات العجم اقرب منه الى بنى الانسان .

٨ ـ الافيـــــون

الافيون نادر الاستعمال فى القطر المصرى ولكنه شـــائع بين الاتراك الذين يميلون الى التخدر به . وهو فى الحقيقة اليق بهم بالنظر الى ما فطروا عليه من حب السكون والميل الى التأمل أما الحشيش فالمصريون أميل اليه من غيرهم لان التأثير الملازم له يتفق مع ما جبلوا عليه من حدة التصور وسهولة الاختراع وقوة الحركة والميل الى كل مدهش أو مستغرب .

٩ ـ وجبات الطعـام

للمصريين وجبتان فى كل يوم الاولى قبل الظهر بساعة والثانية قبل غروب الشمس بساعة ، مهما يكن اختلاف الفصــول أما الاولى فيسمونها « الغداء » والثانية « العشاء » . والعشـاء هو الوجبة الاساسية . وهذا هو سر العادة الشائعة عندهم من طهى الطعام بعد الظهر . واذا لم يكن عندهم مدعوون لتنـاول الطعام فانهم يحفظون ما يبقى بعد العشاء من الطعام لاستنفاده فى صباح اليوم التالى . والعادة المتبعة فى الطبقة الراقية من الامـة أن لا يأكل رب البيت أبدا مع نسائه وأولاده .

ولمـا لم يكن فى استطاعة المسلمين أثناء شـهر رمضان أن يتعاطوا شيئا ما خلال النهار فانهم لا يتناولون طعاما الا فى الليل فاذا غربت الشمس وأذن المؤذن لصلاة المغرب انتهى الصـوم وبدأوا بتناول طعام الافطار . وقبيل نصف الليل يستأنفون كـرة الاكل ثم يتناولون طعام السحور قبل شروق الشمس . والاغنياء والفقراء منهم سواء فى اختيار أحسـن ما يروق فى الاذواق من شهى الاطعمة .

١٠ ـــ الآنية والاوعية المستعملة فى الطعام

قبل ان يجلس المسلمون الى موائد الطعام يغسلون أيديهم وفى بعض الاحيان أفواههم بالمـــاء والصابون . وذلك بأن يتقـــدم احد الخدم اليهم ومعه طست وابريق من النحاس أو القصدير أو الفضة ، اذا كانوا أغنياء . وللطست غطاء مثقب ترتفـــــع فى وسطه هنة تشبه الحوض الصغير . فاذا سكب الخادم المـــاء من الابريق على يدى المخدوم مر من ثقوب الغطاء وســـقط فى قاع الطست بحيث اذا تقدم الخادم الى مخدوم آخر ليغسل يديه لا يقع نظر هذا الاخير على أثر ما من المـــاء الذى غسل ســـابقه به يديه .

وتختلف مناديل الطعام (الفوطة) عما نستعمله نحن فى صيانة ثيابنا بكونه مستطيلا لا مربعا ونسيجه من القطن وسطحه مغطى بوبر كوبر المخمل قبل قطعه وتسويته . وهو فى بيـــوت الموسرين مزركش اما بالحرير أو القصب . وقد تبلغ قيمة الواحد منـــــه ما يعدل ثلاثمائة الى أربعمائة فرنك . والعادة أثناء الطعـــام أن يوضع منديل على الفخذين ويحمل آخر على الكتف بحيث يلتقى طرفاه على الصدر فيكون أشبه شىء بالوشاح وهذا تكون الزركشة فيه أكثر منها فى الاول ويكون بالتالى أغلى منه ثمنـــــا . وأغلب استعمال المناديل على هذا المثال عند العثمانيين لا عند المصريين .

والمشارقة بدويو الاصل من أهل العصر ما برحوا محتفظين فيما يتعلق بالطعام والمـــائدة بما تلقوه بالتسلسل عن أجدادهم من العادة التى تنحصر فى البساطة ومتانة الاوعية . ولا يزال المصريون الى عهدنا يتوخون هذه الخصائص فى طعامهم وموائدهم كما يظهر لك من اقتصارهـــم فى ذلك عـــلى صينية من النحاس أو غيره من

المعادن يختلف طول قطرها من قدمين الى ثلاثة أقدام وكرسى بارتفاع قدم ونصف توضع هذه الصينية عليه واجتماع هاتين الاداتين يتألف منه ما يسمونه « السفرة » التى يجلس الآكلون حولها على المخدات المحشوة أو على السجاجيد وتوضع أمام كل آكل قطعة من الخبز وملعقة .

والشرقيون لا يستخدمون الشوكة فى تناول الاطعمة . وملاعقهم على ثلاثة أصناف ، صنف لتعاطى الحساء والارز وكل طعام سائل القوام . وهو من الخشب المعتاد فى الاسر الفقيرة ومن خشب الآبنوس المزخرف بالكهرمان أو المرجان بل والاحجار الكريمة فى الاسر الغنية . وشكل الملعقة المصرية يخالف شكل الملعقة الاوربية من جهة أنها بدلا من أن تضيق شيئا فشيئا حتى تنتهى بطرف مدبب ، تعرض شيئا فشيئا حتى يكون طرفها على شكل قوس . وللحلوى والقشدة وما شابههما عندهم ملعقة خاصة . وهناك شىء من الملاعق أكثر تجوفا من الصنفين السابقين يصنع من الباغة ويشبه قعبا صغيرا وهو خاص بتعاطى الخشاف .

ولا يتخذ الشرقيون لتناول الطعام صحافا خاصة بكل منهم بل يأخذون من الصحفة العامة حصتهم من الطعام وليست هذه الصحاف من الخزف الصينى بل من النحاس وهى على شىء من العمق ولها غطاء تغطى به .

والاوعية المستعملة للشراب هى آنية الماء أولا . وهى نوعان عريض الفتحة ويسمى بالقلة وضيقها ويسمى بالدورق . ونصنع القلل من صلصال واسع المسام يجفف بحرارة الشمس وخاصيتها حفظ برودة الماء بالتبخر حتى فى وقت القيظ الشديد ويعطر داخلها عادة ببخور الاخشاب الصمغية العطرية الرائحة وبالمصطكى المجلوبة من البلاد اليونانية . ولها أغطية من الفضة

أو النحاس او القصدير او الخشب أو ورق النخل وتوضع فى صينية من المعدن تتلقى الماء الذى يرتشح منها . والقلل فى مصر يقابلها فى البلاد الاسبانية الجرازا (الخرزة) . وفى بلاد الشرق لا يستعملون الكوب لشرب الماء بل يشربون من فم تلك الآنية ممسكين برقابها ، على أن أصحاب اليسار يشربون فى أكواب « طاسات » من النحاس أو الفضة المذهبة أو الذهب .

١١ ــ آداب الطعام

ذكرت فيما تقدم أن الآكلين يقعدون القرفصاء حول السفرة . وهم اذا جلسوا كذلك أمكن أن يحيط بها منهم سبعة أو ثمانية . ونادرا ما تحتوى المآدب الشرقية مدعوين يربون على هذا العدد. فاذا تجاوزوه أقيم من الموائد بقدر ما يكفى لجلوسهم وحصول كل منهم على مكانه حولها . وقبل أن يتناول المسلمون الطعام يبسملون بقولهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » وهم لا يستعملون الشوك فى تناوله ورفعه الى الفم بل يأخذون ما يلزمهم منه بين أصابعهم فى الصحفة العامة الموضوعة وسط الصينية . وطريقة الاكل على هذا النمط ألطف مما يخطر ببال الاوروبيين الذين يسمعون هذا الوصف . ذلك لان جميع الآكلين يغسلون أيديهم قبل الجلوس على الطعام وينظفونها بعناية عظيمة .

ثم ان الطعام يقسم قبل وضعه على المائدة أجزاء صغيرة، اما بقدر عدد الآكلين أو زيادة عليه ، بحيث أن كلا منهم يستطيع أن يصيب منه كفايته بدون تكبد عناء ومن غير أن يلوث القطع الاخرى . ولا يشترك من أصابع اليد فى هذه العملية سوى الابهام والسبابة والوسطى من اليد اليمنى . وكيفية استخراج القطعة أن تؤخذ كسرة من الخبز وتجعل لفقين وتوضع بين الاصابع

الثلاثة المتقدمة للقبض عليها واستخراجها من الصحفة بنظافة تامة وبشيء من اللطف والرشاقة .

وصاحب البيت أو الداعى ينبغى أن يكون أول من يمد يده الى الطعام فاذا لم تكن له رغبة فى اللون الذى وضع أمام الآكلين فآداب الاكل تقضى عليه بأن يمسه اما بطرف اصبعه أو بواسطة قطعة من الخبز وبعد ذلك يتناول كل واحد من المدعوين ما يطيب له من الطعام .

وفى المآدب الكبرى التى يستدعى عدد المدعوين اليها اقامة عدد من الموائد تنقل الاطعمة من مائدة الى أخرى . وجرت العادة بأن تكون ألوان الطعام كثيرة جدا قد يبلغ عددها الاربعين الى الخمسين لونا أحيانا ، ولكنها غير وافية المقدار ، فيتمتع الآكلون على هذا المثال بلذة التنقل من طعام الى طعام من غير كبير كلفة . وتصلح فضلات الطعام غذاء للخدم .

ويلزم المصريون الصمت على الطعام . ومع اسراعهم فى تناوله فانهم يراعون القناعة ويلتزمون الاعتدال ، اذ من الخطايا الغليظة فى نظر المسلمين أن يدأب المرء على الاكل ، وقد بلغ حد الشبع . وتبلغ مدة مكثهم على الطعام نحو ثلث ساعة فاذا أطالوا المكث فقلما تتجاوز هذه المدة نصف الساعة . ومتى انتهى الطعام بادر الآكلون بالقيام محمدلين بقولهم : « الحمد لله » واعتنوا بغسل أيديهم وأفواههم كما فعلوا قبل الجلوس الى الموائد ورب البيت مضطر الى التخلف على المائدة حتى ينصرف عنها الآكلون . فاذا أكلوا وغسلوا أيديهم برحها ليغسل يديه كذلك ثم يجلس المدعوون على الدواوين لتدخين التبغ وشرب القهوة .

١٢ ـ الاقتداء بالاوربيين فى تناول الطعام

هم بعض الذوات والاعيان منذ زمن بتقليد الاوربيين فى طريقة طعامهم فاقتنوا صحافا كصحافنا واستعملوا لتناول الطعام منهـا الشوك والمدى وقرنوها بالاكواب لتعاطى المـاء . غـير أن الاسلوب الاوربى فى هذا الموضوع يلقى من الصعوبات ما يحـول دون انتشاره وذيوعه بين سائر الطبقات وكل ما بذل من المساعى فى هـذا السـبيل حتى الآن كانت نتيجتـه التقليـد الاعمى الذى ينـافى الطبع والذوق . فلقد شهدت بعينى رأسى جماعة منهم اقتنوا أفخر ما يكون من الآنية الخزفية يشربون الحساء فى الصحاف الفرطاحة الصغيرة الخاصة بتناول الحلوى والعكس بالعكس . وشهدت غيرهم يشربون النبيذ المعتاد فى أقداح الشمبانيا وغيرهم يجمعون بين النمطين الشرقى والغربى فى تناول الطعـام فيمسكون اللحم فى الصحفة بأصابعهم ثم يرفعونه الى أفـواههم بالشوكة بعد طعنهم اياه بأسنانها . وكثيرا ما يحدث فى المـأدبة التى تقام على النمط الفرنسى أن المصرى الذى تقدم اليه الصحفة ليأخذ منها كفايته يتناولها من يد مقدمها ويضعها أمامه ليختص نفسه بكل ما يحتويه . وخدام السماط الموكلون بتفريق الطعام عـلى الآكلين لا يدركون حقيقة واجباتهم فى مثل هذه الظروف ، دع أنه بسبب ما يصيب الآنية من التلف والعطب لغباوتهم وسوء خدمهم ، يصبح من المتعذر الاستعاضة عنها بغيرها .

١٣ ـ طعـام الفـلاحين

عرف الفلاحون بالقناعة فى المأكل والمشرب والاكتفاء منهمـا بما يسد الرمق وخبز الذرة قاعدة غذائهم بل وكثيرا مايكون الغذاء الوحيد الذى يعتمدون عليه . ويحدث أن يضـيفوا اليه ، اذا

استطاعوا ، الفول المدمس الموضوع فيه بعض السمن والملح . أو الارز أو البلح أو الخيار أو الشمام أو السكرنب أو البسلة أو الجبن المالح أو اللبن المخضود أو الفسيخ أو لحم الجاموس الخ ولا يتعاطون من السوائل سوى الماء القراح وقهوة البن .

٣

الاثـــــــات

ملحوظات عامة — المنظـــرة : الدركة والليوان والديوان — زخرفة الجدران والسقف — الرفارف والبراويز الحائطية — زجاج النافذات وحديدها والفرش — مفروشات الفقراء .

١٤ — ملحوظات عامة

ترى فى غضون تفاصيل الحياة الداخلية المنزلية للعربوالاتراك آثارا تدل على أصولهم البدوية ويتبين منها أن احتفاظهم بالتقاليد كان من الشدة بحيث لم تؤثر معيشتهم الحضرية منذ بضعة قرون فى شكل الامتعة التى يؤثثون بها منازلهم . فان الناظر الى أثاثهم أول ما يخطر بباله أنهم ما برحوا على الاستعداد التام للرحيل،كما لو كانت المنازل التى يسكنونها اقل استقرارا وثبوتا من الخيام التي سرعان ما تقوض لتضرب فى مكان آخر .

ومعنى هذا أنهم يربأون بأنفسهم عن اقتناء الاثاث والامتعة الثقيلة المتعذرة النقل التى يؤثث الغربيون بها منازلهم ويظهر منها أنهم أخذوا على الزمن عهدا ببقائهم فيها طول المدى . فانك لا ترى فى حجراتهم لا مكاتب للكتابة ولا مناضد ولا خزانات للثياب ولا ما جرى مجراها من الاثاث التى تأتلف مزية الانتفاع فيهـــا

بالاسراف فى الزخرفة والتنميق ، والمرايا الصافية الاديم والارائك الناعمة ، والزرابى المبثوثة ، والكراسى المصفوفة ، والتماثيل المتقنة ، والساعات الدقيقة الصنع الخ . بل أن متاعهم روعى فيه الاقلال مع البساطة فلم يعد شاملا لشىء سوى حصر السمار والسجاجيد والطراحات . فالشرق لم يكن المكان الذى ينبغى أن يقصد اليه الانسان للبحث عن تحف البذخ وطرف الرفاهة والنعيم التى تفنن الغربيون وحدهم فى أساليب ابتكارها ويرجع فضل تحقيقها وابجادها الى عبقرية العلماء والفنانين منا ومهارة عمالنا وجودة صناعتهم . والواقع أن الشرقى الذى يلذ لبعض الشعراء الخياليين تصويره فى قصره أو داخل حرمه متقلبا فى الهناءة والنعيم وسط ما يعجز القلم عن وصفه من مظاهر الابهة والجلال يعيش فى قصارى ما يخطر بالبال من وسائل البساطة والتقشف والقناعة بالقليل .

١٥ — المنظرة والدركة

لا يلفت النظر من حجرات البيوت المصرية كالمنظرة أى غرفة استقبال الرجال . والمنظرة غرفة مربعة أو مستطيلة تحتوى نافذة أو نافذتين تطلان على صحن الدار . وجزء من الارض الممتدة بين باب المنظرة والجدار المقابل ينخفض بمقدار خمسة ابهامات أو ستة عن بقيتها ويسمى « الدركه » . والعادة فى منازل الاغنياء أو الاثرياء أن توجد بوسطه فستقية ينبثق الماء منها على الدوام وأن تبلط بالبلاط المختلف الالوان على أشكال هندسية جميلة وبأحد طرفيها المقابل للباب قاعدة مبنية بالحجر ومستندة الى الجدار بارتفاع ثلاثة اقدام أو أربعة ذات أقواس وحنيات محمولة على أعمدة صغيرة وتسمى « الصفة » .

والغرض من الصفة احتواء آنية الطيب والبخور وأدوات غسل اليدين قبل الطعام وبعده والوضوء وقلل الماء وصينية القهوة الحاملة للظروف والفناجين الخ . وفى المنازل المنجدة المنمقة تحلى حنيات الصفة وأقواسها والبناء الذى تحمله بالغضائر القيشانى .

١٦ ــ الليــــوان

يسمى الجزء المرتفع من أرض المنظرة بالليوان وهى كلمة معناها المكان المرتفع . ويبلط الليوان عادة بالبلاط المعتاد لانهم يفرشونه فى الصيف بحصر السمار وفى الشتاء بالسجاجيد وحول الجدران الثلاثة المحيطة بالليوان تمتد الدواوين (الكنبات) .

١٧ ــ الديــــوان

تطلق لفظة الديوان من جهة عامة على الحجرة برمتها ومن جهة خاصة على صفف مؤلفة من طراحات طويلة أو قصيرة يبلغ عرضها عادة قدمين ونصفا وسمكها من أربعة ابهامات الى خمسة. وهذه الطراحات تفرش اما على وجه الارض مباشرة واما على دكاكين من الحجارة أو الواح مرتفعة من الخشب أو أقفاص متخذة من سعف (جريد) النخل بحيث يبلغ ارتفاعها من خمسة ابهامات الى ستة وتكون بما عليها فى ارتفاع الكراسى المعتادة تقريبا . والطراحات تتخذ من القماش وتحشى اما بالقطن واما بالاسبطة فى الاسر الفقيرة . وهناك مساند يبلغ ارتفاعها قدما ونصفا فى ضعف هذا العرض طولا تصف مستندة الى الجدران فى وضع عمودى على الطراحات لكى يستند الجالسون اليها . وتكسى الطراحات عادة بالجوخ اذا كانت معدة لجلوس الرجال وبالقماش الهندى (الشيت) أو الحرير المزركش بأسلاك الذهب

اذا كانت معدة لجلوس النساء . وتنتهى هذه الاغطية ســـــواء كانت جوخا أو قماشــا فى أطرافها السابلة الى أسفل مقدمة الديوان بالرفرف أى السجق . أما المساند فيغطى وجهها الظـــــاهر فقط بقماش من نوع الذى غطيت به الطراحات وغالبا ما يكون هــــــذا القماش موشى بالطرازات المختلفة الاشكال والالوان من الحرير .

١٨ ــ زخرفة الجدران والسقوف

لا تغطى الجدران فى مصر بالقماش وانما تبيض بالجير فى منازل الفقراء وتطلى بالزيت فى دور الاغنياء . ولـمــا كان الشرقيون لا يمارسون التصوير لما ورد فى الشريعة من النصوص القاضية بتحريم تمثيل الصور البشرية فأن ما تخطه أقلام الفنانين منهم فى الزخرفـــة لم يكن الا رسما غليظا لا أثر فيه لاصول الفن ودقائقه فأنهـــم اذا تصدوا لرسم شىء لا يراعون فيه نواميس الضوء ولا أحكام المنظور ولا مقتضيات الذوق . وكل ما تتناوله أقلامهم بالتصوير رسم القصور والمآذن والاشجار والحدائق والفسقيات الخ وكلها لا أثر فيه ، كما قلنا . من طلاوة الفن وحسنه . على أنهم يبرعون بتفوق عظيم فى الرسوم العجيبة المؤلفة من الخطوط والزوايا والدوائر ويجمعون فيها كل ما ابتكرته عبقرية العرب فى فن التصوير الهندسى . ويجعلون السقوف من الخشب عادة تذرعا الى تصوير تلك الرسوم عليها .

١٩ ــ الرفارف والبراويز

القاعدة العامة فى النظام الهندسى للدواوين أن تتخلل جدرانها الرفارف والدواليب الصغيرة . ويصفون على الاولى آنية الخزف الصينى وعـــلى الثانيـــة أدوات المائدة . وأخشاب هذه الرفارف والدواليب تتألف . كما يشاهد فى جميع البيوت تقريبا ، من قطـــع صغيرة متعاشقة بعضها فى بعض ومنسقة بحيث تتكون منها رسوم

نشبه ما تحتويه منها الغضائر القاشانى . وهناك سببان لصناعة الآثاث المصرية على هذا المثال أحدهما قلة الخشب فى القطر المصرى نتراهم يتوخون هذه الطريقة للانتفاع بالقطع الصغيرة منه والثانى أن حرارة الجو تدعو الى انشقاق القطع الكبيرة من الخشب كالالواح لكبيرة التى ، اذا استعملت ، لا تلبث أن يصيبها هذا الطارىء .

٢٠ — زجاج الشبابيك والمفروشات

ذكرت خلال وصفى للمنازل المصرية بعض الشىء عن الشبابيك. وأضيف الان الى ما ذكرته عنها أن ليس لها دفتان كما هو الحال فى أغلبها عندنا . فأن حلوقها تنقسم الى قسمين أحدهما وهو الاعلى يظل ثابتا لا يتحرك والآخر وهو الاسفل يتحرك بحركة راسية صعودا وهبوطا . والزجاج المركب فيها ردىء الصنع مهمل الشأن اذ يحدث ان ألواح الزجاج فى بيت أصبح عتيقا لا تكون قد غسلت مرة واحدة منذ تركيبها فى مكانها . وهى اذا انكسرت بباعث ما ، قلما يفكر فى الاستعاضة عنها بغيرها ، لان الخشب المركبة فيه مصنوع بحيث تستلزم عملية وضع الزجاج الجديدة تفكيك أجزاء الشباك برمته . وقد اعتاد المصريون أن يعلقوا أمام نافذاتهم قطعة من قماش الشيت أو القماش الهندى ، وفى النادر قطعة من الحرير بمثابة ستار لا يتجاوز طوله طول النافذة . ولا يحلى بشىء ما من الرفارف (السجق) أو غيرها مما اعتيد زخرفة الاستار وتنميقها به .

٢١ — الادوات الاخرى لتأثيث المنازل

رأينا فيما سبق أن الشرقيين لا يستعملون الاسرة لنومهم ، وذكرنا كيف ينامون وأن ليس للنوم عندهم غرف خاصة . ونقول الآن انهم لقضاء ليلهم، اذا كان الفصل صيفا ، يضعون الطراحات على الدواوين ثم يرقدون فوقها . اذا كان شتاء يبسطون هذه

الفرش فى غرفة صغيرة تسمى بالخزانـــة تكون عادة من الغـــرف الملحقة بالمنظرة ، ولانتشار الحشرات فى مصر ترى الاغنياء وأصحاب اليسار يتقون شرها بالكلل (النموسيات) المتخذة من القماش أو الحرير الموسلين أو الجز أو أى نسيج آخر دقيق السلك .وبواسطة هذه الاقمشة يضربون الكلل فوق الطراحات فتكون بمثابة الظلة لها ويثبتونها من زواياها الاربع بحبال دقيقة تناط بحلقات موضوعة بالجدران الاربعة للغرفة .

وتبلغ الكلل أحيانا من العظم ما يجعلها تشغل الديوان كلـــه تقريبا وتحمى من البعوض أسرة برمتها . وفى بيوت الاغنياء تزخرف الكلل بالنقوش ومتى انقضى الليل واستيقظ النائمون نزعت من مكانها وطويت لتنشر مرة أخرى قبيل الرقاد .

وليس لدى الشرقيين دواليب لحفظ الثياب لانهم يكتفـون فى صيانتها ، بجعلها صررا تحيط بها مناديل كبيرة تسمى (البقجة) ويتخذون لكل نوع من الثياب بقجة خاصة به . ولما كانت المجاسد أى الثياب التحتية لاتكوى ولا تثنى بواسطة النار فى مصر ، وكان استعمال القبعات والمثقبات (الدانتلا) مجهولا من نسائها فأن هذه الثياب تلبس غير معرضة لعبث العابثين بها ، فضلا عن أن صرها فى البقج يجعلها أيسر حملا وأسهل استعمالا عند الحاجة .

ولا تقع عين الناظر بمصر من المرايا الا على الصنف الردىء الرخيص الثمن الوارد من مدينة البندقية . وهذا لاينفى أن هناك عددا من المرايا الجميلة التى أخذ بعض العظماء وذوى الحيثيات يستوردونها من البلاد الاوربية .

ولدى أصحاب الوجاهة والثروة من الاهالى ساعات حائطية آلاتها من الخشب أو النحاس وهى مما تصنعه المانيا برسم التصدير

الى الشرق الادنى . والمصريون مغرمــون باقتنــاء هذا النوع من الساعات حتى انك لتجد فى الحجرة الواحدة ساعتين وفى بعض الاحيان ثلاث ساعات من هذاالنوع .

ولقد سبق لنا الكلام على الصينية التى يتناول المصريون حولها الطعام كما تكلمنا عن الاشياء المختلفة التى تصلح لهذا الغــرض ، فلا حاجة اذا الى استئناف الكلام عليها .

أما الشمعدانات فمن النحاس بوجه عام . وليس فى مصر شيء من المصابيح التى نراها فى غرف الاستقبال الكبيرة عندنا تفيض النور على جوانبها فتجعلها ساطعة الضياء . لان الشرقيين ما برحوا عاكفين على استعمال المصابيح الغليظة التى كان يستصبح بها أجدادنا منذ بضعـــة قرون . ويستعملــون أيضا للاستصباح شمعا من الدهن ردىء الصنع جدا غير أن لدى الاغنياء ثريات من زجاج البندقية .

وقد ادخلت الى مصر وفى السنوات الاخيرة أشياء كثيرة مما تؤثث به المنازل عندنا فى بيوت العظماء والاثرياء ولست أذكـــر بهذه المناسبة قصور أصحاب السمو التى بما احتوته من نفيس الرياش وفاخر الاثاث تعد مستكملة لحاجيات الحضارة الاوروبية .

٢٢ — أثاث الفقراء

أما الطبقة الدنيا فليس لديها من الاثاث بالطبع مثل ما لدى أصحاب اليسار ، وان يكن فى حد ذاته على شيء كثير من البساطة والسذاجة . ذلك لاقتصار الفقراء ، فى تأثيث بيوتهم ، على حصيرة سمار وسجادة وطراحة وبعض مساند أو مخدات . أما الفلاحون

فيقتنون حصيرة واحدة ويتخذونها فراشا لنومهم وكرسيا لجلوسهم • ومائدة لطعامهم .

وليس عندهم من الاوعية الا بعض آنية من الصلصال وهاون لصحن البن وتنكة لعمل القهوة وشبك للتدخين . ذاك كل ما يتألف منه أثاثهم . وليس فى الامر مايستغرب لان هذا الاثاث أوفق مـا يكون لحالة الاكواخ التى أتخذوها مساكن لهم .

٣

آداب الاجتماع

بيانات عامة — التحية — القواعد المرعية فى الاستقبال بالديوان أى مكان الجلوس — القهوة — الشبك

٢٣ — بيـــانات عامة

تنزل آداب الاجتماع من أمة بمنزلة الحركات والاشـــارات والاوضاع من الفرد . فآداب الاجتماع حالات تكشف النقاب عن حقيقة أمة بأسرها بل هى ، فى يد الباحث الراغب فى تصوير حضارة أمة من الامـــم ، الذى لا ينبغى لـــه أن يطرحه لانه خير ما يبلغ به الى غايته فى تشكيل كيانها .

وثمة اعتبارات لاشك فى أنها أقل مما تقدم ارتباطا بالفلسفة ، ولكنها ترمى الى غرض المنفعة ، تدعونى فى هذا المقام الى سرد بعض القواعد والاصول التى تنظم المعيشـــة اليوميـــة للوطنيين المصريين . وسيسر الرحالون الذين يطوفون فى الشرق ، قبل أن يلموا مقدما ببعض أخلاقه وعاداته ، أن يجدوا فى البيانات المبسوطة

فى هذا الفصل متنا وجيزا لقواعــد آداب الاجتماع الشرقيــة . وبتلاوتهم هذا المتن والمامهم بما يحتويه يألفون شيئا فشيئا الاداب المرعية عند المسلمين ولا ينتابهم من الحيرة والاضطراب ما ينتاب الذين يختلطون بأمة دون العلم بشيء من عاداتها وأخلاقها . وأية حيرة للرحالة الاجنبى من أن يجد نفسه تجاه أخلاق وعادات لايفهم منهاشيئا . الا يكون شأنه وهذه حالته شأن من يحتاج الى درس لغة جديدة للتفاهم مع أبنائها ؟ أما اذا ألم بما يجهله من أمرها فانه يسهل عليه تبين حقيقة مدنيتها فيجتهد فى التوفيق بين سلوكه وعاداتها وأخلاقها .

٢٤ ــ التحيـــــة

فى الغرب ، اذا ساقت المصادفة شخصين الى الالتقـــاء فى الطريق ، فانا نرى الذى يستشعر منهما بسمو الآخر عليـــــه فى الوجاهة أو العلم أو الثروة يبتدره بالســــلام . أما فى الشرق فصاحب المرتبة العليا هو الذى يفاتح صاحب المرتبة الدنيا به .

فبين التحيات عند الشرقيين تفاوت يرتبطارتباطا وثيقا بمراتب الذين يتبادلون التحية . فالنظيران اذا التقيا مثلا سلم كلاهما على الآخر بيده اليمنى رافعا اياها الى الفم ثم منه الى جانب الرأس فاذا لم يكن التساوى بينهما تاما ، كأن كان هناك تفاوت يميــز أحدهما على الآخر ، فالارفع درجة من الاثنين هو الذى يجب عليه أدبا أداء التحية بالوصف الذى أوردناه . ولكن يجب عــلى من يتلقى التحية فى هذه الحالة أن يردها بمثلها أو أحسن منها ،وذلك بأن يحنى رأسه وجسمه احناء خفيفا . أما اذا أريد تحية شخص من الطبقة الدنيا فالعادة الاقتصار فيها على رفع اليد الى الصدر. وفى هذه الحالة يجب عــلى من يتلقى التحية أن ينحنى انحنـــــاء

محسوسا ويرسل يده اليمنى الى أسفل لكى يرفعها بعد ذلك الى الراس . واذا كان أحد أفراد الطبقة الدنيا فى حضرة أمير أو كبير فقد وجب عليه تأدية التحية على المثال المتقدم بكلتا يديه . .

وفى تحية النظير للنظير يستمر الاثنان على السير فى طريقهما. فاذا كان هناك فرق فى المراتب ، فالواجب على الادنى مرتبة ان يقف ويواجه الذى يجب عليه رد التحية اليه .

وتصحب التحية التى تعبر عنها الاشارة بكلمة (صباح الخير) أو (مساء الخير) أو (نهاركم سعيد) .

واذا التقى اثنان فى طريق تساءلا عن أحوالهما الصحية وعن كيفهما ومزاجهما . وأبناء الطبقة الدنيا يكررون هذا السؤال بتكرار الكلمات الآتية (اريك) (طيبين) الخ . مع التصافح باليدين من غير ضغط ورفعها الى الفم فى كل مرة يوجهون فيها السؤال .

ونادرا ما يستفهم من الشخص المسلم عليه عن أخبار أفراد أسرته وخصوصا النساء منهم . فان الآداب الاسلامية تستدعى امساك الرجل عن توجيه التحية اليهن . ولا شىء يخالف مقتضى الآداب الاوربية من تلك الآداب الاسلامية كالعمل بهذه القاعدة . حقا انه ليتعذر جدا تمييز النساء بعضهن عن بعض وهن مؤتزرات بذلك الازار الذى لا يرى من خلاله شىء يعرفن به ، ولكن الواجب بحسب تلك الآداب ، حتى فى حالة العلم بهن التظاهر بجهلهن ، والا عد ذلك من المخالفات التى لا تتفق مع أصول الحشمة والصيانة . ثم أن النساء لا يسلمن بعضهن على بعض فى الطريق .

٢٥ ــ القواعد المرعية فى الاستقبال بالديوان

الديوان هو البهو المخصص لاستقبال الرجال . وقد ذكــرت فيما تقدم ترتيبه وتأثيثه ، وأذكر الآن أن الواجب على من يغشى هذا المجلس أن يترك حذاءه عند الباب أو فى الجزء الواطىء من البهو « الدركة » حتى لا تتسخ الحصر والسجاجيد بالقـــــذر أو يصيبها شىء من الدنس الذى لا يتفق مع القيام بفرض الصلاة عند المسلمين . وليس على من يغشى المجلس أن يوجه التحية الى الحاضرين ، كلا بل أن رب البيت هو الذى ينهض واقفا عنــــد دخوله اذا كان من أهل مرتبته ودرجته . فاذا كان أعلى منه مرتبة ودرجة أقبل عليه وتنحى له عن مجلسه . أما اذا كان أحط منــه مرتبة فليس على رب المنزل الا أن يتحرك حركة يوهم بها أنه يهم بالوقوف ، ولكنه يبقى مستقرا فى مكانه ثم يشير اليــه بالجلوس فيجلس على الحصير أو السجادة أو بحافة الديوان معلقا احــدى ساقيه وثانيا الاخرى تحته تبعا لمـــا يريد أن يظهره من التوقير والاحترام لرب البيت . وانما يجب عليه فى هذه الاوضاع المختلفة أن يجعل يديه مشتبكتين على أسفل البطن . أما رجال الجنــدية فيضعون يدهم اليسرى على مقابض سيوفهم .

وفى مجلس سمو والى مصر يظل الحاضرون جميعا وقوفا على أقدامهم ، حاشا الامراء من أعضاء الاسرة الحاكمة والباشـــاوات وأكابر رجال الدين . ولم يتبع سموه هذه العـــــادة مع الاجانب ولا سيما الاوروبيين منهم فانه يدعو الى الجلوس جميع الاجـــانب الذين يقدمون اليه .

أما الافرنج الذين فى خدمة مصر ، فانه يطلب منهم مراعـــاة عادات الشرقيين فى كل أمر .

ولكبار الضباط فى دار الوزير حق الجلوس على الديوان كما أن لضباطهم حق الجلوس فى حضرتهم وهـــكذا بحسب ترتيب الدرجات فى هيئة الاجتماع العسكرى .

ويجلس الذين يغشون مجالس سمو الوالى بعضهم الى جانب بعض بحيث يكون أسماهم مرتبة وأعلاهم مقاما أدناهم منه . على أن هذه القاعدة الادبية غير مرعية دوما فقد شوهد سمو الوالى وكثير من العظماء يهملونها فى بعض ظـــروف معيشتهم حتى أنك لتجد الامير فى بعض الاحيان يلعب الشطرنج مع أحد خدمه ويأذن له بالجلوس على الديوان من أجل ذلك .

ومتى انتهى المجلس يقوم الحاضرون بدون أن يفوه أحـــدهم بكلمة ويتراجعون الى الخلف صارفين وجوههم نحو صاحب الدار حتى لا يولوه أدبارهم أو أكتافهم . وعليه فى هذه الحالة أن يجيبهم وهم يجاوبون على تحيته وينصرفون تباعا . وقد ينهض رب البيت واقفا أو يصحب بعض الزائرين الى الباب ، اذا اقتضى أحـد هذين الامرين مكان الزائر المنصرف ورفعة قدره .

والسيدات تتبعن بينهن هذه القواعد وتعملن بها فى استقبال الزائرات . وهذه العادات الاهلية التى حفظتها التقاليد وجعلتها راسخة ثابتة رسوخ الحضارة التى اشتقت هى منها معـــروفة ومرعية من الجميع والكل مجمعون على ضرورة الاحتفاظ بهـــا واستدامة وجودها بالحرص على اتباعها حرصا يكاد يكون ايمانا أو يقينا دينيا .

٢٦ — قهـــوة البن

مما لا يختلف فيه اثنان شيوع تعاطى قهوة البن فى أنحـــاء بلاد الشرق . فان الشرقيين يقدمونها الى جميع الذين يحـــق لهم

الحضور فى مجالسهم . فالباشا الذى يتلقى فى دار حكومته اميرا خطيرا أو عظيما من العظماء أو قاضيا جليلا يقوم نحوهم بهـذا الواجب الادبى ويكفى أن يلفظ بكلمة القهوة ليكرر أحد كبار الخدمة هذه اللفظة خارج الغرفة بصوت جهورى مستطيل . وفى هـذا النداء دلالة على الاحترام العظيم لشخص الزائر .

أما اذا كان المزور أقل من ذلك شأنا وأحط رتبة فليقتصر على طلب القهوة بنفسه واصفا اياها بوصف الجودة .

وتشرب القهوة فى آنية صغيرة من الخـزف الصينى تسمى بالفناجين ، وهى تشبه قشر البيضة مقطوعة نصفين من وسطها وتوضع الفناجين فى قوائم يسمونها بالظروف وهى أشـبه شيء بالآنية التى يوضع فيها البيض النمبرشت . والظروف تصنع عادة من الفضة أو الذهب أو المينا ، وترصع أحيانا بالاحجار الكريمة. وعند الفقراء يكون الفنجان من الخزف الصينى والظرف من النحاس وتصف عشرة فناجين الى اثنى عشر فنجانا وقدر هذا العـدد من الظروف على محيط صينية من النحاس أو الفضة ترتفع بوسـطها دكة القهوة التى تتخذ من أحد تلك المعادن وتغطى الصينية عادة بقطعة مستديرة من القماش المزركش بالذهب أو بغـيره بحسب مقدرة رب المنزل .

ويقوم الخدم أو العبيد بصب القهوة فى الفناجين ثم بتقديمها الى الحاضرين ممسكين الظرف من أسفله بأطراف الاصابع فيتلقى الزائر الفنجان بالقبض على الظرف بالابهام والاصابع الثلاثة التالية له من اليد اليمنى . وتقدم القهوة فى أول الامر الى الشخص الذى يؤهله مقامه أو رتبته أو ثروته لان يحوز شرف الاسبقية عـلى غيره فى الخدمة فاذا وجد بين الحاضرين أكثر من واحد يستحقون هذا الاعتبار فان فناجين القهوة تقدم اليهم فى آن واحد وعليهـم

قبل تناول الفنجان الذى يقدم اليهم أن يحيوا بعضهم بعضــــا .
أما اذا كان الزائرون أحط مرتبة من المزور فلا يصح تقديم القهوة
اليهم الا بعده بحسب ترتيب مجالستهم منه والواجب عليهم فى هذه
الحالة أن يحيوا صاحب البيت بالاشارة قبل تناول الفنجــان .
وكلما تلقى تحية أجاب عليها برفع فنجانه الى مؤازاة وجهــه .
وعلى أثر هذه المظاهر الادبية يشرب كل القهوة التى قدمت اليه .

ولا ينبغى فى شرب القهوة أن تشرب الا مصا بطرف الشفتين
ومن غير امالة الفنجان ومن يريد من الحاضرين اظهار الاحتــرام
للمزور باعتبار كونه أرفع منه شأنا فعليه أن يتحول برأسه عنــه
تحولا خفيفاً وأن لا يشرب من القهوة الا الشىء اليسير منها .

وقد سرى قانون الآداب الاسلامية حتى على الكيفيــة التى
ينبغى أن يرد الفنجان بمقتضاها الى من قــدمه . فانه يقتضى فى
حالة ابتعاد الذراع عن الجسم لرده الفنجان أن يكون هــــذا
الابتعاد خفيفا وأن لا يصحبه كلام مع الخادم وانه متى تنــــاوله
هذا الاخير منه يؤدى اشارة التحية كما أداها وقتما قدم اليه .

وقد ألف الخدم فى أخذ الفنجان عادات وطرائق تشــبه التى
يقدمونه بمقتضاها رقة وأدبا . ذلك لان الفنجان لا يحتوى عــلى
بروز خارجى بأنه حينما يتلقاه يفعل ذلك بحركة لطيفة بوضعه يده
اليمنى على فتحة الفنجان وتركيزه قاعدة الظرف على يده اليسرى .
ولا يجوز التحدث مع رب البيت فى عمل الا بعد شرب القهوة .
فاذا ابتدره الزائر بالحديث فى المصلحة التى ساقته اليه قبل ذلك
كانت هذه المسارعة تهجما لا مبرر له بل مسلكا لا يليق بالمتأدبين .
وهذه العادة يستند البعض اليها فى اقامة الدليلِ على كسل الشرقيين
ودعتهم وتهاونهم والتى يبدو ، أول وهلة ، أنها مضيعة للوقت

فيما لا جدوى منه ترتجى لا تخلو من الفوائد والمزايا . لانها تفتح للزائر والمزور معا طريقا للانتقال الصالح من المشاغل التى كان خاطرهما مشتغلا بها قبل الزيارة والتى سيشتغلان بها فى خلالها. وبهذه المثابة لا يحسب المزور أن الزائر أخذه ، بزيارته اياه فى الوقت غير الملائم أو فى الاوان الذى كان لا يتوقع فيه زيارته ، على غرة منه . لانه بما ينقضى من الوقت أثناء تعاطى القهوة يكون قد أخذ الاهبة للمفاوضة فى الموضوع الذى يعرف أن زائره جاء من أجله واستعد له استعدادا فكريا .

ومن جهة أخرى فان الزائر نفسه يجد ، أثناء تعاطيه القهوة ، فسحة من الوقت للتمعن فيما سيلقيه من القول على المزور وتنسيقه على الوجه الذى يراه أسهل تناولا على الفهم أو أبلغ فى الاقناع بالحجة . واذا فرض أن أحدهما أو كلاهما كان حينما وقع نظره على صاحبه قد ثارت فى نفسه ثائرة الغضب أو اعتراه الحياء أو تملكته احدى العواطف المؤثرة فى النفس فان الوقت ينقضى فى تبادل التحيات والتسليمات وشرب القهوة يمهد للغاضب سبيل الفيئة الى السكون والحلم اللذين لابد منهما فى كل مفاوضة أو مناقشة .

٢٧ — الشبك

ليس فى استطاعتنا ، اذا كنا فى أوربا ، أن نصور لنفسنا منظر تركى وليس بيده شبك يستثير الدخان منه . وما من أحد فى الشرق الا وهو مغرم بتدخين التبغ الا أن القوم يسلكون فى تدخينه مسلكا يدل على تفوقهم فى سلامة الذوق ورشاقة الحركة وما الى غيرهما من المظاهر التى يندر أن يتصف بها المدخنون عندنا .

والشبك اداة يستجلب الشرقيون بواسطتها لذة تحــولت فى نفوسهم ، كعادات كثيرة غيرها ، الى طبيعة ثانية . وللطـــرق المستحدثة والثروة تأثير فى الشبك باعتبار كونه احـــــدى الادوات المنزلية التى يفضلها المدخن على غيرها . والاجزاء الثـلاثة التى يتألف الشبك منها هى : الفم والانبوبة والجوزة أو الحجر .

فالفم ويسمى أيضا التركيب هو الجزء الذى يوضــــــع بين الشفتين لاستنشاق الدخان ويكـــون عادة من الكهرمان رفيعا أو غليظا قصيرا أو طويلا ، وعلى كل حال مناسبا لطول الانبوبة مع اختلاف فى الشكل والزخرف اختلافا يوافق مزاج صاحبه وميله . ويبلغ ثمن الفم عادة ، اذا كان من الكهرمان ، من خمسين فرنكا الى خمسمائة فرنك . ومن الافمام ما يتجاوز ثمنه هذا الحــــــد ويكون مزخرفا بالمينا أو مرصعا بالاحجار الكريمة . ويقتصر الفقراء على اتخاذ أفمامهم من القرن أو سن الفيل .

ويختلف طول الانبوبة من قدمين الى ستة أقدام وتصنع اما من أعواد شجر الكراز أو الياسمين أو أى خشب ســــواهما وتكسى بالحرير . واذا كان صاحبه من ذوى اليسر والقدرة كسا طرفيها، بطول اربعة ابهامات أو خمسة ، بالفضة أو الذهب أو المينا وربما رصعها بالاحجار الكريمة . أما الفقراء فيقتصرون عــــلى الخشب المعتاد فى صناعة الانابيب لشبكاتهم وربما اكتفوا بقطعة من البوص لهذا الغرض .

اما حجر الشبك فلا يكون من غير الصلصال المحــــــروق وله أحجام مختلفة ويحلى بنقوش على النمط العربى وتختلف الاحجار عن بعضها بحسن رونقها وجمال نقوشها ليس الا .

ولم يكن التلهى وقطع الوقت بتدخين الشبك وقفا على الرجال فقط ، فان النساء يقطعن فراغ وقتهن أيضا بتدخينه داخل الحرم. وهذه العادة أقل شيوعاً بينهن منها بين الرجال . ثم ان النساء لا يجهرن بالتدخين ، وانما يدخن فى حجراتهن بعيداً عن الاعين . وشبكاتهن أجمل رونقا من شبكات الرجال لكثرة ما فيها من الزخرفة عند النساء الحاسة السادسة بعد حواسهن الخمس .

ويستعمل المسلمون للتدخين أجود أصناف التبغ ويعطرونه أحيانا بماء الورد وبقطع صغيرة من العنبر يخلطونه بها فيكون الدخان الذى يستنشقونه عطرى الرائحة محبوبا فى الشم .ويتخذون اثناء التدخين أوضاعا تنم عن الوقار والهيبة من جهة وعلى الدعة والسكون من جهة أخرى ، دع أنها تساعد على المضى فى التأمل والسبح فى أجواء التصور . وجلال تلك الاوضاع مضافا الى أطوال الشبكات وسحب الدخان العطرى المتصاعدة أكاليل بعضها تلو بعض والظروف والاحوال التفصيلية الاخرى ، لما يساعد على تحبيذ تلك العادة التى تبدو لنظر الاوربيين مجردة من مظاهر الرقة ومنافية للذوق السليم .

وكان لا بد للشبك أن يدخل ، وله ما ذكرنا من الشأن والمكانة، فى دائرة الآداب الاجتماعية . غير أن استعماله أقل شيوعا من استعمال القهوة ولهذا كانت القواعد المرعية بشأنه مقتصرة على أنه لا يقدم عادة الا من المرؤوس لرئيسه أو من النظير لنظيره . فمن النادر اذا أن يقدمه الرئيس لمرؤوسه ، واذا قدمه فلا يكون ذلك الا لقصر مدى التفاوت بينهما فى الدرجات وشكل الشبك وحليته يدلان على درجة الاحترام الذى يستحقه من يقدم اليه . ومن ثم كان للشبك درجات تبلغ الخمس أو الست بينها من التفاوت والاختلاف ما يجعلها منطبقة على أقدار الذين تقدم اليهم .

ثم ان الاحتفال بتقديم الشبك ينبغى أن يتفق مع الاساليب الاسلامية الممتازة بالرقة فى الادب . فان الخادم المكلف بتقديمه لا يمسك به الا من أسفل الانبوبة فى النقطة المتوسطة من طولها. ويكون امساكه بثلاثة من أصابع اليد اليمنى فقط كما يمسك قلم الكتابة مع العناية بجعل الحجر الى الامام . فاذا ما وصل تجاه الشخص الذى يراد تقديمه اليه أسند الحجر الى الارض بعد أن يكون قد قاس بنظره المسافة الفاصلة بينه وبين هذا الشخص بحيث يجعل أنبوبة الشبك ، بعد ارتكاز الحجر على الارض ، تتحرك حركة يرسم الفم فيها ربع دائرة يلتقى فى نهايتها بنقطة فى متناول فم الضيف الذى يقدم اليه .

ويقدم الشبك كما تقدم القهوة الى الذين يحلون المكان الاول من مجلس صاحب البيت ثم الى الذين يلونهم يمنة ويسرة وهكذا على حسب ترتيب المواضع . والواجب فى هذه الحالة على من يقدم اليهم الشبك أن يتلقوه بالتحية لرب البيت . واذا كان على الزائر للمزور فروض احترام وتعظيم اما لجاهه أو وجاهته أو ثروته أو غير ذلك فمن الادب المستحسن أن يعنى بابعاد طرف الانبوبة التى فيها الحجر عن مجاورته . لان ترك هذا الطرف بالقرب منه يشير الى أن الكلفة مرفوعة من بينهما ويكون الزائر قد أتى ، فى هذه الحالة ، أمرا لا يتفق مع حسن الشمائل وكرم الاخلاق . وواجب الزائر حيال المزور الذى هذا شأنه أن يترك الطرف الاعلى من الشبك مستندا الى ركبته ، وأن يستنشق منه بين حين وآخر نفسا خفيفا لا يزفره الا وهو محول رأسه عن ناحية المزور . والحذر كل الحذر من انبعاث صوت ما بين الشفتين أو البصق فى منديل أو غيره .

واذا أراد الزائر مزايلة المكان بعد انقضاء الزيارة ، فعليه أن يكف عن التدخين بأن يرفع بيده الطرف المشتمل على الفم

(المبسم) فاذن الخادم لا يلبث أن يتقدم نحوه ليرفع الشبك . فاذا فرض ولم يكن هناك خادم ولم يتقدم أحد فله أن يسند هذا الطرف الى ديوان الجلوس .

٤

الختان أو الطهارة

قدم هذه العادة ــ الاحتفال بها .

٢٨ ــ قدم عادة الختان

كان الختان عند قدماء المصريين احدى الوسائل الصحية التى تقضى بها القوانين المدنية وأول من استن هذه السنة ابراهيم (عليه السلام) فصارت عند الامة اليهودية فرضا من فروضها الدينية وأعنى المسيحيين منها القديس (مار بولس) ولكن المسلمين فرضوها على أنفسهم احتفاظا بالتقاليد التى وضع ذلك النبى العبرى أساسها . ولم تكن معتبرة فى نظر المسلمين كائنة كأنها فرض من فروض دياناتهم فمتبعو مذهب الامام أبى حنيفة يحكمون بفائدة هذه العملية ووجوب اجرائها اذا لم تكن هناك اسباب وجيهة تمنعها ، غير أنه لا يغير من اسلامية المرء شىء أن يبقى بلا ختان .

واذا حافظ المصريون على عادة الختان فما هو الا لما ثبت عندهم من فائدته وحسن أثره من الوجهة الصحية . لانه ، بقطع النظر عما يتطلبه الدين الاسلامى من تكرار الوضوء والاستحمام ، من أنجع الوسائل لوقاية أعضاء التناسل من الامراض الكثيرة التى يكون القذر سببا لها .

٢٩ ـ الاحتفـــال بالختان

جرت العادة بأن يكون ختان الاطفال فى السابعة أو الثـامنة أو التاسعة من أعمارهم . نعم ان السن التى يقام فيها الاحتفال بالختان تحدد على وجه الصراحة غير أنه يجب الشروع فى اجـراء عملية الختان والاحتفال بها قبل مناهزة الغلام سن الحلم ، لانه يعتبر فى هذه السن مكلفا بأداء فرض الصلاة . فاذا لم يكن قد اختتن فلا يعتبر حائزا على شروط الطهر والنظافة التى يقتضـيها الشـــرع .

والمألوف عند ذوى اليسار والبسطة فى المـال ان يبالغوا فى تنميق الاحتفال بمناسبة ختان أبنائهم . فانهم يؤلفون لهذا الغرض موكبا يجتمع فيه الاصدقاء والمحبون ويتقدمه رجال الموسيقى ثم يطوفون بالشوارع والاحياء القريبة من مساكنهم .

أما الغلام المراد اختتانه فيمتطى جوادا مطهما بعد أن يفرغ عليه ثوب فاخر ويعمم بعمامة من الكشمير الاحمر . وقد يتزيا بزى فتاة صغيرة فيفرغ على جسمه اليلك والسلطة والكور والصوفة ويضع على فمه بيده اليمنى منديلا مزركشا بالقصب . وعند تحرك الموكب به يتقدمه صبى الحلاق الذى نيطت به عملية الختان ممسكا بيده الجلم وهو صندوق يحتوى عدة معلمه وأدواته . يراد بجعله فى المقدمة الرمز الى الغرض من الاحتفال ثم يتلوه رجال الموسيقى بزمورهم وطبولهم ثم الغلام يتبعه أهله وأصدقاء أسرته .

واذا كان أهله من أصحاب الثروة الواسعة والجاه العريض فانهم يذهبون الى أبعد مما تقدم فى جلال الموكب ومظاهر أبهتـه وجماله . ولا سيما اذا قصد بالغلام الى المسجد فانهم ، فى هذه الحالة ، يحضرون زملاءه فى المدرسة أو أنداده فى السن من أبناء الجيران والاصدقاء والمعارف وبيديهم المباخر يحرقون فيها الجاوى

والصندل . وبعد أن يقضى الموكب فى المسجد حصـــــة من الزمن بين الظهر والعصر ، يدعون الى الله متوسلين اليه بنبيه أن يحفظ « المطاهر » ويحرسه لاهله ثم يقيمون مأدبة كبرى يتناول الطعام عليها جميع من رافقوه من الاطفال وغيرهم .

والعادة أن تتم عملية الختان عقب هذه المأدبة بأن يأخـــذ احلاق الطفل الى ابعد حجرة من المنزل فيقطع له الحشفة بالموسى ويوقف بأحد المساحيق القابضة نزيف الدم . ثم يتقدم أغلب المدعوين لتهنئة المطاهر واتحافه بالهدايا الجميلة . وبعد أسبوع من العملية يؤخـــذ الى الحمام .

والختان فى نظر المسلمين الحد الفاصل بين دورين من أدوار حياة الطفل المختتن . فان الناس ينظرون اليه بعد الختان باعتبار أنه قد ترك دور الطفولة ليدخل فى دور الرجولة . ومن هـــذا الحين يلقن قواعد الصلاة وأركان الدين . واذا كان غنيــا عنى بتربيته وتعليمه تعليما واسع النطاق . أما اذا كان فقـــيرا فانه يساعد أهله على معاشهم بممارسته معهم الحرفة التى يزاولونها .

٥

الـــــــزواج

ميل المصريين الى الزواج ــ السن المعينة للزواج ــ الزواج المحرم ــ مقدمات الزواج ــ حفلات الزواج ــ ازالة البكارة .

٣٠ ــ ميل المصريين الى الزواج

يرى المسلمون فى الزواج انه من الفروض التى لا يحسن بالمرء محاولة التنصل من القيام بها . فهم يريدون من الرجل الاقتــران

بالمراة متى بلغ السن الملائمة لذلك ولم يحل دون اتمام هذا الامر حائل لا قبل لاحد على دفعه . وبلغت شدة الوهم بهم فى هـــذا الموضوع الى حد لا يمكن لاحد معه السكنى بأحد الاحياء فى بيت خاص به ما لم يكن متزوجا أو عنده فى خدمته جارية أو جملة من الجوارى . فالعازب مضطر اذن الى السكنى فى الوكائل أى الفنادق العامة المعدة لاقامة الغرباء .

ويريد الآباء لابنائهم ما يريدونه لانفسهم من الحصول عـــلى النسل . وهذه الرغبة أساس الحياة الزوجية عندهم فتراهم لهذا السبب يعجلون بتزويجهم وهم فى مقتبل العمر . وكثيرا ما يخطبون لهم العرائس وهم فى طفولتهم الاولى فيحتظون بهن الى أن يبلغوا سن الحلم فيتم زفافهم بعضهم على بعض .

٣١ ــ السن المعينـــة للزواج

الحقيقـــة ان لا سن معينة للزواج عند المصريين ، لذا تراهم يذهبون فى هذا الامر الى حد العبث والاخلال بالصـــواب . فان منهم من يزوجون بناتهم فى التاسعة والعاشرة من عمرهن ، أى فى الوقت الذى لم يتوافر للمرأة فيه من النمو البـــدنى والادبى ما يجعلها أهلا للتزوج .

وكثيرا ما يرى المرء رجالا فى الثلاثين أو الاربعين من أعمارهم، وقد تزوجوا بفتيات صغيرات يصح أن يكونوا لمثلهن آباء أو أجدادا . وهو الدليل على أنهم لا يلتمسون من الزواج سوى شفاء الغليـــل من الشهوات البدنية وعلى أن الدافع لهم الى عقد عقدة الزواج لم يكن العقل ولا العاطفة .

٣٢ — الزواج المحرم

ليس لمسلم أن يتزوج بابنته أو أخته أو بنت الاخ أو بنت الاخت أو الاخت فى الرضاع أو أخت الزوجة ما لم تكن قد توفيت أو طلقت ، وفيما عدا هذا من طبقات القرابة يباح الزواج . والشريعة الاسلامية لا تحرم زواج المسلم بالنساء من أهل الكتاب أى اليهوديات والمسيحيات ولكنها تحرمه بالمشركة من أديان أخر غير هذين الدينين . ومما يكاد يدخل فى حكم العدم أن مسلما يستفيد بهذه الاباحة فيتزوج بمسيحية أو يهودية .

٣٣ — مقدمات الزواج

اذا طلب رجل التزوج من امرأة ورضى والدها بالشروط المقترحة فى حالة عدم بلوغها أو وافقت بنفسها عليها بعد بلوغها الحلم جاز تحرير عقد النكاح .

وللزواج فى مصر اتفاق خاص لا يحتاج فيه الى مصادقة من السلطة الدينية ولا الى اجراءات ما من جانب السلطة المدنية . فاجتماع الزوجين هناك يتم بتبادل الرضا والقبول من الزوجين أمام شاهدين وتعلن الزوجة رضاها وقبولها فى هذا التعاقد بلسان وكيل تختاره بنفسها اذا كانت بالغا أو بلسان والدها أو وصيها اذا لم تكن كذلك . فالذى يؤدى الوكالة عنها يخاطب الخطيب المتقدم للزواج بقوله « زوجتك اياها » فيجاوب هذا : « قبلت » . وكثيرا ما يتفق أن يقصد المسلمون الراغبون فى الزواج الى القاضى فيفضيان اليه الرضا والقبول . ومنهم من يستغنون عن هذه الصيغة الرسمية .

وبتمام الرضا والقبول يشرع فى الكلام على المهر . وليست المرأة فى مصر هى الملزمة بأدائه الى الرجل،لان الشريعةالاسلامية

تلزم الرجل بدفع الصداق الى المرأة . وهذا الالزام غاية فى السداد والعدل فى هيئة اجتماعية تجيز الطلاق لان الصداق ، فى هـــذه الحالة يكون نوعا من التعويض للزوجة المطلقة .

ويقدر الصداق عادة بالريالات . والريال نقد صورى ينقسم الى ٩٠ بارة ويساوى ٥٠ سنتيما ففى الاسر المتوسطة الحال يبلغ الصداق عادة الى الف ريال وأحيانا لا يتجاوز نصف هذا المبلغ . أما الاغنياء فيقدرونه بالكيس والكيس يعدل مائة وخمسة وعشرين فرنكا . ويبلغ عندهم عادة الى عشرة أكياس ، وربما تجـــاوزها الى ما فوق . ومما يشترط فى عقد الزواج أن تقبض العــروس من المهر عاجله أى الثلثين من مجموعه ولها أن تتصرف فى هـــذا المعجل على مرادها وبدون أن يحاسبها زوجها عليه . أما الثلث الباقى وهو الآجل فيبقى فى ذمته كمال احتياطى لها يلزم بأدائه فى حالة طلاقه اياها .

٣٤ ــ حفـــلات الزفاف

تقام حفلات الزواج بعد تبادل القبـــول والرضا من الخطيبين وعلى كل حال فالمدة التى تنقضى بين تحرير العقد وحفلة الزفاف لا تتجاوز ثمانية أيام الى عشرة يقوم أهل العروس خلالها بتجهيز شوارها . وقد يقدم العريس اليها بعض الهدايا أثنـــاء ذلك . والايام السعيدة الطالع الموافقة للاحتفال بالزفاف هى الاثنـــين والجمعة على الاخص .

وأفضل أوقات السنة للزواج هى المنحصرة بين فيضان النيل وشهر رمضان . وفى الليلتين السابقتين عـــلى يوم الزفاف أو الثلاث ليالى السابقة تضـــاء الانوار والمصابيح فى بيت العريس

والمسالك المؤدية اليه من الحى الذى يسكنه ، وتقام المآدب يدعى اليها أقرباؤه وأصدقاؤه .

أما بيت العروس فيكون أثناء ذلك مظهرا لحفلات باهرة وأفراح عظيمة يشترك فيها النساء من أهلها وقريباتها وجاراتها

ويعد من الاعياد الكبيرة وبواعث السرور والابتهاج اليوم المعين لذهاب العروس الى الحمام حيث تمشط وتضمخ بالروائح العطرية ويزال شعر بدنها للمرة الاولى فى حياتها . ويرافقها الى الحمام عادة قريباتها وصديقاتها . ويكون الذهاب اليه تبل الزفاف بيومين مجملة بأحسن ما تتجمل به امرأة من ضروب الزينة والبهرج ومتوجة بتاج جميل تحت ظلة يرفع قوائمها أربعة من أشداء الرجال ويتقدمها الموسيقيون والراقصات والعالمات . وقبيل المساء تعود الى بيت أهلها فى مثل هذا الموكب الجميل . أما العريس فيقصد الى الحمام العام أيضا فى مثل هذا المظهر ويقضى به بأكمله مع لفيف من أخص أصدقائه . وفى اليوم الذى يذهب فيه العروسان الى الحمام يخصص هذا المكان لهما بالاجرة فلا يغشاه أحد من جمهور الناس .

ومتى أقبل اليوم الموعود للزفاف ، سارت العروس الى بيت عريسها فى موكب حافل يشبه الذى سارت فيه يوم ذهابها الى الحمام . وتسير فيه أيضا جواريها بعضهن حاملات أوعية تضمن أدوات زينتها وبهرجها ومصنوغاتها ، والبعض الآخر يقمن باحراق البخور فى المباخر ، بينا تبث نساء غيرهن فى الفضاء صيحات حادة تسمى بالزغاريد . ويوالى الموكب السير على هذا النظام متمهلا متوخيا أبعد السبل عن بيت العرس لاذاعة خبر الزفاف واشراك الجمهور فى بهجة احتفاله .

ولدى عودة العروس الى الحرم المعد لاقامتها تجد فيه مائدة فخمة جمعت الصنوف العديدة من شهى الطعام فتجلس اليها للاكل مع صويحباتها قريبات وجارات . أما العريس فلا يحضر هذه المائدة بل يقصد مع بعض أفراد أسرته وأصدقائه الى المسجد لاداء الصلاة ثم يعودون جميعاً الى المنزل لتناول الطعام معا . وبعد الطعام يستأذن منهم فى الانصراف ليدخل على عروسه فى حجرتها .

عندئذ يرفع النقاب عن وجه هذه العروس التى لم يكن قد رآها من قبل . وهذه الآونة من الظروف الرئيسية الباتة فى حياة الانسان . لانه يتأكد بعينى رأسه اذا كانت الاحلام التى ما فتئت تناوشه وتداعبه ، منذ تحرير عقد القران ، فيما يختص بمحاسن عروسه قد تحققت أو لم تتحقق . وعقب رفع النقاب يباشربنفسه العملية التى يقوم بها الدليل على بكورة عروسه من عدمها .

٣٥ — فض البكارة

يتم الزواج بمصر فى ظروف خاصة جدا ، وخاصة الى حد أرى معه ضرورة الكلام عليها . نعم ان من المهمات العسرة معالجة موضوع بلغ فى الدقة الى هذا المبلغ ، ولكننى سأجتهد فى القيام بهذا الواجب مع الاحتراز بقدر الامكان عن ايذاء سمع ذوى الحشمة والوقار .

ان الغرض الاول بل الوحيد الذى يقصد من الفتاة التى تتزوج هو البكورة ، اذ يرى أهلها أن شرفهم منوط بها كما يرى العريس أن هناك ما يدعوه الى التحقق منها فمن الواجب المحتوم على العروس أن تكون بحالة تستطيع فيها اقامة الدليل ، لا لزوجها وأهلها بل لاصدقاء الفريقين ومعارفهم أيضا ، على أن درة البكورة لبثت مصونة ولم تعبث بها يد الثاقب .

لهذا كان المصريون يرون فى ازالة البكارة أن الحاجة لم تكن ماسة الى احاطتها بالاسرار المبنية على الحشمة والحيــاء وأن لا مانع ، بناء على ذلك ، من الاستشهاد عليها بدعوة الناس الى الحضور لشهود النتيجة المنتظرة من وجودها أو عدمه .

وتجرى هذه العملية عادة على مشهد من الامهات وبعض كبار السيدات . ومؤداها أن يقوم العريس بازالة بكارة عروســه بالسبابة من أصابع يده اليمنى بعد تغليفها بغشاء من الحــرير الابيض . وهو ، فى قيامه بهذه العملية ، يبدى الشىء الكثير من الخشونة والفظاظة اللتين يستمدهما من الغيرة المخجلة التى مــلا بها فؤاده قبل أن يستجلى وجه عروسه . أما المنديل الحــريرى فيعرض على الاهل والاقارب مخضبا بالدم فيهمون بتهنئة العروس ويسترسلون فى مظاهر الفرح والسرور . ثم يعرض أيضا هــذا الدليل الدموى على عفاف العروس وطهارةذيلها ، علىالمدعوين . وفى اليوم التالى تطوف به أم العروس أو أختها أو احدى قريباتها فى الحى برمته لتطلع سكانه عليه .

والغاية مما تقدم أنه اذا اتفق أن عروسا وقعت فى خطيئــة قبل زفافها أو كان بها مرض أو نقص فى التكوين الجثمانى يحول دون اتيانها بذلك الدليل فان للعريس أن يطلقها من ساعته . وفى مثل هذه الحالة غالبا ما تكون العروس عرضة لانتقام أهلها الذين لا يزعهم من الرحمة والتبصر وازع عن قتلها ذبحا والقاء جثتها فى النيل للتخلص منعارها .وقد تكون عفيفة طاهرة الذيل لاحــد الاسباب المتقدمة .

والاحوال التى لا تستطيع العروس فيها اثبات عفافها نادرة جدا لحسن حظ الفتيات . لا سيما وأن من السهل ، ببعض الحيل الصناعية التى يعرف أسرارها بعض العجائز ، اثبات وجــود

البكارة مع انها غير موجودة لحادث ما . هذا ولا يباح الاتصال للزوجين الا بعد سبعة أيام من ازالة البكارة على الوجه المتقدم

٦

الوفاة والجنازة

الوفاة — حزن الاهل — الكفن — القبور والمقابر — احترام المسلمين للموتى — الحداد .

٣٦ — الوفاة

يحترم المسلمون موتاهم ويعظمون سيرتهم ، ولهذا كانت الجنازات عندهم من أهم المظاهر الدينية . غير أن هذه المظاهر لا تنهض فى هذا الامر ، كما فى كثير من الامور غيره ، دليلا على الشعور الحقيقى بالحزن والتأسى . لان الدين الاسلامى يدعو أهله الى التلطيف من الحزن على موتاهم باعتبار أن الموت قضاء ساقه الله وارادة لا راد لها وحكم يجب الانقياد اليه والرضا به . فاذا استسلموا الى الحزن وبالغوا فيه أتوا ما يخالف أوامر الله وذهبوا الى عكس مشيئته . وهذا هو السر فى قولهم أثناء كلامهم على موتاهم ، متى هدأت نار حزنهم الاول ، ان الله عز وجل قد اختارهم لجواره ودعاهم اليه فلبوا دعوته وأنهم انتقلوا من دار الشقاء الى دار البقاء الخ .

والذين يحضرهم الموت من المسلمين ويوقنون أن مآلهم اليه يظهرون التوكل العظيم على جانب الله وقوته فيقولون : « لا حول ولا قوة الا بالله ، انا لله وانا اليه راجعون » ويقولون لمن يجىء لعيادتهم والاستفسار عن حالتهم : « الحمد لله ،هو أرحم

الراحمين » واذا آنسوا فى أنفسهم بعض القوة هموا بالوضوء كما كانوا يفعلون قبل كل صلاة ، ليكونوا فى انتقالهم من الحياة الدنيا الى الحياة الاخرى ، على طهارة تامة . فاذا أشرفوا على الموت وجهوا صوب القبلة .

٣٧ — حزن الاهل

ان اللحظة التى يلفظ المسلم فيها النفس الاخير تتلوها فى العادة مناظر غريبة طالما وقع نظرى عليها واستقصيتها من أولها الى آخرها . فان النواح والولولة وغيرهما من مظاهر الحزن تبتدىء عادة منذ ساعة الاحتضار . ولكن المسلمين على خلاف ذلك فانه ما دام بالمحتضر رمق من الحياة يظل الحاضرون حوله من أهله وذوى قرابته ملازمين للسكون ومتمسكين بأهداب الصبر . ومهما أقنعهم الاطباء الاوربيون به من قرب الوفاة وأنها لا بد تالية لحالة الاحتضار ، فقلما يتحرك لهم ساكن أو يأخذون بمثل هذا التأكيد قائلين : « ان الحياة والموت بيد الله ، وأن ليس لاحد من البشر أن يخبر عن شخص لا تزال الانفاس تتردد فى صدره ، انه لا محالة مائت » ولكنه متى لفظ النفس الاخير ولبى نداء ربه ، سرعان ما يأخذهم الانزعاج وينتابهم الحزن والاسى فيصيحون ويبكون وترى النساء يضربن صدورهن ويخمشن وجوههن ويجذبن شعورهن ويحثين التراب على رؤوسهن ويولولن بأصوات محزنة على ايقاع معلوم منهن . واذا كان المتوفى رب الاسرة انبعثت من صدورهن الفاظ تدل على مبلغ الحزن والاسى لوفاته من نفوسهن فيقلن : « يا سيدى ! يا جملى ! أنت الذى كان يجى بقوتنا ! أنت الذى كان يحمل عبء حياتنا ! يا سبعى ! يا ركنى ! يا عزيزى! يا وحيدى ! وامصيبتاه ! لماذا تركتنا ! ماذا كان ينقصك بيننا ! أما كانت طاعتنا لك لا حد لها ! أما أحس قلبك بحبنا واحترامنا ! » الخ ما هنالك من عبارات الشجو وصيحات الحزن .

ولا يكاد ينتشر خبر الوفاة حتى تقبل نساء الجيران على بيت المتوفى ويضفن صراخهن وعويلهن الى صراخ صاحباتهن وعويلهن . وغالبا ما يدعين اليهن الندابات الضاربات على الاطارات ويصحن صيحات يتكلفن فيها اظهار الحزن واليأس ويعددن صفات الفقيد الجثمانية ومناقبه النفسية متوخيات فى ايرادها المبالغة التى لا معنى لها . وفى المصريين كثيرون ينتقدون عادة الاستعانة بالندابات على اقامة الاحزان ويقبحونها ويدعون الى هجرها والتنصل منها .

ذاك شأن النساء فى المآتم . أما الرجال فيحتفظون غالبا فيها وفى الحوادث المكدرة والكوارث النازلة بالسكون والجلد والصبر وقلة الاكتراث ، ويحرصون كل الحرص على كتمان شعور الالم والحزن الذى يحسون به شديدا فى قلوبهم ، ويتحامون اظهار شىء من العلامات والاشارات التى تنم على ما ينتابهم من ذلك وغاية ما يشاهد منهم حب الانزواء والانجماع عن الناس ، كأنهم يودون الانفراد بالحزن بدون أن يشاركهم أحد فيه . وهذا ولا شك أحد مظاهر فضيلة الصبر عندهم فى الشدائد والمحن .

٣٨ — الكفن

لاقانون عند المسلمين يعين المدة التى ينبغى انقضاؤها بين الوفاة والدفن . والمجمع عليه بمقتضى نصوص الدين التعجيل بتجهيز الميت وتشييع جنازته ودفنه . وهم يعجلون بذلك حتى أنه ليحدث أحيانا أن تنقل الجثة الى القبر بعد الوفاة بنصف ساعة أو ساعة ، ونادرا تمتد هذه المدة الى بضع ساعات . والمقصود بهذه العجلة التى أوصى الشارع بها منع التأذى من تعفن الرمة السريع الحصول فى الاقاليم الحارة . وفى يقيننا أن تلك العجلة ربما أفضت الى أكثر من محزن موجب للاسف والندم .

وتشييع الجنازات فى النهار عادة فاذا توفى الميت ليلا فانه لا يكفن الا بعد شروق الشمس ، ولذلك يبيت أهله فى بكاء وعويل لا يكفون عنهما الا بعد زمن طويل تفنى فيه قواهم وتبح أصواتهم . وبمجرد أن تغمض عينا المحتضر وينبعث النفس الاخير من صدره يذهب أهله فى طلب المغسلين والحانوطيين الذكور منهم للذكور ، والاناث للاناث . وبعد غسل الجثة فوق لوحة الغسل يزال شعره وتسد فتحات جسمه جميعا لصيانته من التدنس بالمواد التى لايبعد أن تسيل من باطنه بعد غسله ثم يلف فى كفن من قماش جديد .

ويعلق المسلمون أهمية كبرى على الكفن حتى انهم اذا خرجوا لسفر طويل أو قتال مع العدو ، أخذوا أكفانهم معهم . وبعد ادراج الموتى فى أكفانهم يوضعــــون فى نعش يغطى بقطعـــة من القماش الفاخر أو المزخرف بالوشى .

وليس محتمـــا أن تكـــون نعوش الرجال شبيهـــة بالصناديق المقفلة . ولكن الشريعة الاسلامية التى تلاحق النساء بعواطف الغيرة عليهن ، تقضى بأن لا تكـــون نعوشهن بعد موتهن الا على الشكل المتقدم الذكر .

وبعد ايداع الجثة النعش ، تحمل الى أحد المساجـــد بحيث تكون الرأس فى المقدمة بالنسبة لوضعها منه . والمسلمون لا يأذنون للمسيحيين بجعل جثث موتاهم على هذا الاتجاه . بل يلزمونهم بجعلها على عكس هذا الوضع أى بتقديم القدمين على الرأس . ويتقـــدم مشهد الجنازة طائفة من العميان يسيرون على ثلاثة صفوف صائحين صيحات موزونة مشجية ناطقين بالشهادتين وهما « لا اله الا الله محمد رسول الله » ثم يليهم خدم الفقيد فالنادبات مرتديات بأرديـــة طويلة زرقاء ومؤتزرات بأزار أبيض فالاربعة الرجال الذين يحملون

النعش على أعناقهم فأعضاء أسرة الفقيد فشيوخ المساجد يتبعهم ، فى بعض الاحيان ، جماعة من عامة الشعب .

وبعد نقل النعش الى المسجد يتقدم أحد رجال الدين فيصلى عليه ويستأنف مشهد الجنازة بعد ذلك سيره الى المقبرة وفيهـا يستخرج الميت ليغيب فى القبر الذى أعد له متجه الرأس نحو الشرق. أما المشيعون الذين تألفت منهم الجنازة فيتناولون الطعام حول حفرة الميت ويعود الاهل والاقارب مع الندابات الى بيت الفقيد حيث يقمن أياما لاداء وظيفتهن الجنازية ألا وهى اذكاء نار الحزن على الفقيد فى قلوب أفراد أسرته (١) .

٣٩ ــ القبور والمقابر

ان قبور المصريين عبارة عن أقبية مستطيلة مبنية أو محفـورة بحيث يتمكن الموتى الذين يودعونها من القيام لتلقى سؤال الملكين منكر ونكير والاجابة عليه . وأحد وجهى القبر يكون باتجاه الجنوب الشرقى أى صوب مكـة والوجه الآخر المقابل له فى المدخل يحميه مربع صغير من البناء ويمكن أن يحتوى كل قبر أربع جثث لا أكثر. ومن النادر أن تدفن النساء فى نفس القبر الذى يدفن الرجال فيه . وفوق القبر الذى يكون سطحه الاعلى بمستوى سطح الارض يقام أثر مستطيل مكعب الشكل يثبت بطرفيه لوحان من الحجر يعلوهما شكل قلنسوة تدل على ما اذا كان القبر مخصصا لدفن الرجال أو النساء . وبالرغم من أن الدين الاسلامى لا يبيح وضع النقوش بآيات

---

(١) ان عادة الندابات عادة خاصـة بمصر . وقد جاء فى مؤلفات هيرودتس وديودوروس الصقلى ما يؤخذ منه أن هذه العادة كانت فاشية فى الازمان القديمة . وقد حرمها الدين الاسلامى ولكن هذا التحريم لـم يأت بثمرة فى مصر نظرا لتأصل تلك العادة وقدمها .

القرآن على القبور فأنه لا يكاد يخلو قبر منها . ومع تحريمه صراحة العلو ببناء القبور والاضرحة وتحتيمه الاقتصار فى بنائها على الطوب النىء فأن الاغنياء والعظماء يشيدون لانفسهم أضرحة من الرخام المنقوش بالكتابات والرسوم الجميلة بل ان منهم من يبنون المساجد الفخمة ليجعلوا فيها اضرحتهم . فلا جرم اذا كانت قبور الخلفاء والامراء والمماليك من أنفس تحف الهندسة العربية وأجل آثارها .

وموقع مقابر المصريين من المدن داخلها او ضاحيتها القريبة ويتحرون لها الاماكن الرملية المرتفعة ونادرا مايقع النظر فيها على النباتات الا ما يكون من بعض أشجار الجميز التى تنشر ظلالهـــا الوارفة على قبر ، أو بعض شجيرات الازهار نامية حوله يتعهدهـــا من آن الى آن قريب حزين أو صديق حميم .

٤٠ ــ احترام المسلمين للموتى

يعنى المسلمون أثناء انتشار الاوبئة بتكفين موتاهم ودفنهم على المثال المتقدم . ولا يظن أحد أن الاوبئة تلقى فى أفئدتهم الروع الذى تلقيه فى افئدة الاوربيين . كلا فأنهم لا يتنحون أبدا عن موتاهم الذين يموتون بالطاعون . وهذا هو شأنهم أيضا فى الحروب ، فأنهم يرون من الفروض الدينية أخذ قتلاهم معهم ليتمكنوا من القيام نحوهم بما يفرضـــه الدين . واذا كانوا يخترقون الصحراء فى سفر طويل ثم أعياهم السير وامضهم طول الشقة وادركوا انهم مائتون لا محالة ، حفروا قبورهم بأيديهم ورقدوا فيها الى أن يدركهم الموت .

٤١ ــ الحـــــداد

لا يحمل المسلمون الحداد كما نحمله نحن ، الا أن منهم من يصبغون أيديهم بالنيلة أو بالســـواد ولا يزيلونهما الا اذا زالا

بنفسهما . واذا توفى الازواج صبغ النساء بالنيلة أيديهن وسواعدهن الى المرافق وفعلن مثل ذلك بثيابهن وقناعهن وتركوا شعورهن شعثة وعطلوا أنفسهن من الحلى وفى حالة وفاة رب المنزل قلبوا الحصر والسجاجيد والمساند وأغطية المفروشات ظهرا لبطن .

٧

الاعتقادات الباطلة

الجن — الاولياء — الدراويش — العين الحاسدة — الشعوذة الاحلام — أيام السعود والنحوس — التنبؤ بالمستقبل — السحر التنجيم — الكيمياء — أصحاب الفأل — حواة الثعابين — الاعتقاد فى الخرافات — المرأة التى تنبأت بالمستقبل لمحمد على .

ان الشعب الجاهل الذى أخذت الاعتقادات الدينية من نفسه مغرسا عميقا يكون ميالا فى العادة الى العقائد الباطلة والخزعبلات الفاسدة . وهذا هو شأن المصريين الذين عرفوا بالميل الشديد الى العجائب والغرائب واحاطة جميع الشئون والظروف المعيشية بهـا .

٤٢ — الجن

من الاعتقادات الباطلة الكثيرة الانتشار فى مصر الاعتقاد بالجن . والجن فى نظر المصريين وسط بين الملائكة والبشر وقد خلقوا قبل آدم وكان خلقهم من النار . وأطال الله فى حياتهم فحياتهم تدوم قرونا طويلة . ولهم سلطان على جميع العناصر وخاصية التشكل بما يروق لهم من الاشكال فاذا شاءوا كانوا بشرا أو حيوانا واذا شاءوا كانوا حجارة أو نباتا واذا أرادوا خفوا على الانظار فلا

تدركهم الابصار . أما مساكنهم ففى جبال قاف التى يعتقد الاميون من المسلمين أنها تحيط بالارض من جميع جهاتها على اعتبار كونها سطحا مستويا لا كرويا .

ومن الجن رهط يميلون الى الخير ورهط ينزعون الى الشر والمسلمون يوقرون الاولين ويحبونهم ويخشون بأس الآخرين ويمقتونهم . وكلما هموا بأداء عمل ولو بسيط كسكب قليل من الماء أو اضرام نار الخ فاهوا بكلام يستأذنون فيه من الجن أداء هذه الاعمال . ويعتقدون أن هذه الكائنات أرواح بخارية تسكن الخرائب والاطلال وتختلف الى الحمامات والآبار والمراحيض . واهل القاهرة مقتنعون بأن كل حى من أحيائها موكول حراسته الى نفر من الجن الميالين الى الخير وأنهم يتشكلون بشكل الثعابين .

أما شرار الجن المعروفين بالعفاريت ، فما من عبث أو فساد يقع فى الارض الا وينسب اليهم فعله . فهم الذين يقضون فراغ وقتهم ، أثناء وجودهم بسطوح المساكن أو نافذاتها ، فى القاء الاحجار والطوب على المارة ويتخيرون لسكناهم المقابر والهياكل والقصور والآثار القديمة . ويعتقدون أن الله يمنع أذاهم عن الناس فى شهر رمضان بحبسته اياهم ومنعه لهم من الانبثاث بين الناس . واذا حدث أن هبت الرياح وأثارت الرمال أو التراب اعصارا قالوا فى تفسير هذه الآثار والظواهر ان بعض الجن الميالين الى الشر أفلتوا وعاثوا فى الارض فسادا . واذا سقطت الرجوم من السماوات قالوا أنها شهب أرسلها الله ليصيب بها العفاريت الذين يسترقون السمع ومتى رأوها تخترق كبد الفضاء سألوا الله أن يصيب بها عدو الدين فى قولهم : « سهم الله فى عدو الدين » .

٤٣ ــ الاوليــــــاء

ليس فى الدين الاسلامى ما يقضى بتقديس الاولياء ولكن المسلمين بوجه عام والمصريون منهم على الاخص يعتقدون فى بعض الاولياء، بناء على ما تناهى اليهم من اجماع الرأى العام على تقديسهم . وقد يكون الرأى العام فى ذلك مخدوعا بخدعة مازح أو ماكر . وهم لا يقتصرون على تكريمهم بعد وفاتهم بل يجعلونهم موضـــــوع احترامهم وتوقيرهم أثناء حياتهم .

ويرى المسلمون فى المجاذيب والمجانين الذين لا يضرون الناس انهم قوم أتاهم الله من فضله وخصهم بعنايته وأودع فيهم أسرار الطهارة والقداسة . وقد يكون أولئك المجاذيب والمجانين فى حالة من ضعف العقل وقلة الفهم تحرمهم الحرمان الكلى من المـــواهب التى يسمو الانسان بها على سائر الحيوانات ، ولكن عامة الشعب يعللون اجلالهم اياهم أن روحانيتهم اللطيفة عرجت الى السماء ولم يبق من كيانهم على الارض سوى الجزء الكثيف منها . ومن ثم تراهم يغضون الطرف على فعال أولئك الاولياء الذين تســـــتدعى حالاتهم العجب والدهش . فانهم لا يأبهـــــون بهم اذا برزوا فى الطريق وليس عليهم من الثياب حتى ما يستر عوراتهم . وقديكون منهم من يهتكون فى كل لحظة ستار الفضيلة ولا يرعون حـــــرمة الآداب والدين ، ومع هذا فلست ترى أحدا يتأفف من عملهم أو يرى فيه مخزاة تستوجب الفضيحة والعار . وسبب هذه الغفلة اعتقادهم أنه اذا كان أولئك الاولياء قد تركوا أجسامهم ماضية فى تيار الشهوات البهيمية ومنطلقة بلا عنان فى ميدان الملاذ المادية ، فما ذلك الا لاستغراق روحانيتهم فى التأملات الربانية وانصرافها عن أمور الحياة فى هذا الكون السفلى . ويعرف سواد أولئـــك المجاذيب بقذارة أبدانهم وما يتشحون به من أطمار بالية . وهم

يصرفون نظر الناس الى ذواتهم بما يأتونه من شاذ الفعال وغريبها ويعيشون من الصدقات التى يتهافت الناس على أدائها اليهم من غير سؤال فى غالب الاحيان .

ومن لم يصابوا من المشائخ بالبله أو الجنون يطلق عليهم اسم الاولياء . ولكل من هؤلاء طريقة يتصنعها فى اظهار ولايته. بعضهم يحركون على الدوام رؤوسهم فى اتجاهات مختلفة ويكرر البعض الآخر بلا انقطاع كلمات معينة حفظوها عن ظهر قلب . وغير هؤلاء يلزمون الصمت العميق فلا يفوهون بكلمة وانما يبدون فى مقابل ذلك من فاضح الاشارات ما يندى منه الجبين . وهناك فريق لا شغل له الا الرقص والغناء ، وفريق غيره لا عمل له الا اذاقة نفسه صنوف الشدائد والحرمان كما يقع من أمثالهم فى الصين والهند ، وجماعة آخرون يأكلون كل ما يقع فى أيديهم أو يكبلون أنفسهم بالاغلال والسلاسل ويقضون السنوات العديدة فى هذه الحالة . وشوهدت طائفة أخرى يلبث رجالها واقفين ليل نهار لا ينامون الا مستندين الى أحد الجدران .

وليست ثياب هذه الطوائف اقل غرابة من فعالها المتقدمة ، فان منها من لا يغطون رؤوسهم بالقلانس بل يتركون شعورهم تنمو حتى تبلغ من الطول مبلغا عظيما ويرسلونها من ورائهم وعلى اكتافهم اما شعثا واما ممشطا . وكثير منهم يجوبون الطرقات والميادين ويندسون بين السابلة لا يستر أبدانهم شيء ما من الثياب مكتفين من المتاع بجلد ماعز أو ضأن أو غزال يحملونه على أكتافهم . ومنهم من يتعملون الحياء ويتكلفون السمت والوقار فيسترون أجسامهم بقميص أبيض طويل أو مرقعية متكونة من قطع صغيرة مختلفة الالوان .

وشهرة الاولياء باتيان المغرب والمعجب من الاعمال غنية عن البيان ومثلها الاعتقاد السائد على العامة أن أحد الاولياء يسمو

على الآخرين بالفضل والورع والعلم فيتولى رياستهم باسم القطب أى المحور الذى يدور الاولياء حوله . وهو يبرز الى النـــــاس ويختلط بهم ، ولكن ليس فى قدرة أحدهم أن يتبين حقيقته أو يعرف أنه هو ذاك الذى امتاز على أقرانه بتلك الخلال الجليلة والصفات العالية . وسبب جهل الكافة بحقيقة أمره ، اذاظهـــــر بينهم ، تحريه التواضع والخشوع فى مظهره والحسنى والمعروف فى معاملته الناس كى يتمكن من اقناع المخالفين لاوامر الدين والمتغافلين عن العمل بنواهيه بالفيئة الى طريق الحق والرجـــــوع الى الصراط المستقيم . والمعروف عندهم أنه يفضل الاقامة على سطح الكعبة ويصيح من أعلاها مع اختفائه عن الانظار مرتين فى منتصف كل ليلة قائلا : « يا أرحم الراحمين ارحمنا » وله فى القطر المصـــرى جهات يقف بها ، منها باب زويلة بالقاهرة ومقام سيدى أحمـــــد البدوى بطنطا ومقامات أخر ومعاهد للدين غيره . ومما لا يختلفون فيه أن فى قدرته الانتقال فى لمح البصر من القاهرة المحروســـة الى مكة المكرمة .

والموالد لتكريم الاولياء واحياء ذكراهم تقام عادة بعد وفاتهم . وقد أنشئت المساجد الجميلة على قبــــور البعض منهم وأقيمت الاضرحة فى المدن والارياف تعلوها القباب على أجداثهم اجـــلالا لكراماتهم ، وجرت العادة بغرس شـجر جميز بجوار كل قبـــة لتظلها أغصانها بظلالها الوارفة . وأهل البلدان القريبة يقصدون هذه الاضرحة اما لتلاوة الدعوات على الضريح أو التوسل بصاحبه فى التماس الشفاء لمريض أو قضاء مطلب .

وفى بعض الاحيان تحفر بالقرب من الضريح بئر لكى ، اذا وصل اليه أحد السابلة ، يتيسر له الارتواء بمائها ويلتمس الراحة من عناء السفر بالجلوس فى ظل تلك الاشجار الباســــقة . أما الاضرحة التى لا آبار بجوارها فلا تخلو على كل حال من وجـــود

إياه بهـــا لشرب السابلة . لان كثيرين من أهل الخير يتبرعون بجعل جرار المـــاء والقلل فيها ويتعهدونها عـــــلى الدوام لارواء العطاشي من أبناء السبيل أو المسافرين . وربما وضعوا بالقرب منها بعض الخبز أو النقود ليلتمسها ذوو الحاجات وينتفعون بها او يظهر فيهم أثر لجرح ، ويروضون الافاعى والعقـــارب حتى تأنس بهم ، ويضعون النار متلظية تحت آباطهم بدون أن ينالهم منها أقل أذى الخ .

وهم فى هذا العهد أقل اسرافا فى الشموخ والازدهاء بهـــذه الخاصيات العجيبة التى امتازوا بها على جميع الناس .

ومن اغرب حفلات الدراويش حفلة الذكـــر الذى يتلخص فى تكرارهم لفظ الجلالة مع تحريك الرأس والجسم تحريكا متصـــــلا غير منقطع . وهذه الحركات المترادفة تؤثر فيهم فلا يلبثـــون أن يقعوا على الارض ، وقد احتقنت وجوههم ، وسال اللعاب من أفواههم بما يسيل من أفواه المتشنجين وبدت عليهم عـــــلامات الآخذة . وفى هذه الآونة التى يبلغ الهياج فى نفوسهم أثنـــــاءها مبلغه الاقصى ويرون فيه الدليل المحسوس على ولايتهم يعتـــدون على بعضهم البعض بصنوف الايذاء والتمثيل . وربمـــــا نجم عن فعالهم موت البعض منهم فيذهبون فريسة الجهل والضلال .

ويحضر الدراويش معا الحفلات الدينية ويسيرون فى مواكبها ويمارس فريقهم الاكبر بعض الصناعات ، والفريق الآخر لا مهنـــة له سوى تلاوة القرآن والانشاد فى الجنازات فى سد جـــــوعة أو قضاء حاجة . والفلاحون ينذرون النذور لاضرحـــــة الاولياء فاذا قضيت حاجاتهم وفوا بها فمنهم من اذا نذر رأسا من ماعز أو ضأن أو ماشية ذبحه وطبخه ومد الاسمطة ودعا اليها الفقراء فيفـــدون زرافات لتناوبها واشباع البطون منها .

ويحتفل المصريون احتفالا باهرا بمولد الاولياء المشهورين فى القطر المصرى .

٤٤ ـ الدراويش

الدراويش فرقة من المسلمين شديدة التمسك بالصلاح والورع تفوق فيهما ابناء الفرق الدينية الاخرى . وهم كثيرو العدد فى القطر المصرى وينقسمون الى فرق وأحزاب وطرق شتى يمتاز بعضها عن بعض بألوان أعلامهم وعماماتهم وأشكال قلانسهم . ويقيمون الدليل على ولايتهم بألف وسيلة ليس منها واحدة الا وتستوجب العجب والدهش أكثر من أختها . فانهم مثلا يأكلون الاحجار والزجاج والمعادن ، ويزعمون أن بقدرتهم ثقب أجسامهم من أحد الجانبين الى الآخر دون أن يشعروا بألم .

ويطلق الناس عليهم اسم « الفقراء » الذى يطلق عادة على عامة المساكين والزهاد المتعبدين . اما الفريق الآخر فيعيش بما يغدق عليه من الصدقات والمبرات . وفى مصر دراويش كثيرون متشردون وأصلهم من بلاد الشام والعجم .

٤٥ ـ الحسد أو النظر أو العين

يعتقد المسلمون فى الحسد أو النظر أو العين .وهم يخشونها ويتخذون الوسائل الكثيرة . للوقاية منها فاذا رأوا أحدا يغالى فى الاعجاب بشىء يملكونه أيقنوا أنه قد حسده وأصابه بعينه ولهذا السبب تراهم : اذا أرادوا الاعراب عن اعجابهم بشىء ، يراعون القصد فى الالفاظ الدالة على ذلك . وعندهم لا يليق بأحدهم أن يقول فى خلال كلامه عن شىء يملكه انه جميل أو مليح من غير أن يقرن الاعجاب به بجملة « ما شاء الله » التى تشير الى الطاعة

للمشيئة الربانية واحترامها . واذا بدرت من أحد كلمة تعجب أو استغراب من شيء فالذي يحب من السامعين . لها اتقاءمايضمره المتعجب من الحسد أن يواجهه بقوله : « صل وبارك على سيدنا محمد » فاذا أجاب على هذه الكلمات بقوله : « اللهم صل وبارك عليه » فليس له أن يخاف ما كان يتوقعه من حسد .

ويعلل المسلمون ما ينزل بهم من المصائب الطارئة بسوء الحظ وقلة البخت وعدم موافقة الطالع . ويعتقدون فى النفاثات فى العقد . ويسندون ما هم فيه من العجز وقلة الحول الى التأثير السارى اليهم من أعين الحاسدين .

٤٦ — الاحجبــــة

وهم يوقون أنفسهم هذا الشر الذى يتعذر النجاة فى الحقيقة من عواقبه بالطلسمات والاحجبة فيحملون الحجاب الواقى من الشر مخيطا بثيابهم . وأحسن الاحجبة ، فى نظرهم وأقواها فعلا وأشدها تأثيرا ما كان عبارة عن بعض آى القرآن تكتب فى رقعة وتوضع ، بعد أن تغلف فى قطعة من الحرير ، تحت الابط اليسرى . ومن الناس من يكتفون بالآية الآتية : « ان الله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار » أو أسماء الله الحسنى أو أسماء النبى .

ويسند المسلمون الى الشب فضيلة كبرى فى مقاومة العين فان النساء يعلقن أهمية عظمى فى ذلك على خليط من العقاقير والمواد يجهز ويباع فى العشرة الايام الاولى فقط من شهر المحرم يسمينه ببخور عاشوراء أو الملح المبارك . ومما ذاع الاعتقاد بصدق تأثيره من الطلسمات الغبار الذى يجمع من فوق قبر النبى والماء المستنبط من بئر زمزم الموجود بداخل الحرم المكى وبعض القطع من كسوة الكعبة .

ومن عادة تجار القاهرة أن يعلقوا فى مقدمة حوانيتهم كتابات تفيد وضعهم هذه المحال تحت الحماية الربانية كأن يكتبوا مثــــلا شهادة أن « لا اله الا الله محمد رسول الله » أو بعض آيات القرآن مثل « انا فتحنا لكفتحامبينا » او بعض الادعية مثــــل « يا مفتح الابواب افتح لنا خير باب » الى غير ذلك من الاقـــوال والعبارات التى اعتاد التجار تكرارها أثناء فتحهم لحوانيتهم .

وغالبا ما توضع المنازل أيضا تحت الرعاية الربانية بما ينقش على أبوابها من الالفاظ مثل « يا الله » « الخالق الدايم » وفوق الباب يعلقون فى بعض الاحيان احدى شجيرات الصبار الذىيعزون اليه تأثيرا فى دفع العين وضررها .

٤٧ ـ الاحـــــــلام

يقرأ المصريون فى صفحات أحلامهم ما يستنبئون به المســـتقبل ويستطلعون مكنون أسرار الغيب . واذا قال أحدهم لآخر انى رأيت مناما . أجابه السامع حالا بقوله « خير ان شاء الله » .

٤٨ ـ أيام السعود والنحوس

والايام عندهم قسمان : أيام ســـــعود وأيام نحوس فأيام النحوس هى الاحد وليلة الاثنين التى توفى فيها النبى ويوم الثلاثاء ويسمى يوم الدم لان كثيرين من شهداء المسلمين استشهدوا فيــه ويوم السبت وهو أنحس الايام جميعا . أما أيام السعود فيــوم الاثنين ويخصص للزواج ويوم الخميس ويصفونه بالمبـــــارك ويوم الجمعة وهو أول الايام لانه عند المسلمين بمنزلة السبت عنــــد اليهود . وهم يفضلونه لاتمام الزواج ويصفونه بالفضل فيقولون يوم الجمعة الفضيلة .

ومن أيام السنة ما هو أيام سعود ومنها ما هو أيام نحوس . وشر أيام النحوس الاربعاء الاخير من شهر صفر ، وفى هذا اليوم يهجر الناس مساكنهم تقية الاصابة بالامراض الكثيرة التى تنصب فيه على بنى الانسان .

٧٩ — التنبؤ بالمستقبل

اذا تحير المسلمون فى أمر ولم يهتدوا الى وجه الصواب فيه اعتمدوا فى تبينه على أمور ترجع الى الخزعبلات المبنيةعلى فساد الاعتقاد . فمن ذلك التجاؤهم فى اصابة هذا الغرض الىمايسمونه بالزايرجة . والزايرجة هذه عبارة عن شىء يشبه جدول الضرب يحتوى مائة خانة فى كل خانة حرف من حروف الابجدية العربية وطريقة استعمالها أن يقرأ المرء فاتحة الكتاب . ثم الآية الآتيـة من سـورة الانعام وهى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمهـــا الا هـــو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » .

ويضع أصبعه على الجدول مغمض العينين ثم يفتحهما وبعـد أن يقرأ الحرف الذى سقط اصبعه عليه يكتبه فى ورقة ويكـــرر هذه العملية بطريقة معينة على الحروف المرتبة على عمود رأسى واحد ثم على الحروف التى يحتويها العمود الخامس الى يمـــين العمود الذى أرشد اليه الحظ والجزاف أول مرة . فان اجتمـاع هذه الاحرف يؤلف كلمات يتضمن مجموعها نصيحة أو حكمـــة . والمشتغلون بالزايرجة كافة يرتبون حروفهم فيها بحيث تعطىأربعة أجوبة سلبية فى مقابل جواب واحد موجب .

ومن النـــاس من يستخيرون القــرآن ويلتمسون منه النبوءة القاطعة فيما يحبون استطلاعه من أحوالهم . وذلك بأن يجعلوه فى موضع بحيث اذا سقط منه انفتح أمامهم بحكم المصادفة فيعمدون

الى السطر السابع من الصحيفة اليمنى ويقرأونه فاذا كان معناه يفيد السكون والسلم والخير كان الجواب موجبا بخلاف ما اذا أفاد السخط الالهى أو اللعنة فان الجواب يكون سلبيا .

وكثيرون من المسلمين يستفسرون المستقبل بأن يحركوا بين اصابعهم حبات السبحة التى بيدهم قائلين عند تحريك الحبة الاولى : « سبحان الله » وعند تحريك الحبة الثانية : « الحمد لله » وعند تحريك الثالثة : « لا اله الا الله » . ثم يكررون هذه الأدعية بحسب ترتيبها كلما حركوا حبة حتى يبلغوا الحبة الاخيرة فاذا كانت الاستخارة التى قيلت فى الحبة الاولى تصادف الحبة الاخيرة فان الاجابة تكون موافقة أى موجبة واذا كانت الثالثة كانت الاجابة لازمة أى لا موجبة ولا سالبة واذا كانت الثالثة كانت الاجابة سالبة .

يفهم مما ذكر أن الشعب المصرى الذى يبنى فعاله وتصرفاته على القضاء والقدر لشعب خؤوف يهاب تحكيم الضمير والعقل اللذين وهبهما الله للانسان وميزه بهما على سائر الحيوان ويتنصل من مسئولية تصرفاته فعلا وقولا ملقيا حبل أموره على غارب الجزاف والاتكال الاعمى راضيا بما تفضى اليه من النتائج ولو ساءت مستسلما لها باعتباره أنه الارادة الربانية بلا نزاع ولا جدال ومن ذا الذى يعلم كم من الحوادث العظام والوقائع التى روعت العالم انما كان الاقرار على أسبابها نتيجة حكم حبوب من السبحة أخذت تجرى بين أصابع وزير من الوزراء الذين امتلأت أدمغتهم بالوساوس ومن ذا الذى يعلم كم مرة عبثت أيدى السلاطين بحظوظ الرجال بل والدول على اثر التجائهم الى الاستخارة اثناء تحرك تلك الحبوب فى أيديهم .

٥٠ ـ السـحر

ان مصر بلد السحر ولا فخر ولعل القارىء يذكر السـحرة الذين كانوا فى خدمة الفراعنة ومنهم أولئك الذين جىء بهم لمبـاراة موسى بسحرهم ومن المؤكد أن خلفاءهم الحاليين لم يرثوا شـيئا من قوتهم ونفوذهم لان السحر اليوم ينحصر فيما يسـمونه الآن بالنكرومانسيا اذ أن السحرة رجالا ونساء يقتصرون تقريبا عـلى التبنؤ من باب الحذر والتخمين اللذين يصيبان أحيانا ويخطئـان غالبا . وهم ، فى بعض الاحيان ، يستحضرون الموتى والاحيـاء ويطلعون الناس عليهم فى مرآة سحرية مؤلفة من بقعة حبر عـلى مربع من الورق يقوم بعملها طفل صغير تحضر له هذه التجـربة مقدما . فان الطفل يرسم صور الاشخاص الذين تسوقهم قـوة الساحر الى المرور أمامه . ومما لا شك فيه أن بعض الذين يعجلون بتصديق ما يقع تحت أنظارهم من الحوادث بدون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة تمحيصها يؤكدون مطابقة الوصف الذى يصفه الغلام شفويا لحقيقة الواقع . ومن الاوربيين الذين تستميلهم هذه الخزعبلات الفاسدة ، وعلى الخصوص الانكليز ، من يصدقون بهذه التجارب ويقصدون بها كما لو كانت تجارب فى المغنطيسية مثلا فقد وصف وصف المستر م.و. لان فى كتابه « عادات وملابس المصريين فى هذا العصر » الوسائل والطرق التى يستعملها أولئك المصريون بدون أن يبدى ذرة من الشك فى صحة نتائجها .

ومسلمو مصر يعتقدون أن بالامكان القيام بالاجراءات السحرية بحسب مبادىء الخير أو الشر . وتسمى نظريتهم فى الحالة الاولى بالعلم الروحانى ، وفى الحالة الثانية بالعلم الشيطانى فالسـحر الروحانى وهو موضوع ذلك العلم يعمل بقصد محمود لانه يعتمد فيه على الوسائل غير المنافيـة للدين ، أما السـحر الشيطانى

فيستعان فيه بالارواح الشريرة والشياطين لغرض سيء وقصد خبيث .

٥١ ـ التنجيم

لعلم التنجيم أنصار وتلاميذ كثيرون بين المصريين الذين يسمونه أيضا بعلم النجوم ، ويتبعون فيه القواعد والاصول التى يقصد بها استخراج وتعيين الاوقات الموافقة للمشروعات واستنباء فلك البروج بحسب التأثير الذى يكون الانسان تحت سلطانه . ويزعم المنجمون أنهم ، برسمهم على الرمل صورا وأشكالا لا يعرف أسرارها الا هم ، يستطيعون الوقوف على أحوال الماضى والحاضر والمستقبل .

علم الكيمياء

وفى مصر جم غفير أيضا من المشتغلين بالكيمياء ، يقضون حياتهم وينفقون أموالهم مع حياة وأموال بعض السذج والبلهاء فى البحث عن الحجر الفلسفى الذى يقولون ان الجواهر الخبيثة تستحيل بواسطته الى الجوهر الكريم وهو الذهب . والعرب أول من اشتغل بهذا العلم وانكب على تجاربه العقيمة النتائج . غير أنهم مما بذلوه من الجهود فى هذا السبيل ، توصلوا الى تقرير كثير من المبادىء الصحيحة والاصول النافعة فى علم الكيمياء الحقيقية .

والمصريون المشتغلون باستكشاف ذلك الحجر واثقون بأن مساعيهم فى هذا السبيل تكلل بالنجاح التام ، اذا استطاعوا أن يقضوا سبعة ايام بلياليها من غير نوم مطلقا . ومفهوم أنه لم يستطع أحد ولن يستطيع أن يتغلب أبدا على حاجة النوم التى تدعو اليها الطبيعة ولا يتيسر لاحد الاستغناء عنها .

٥٣ ـــ البوهيميون أو الغجر

ان لجنس البوهيميين ، وهو الجنس الغريب الخفى الاسرار المتشرد فى طول أوربا وعرضها ، فروعا منبثة فى ضفاف النيل ، ولكنهم فى مصر تتألف منهم طبقة مستقلة لا خلطة لها مع بقيـــة السكان . وشكل سحنتهم يميزهم عن غيرهم فان لون بشـــرتهم اشد سمرة من لون المصريين ، وكلامهم لغة تخالف اللغة العربية، ومع أنهم ينتحلون الاسلام دينا لهم فانهم لا يؤدون فرضا ما من فروضه ، ويهيمون على وجوههم من مدينة الى مدينة ومن قرية الى قرية ، متفرقين أو مجتمعين . ويشتغل الرجال منهم عامة بأساليب الشعوذة والحيل . أما النساء ، ويعرفن بملابسهن الغـــريبة ، فيزاولن حرفة النظر فى البخت والانباء بالمستقبل ، ويخترقن الارياف والمدن حاملات على أكتافهن اخراجا من جلد الماعز أو الغـــزلان محتوية الاصناف الكثيرة من الاحجبة والتمائم والادوية والثعابين، ويصفن الدواء للامراض كافة ، ويدعين أن عندهن السر الذى يمنع عقم النساء ويخبرن الجمهور فى ندائهن المتكرر بمـــا لديهن من الاسرار العجيبة والكنوز النافعة .

٥٤ ـــ حـواة الثعـابين

اشتهر حواة الثعابين بمصر فى كل زمان . وقد ذكرهم المؤرخ (استرابون) وقال (بروسبير البان) أنه شهد بنفسه غرائب تأثير حرفتهم . وأغلب السياح الذين زاروا مصر حديثا يعـــربون عن استغرابهم سهولة تصرف أولئك القوم فى الافاعى والحيـــوانات السامة . ويطوف حواة الثعابين بالمنازل ويتنقلون من مكان الى مكان يرتلون من الاقوال ما يسحرون به الثعابين التى تحتويها . وهم يزعمون أنهم يجذبونها اليهم بتأثير سر لا يعـــرفه سواهم . ويمسكون عادة بقضيب صغير من الخشب فيدخلون الغرفة التى

يراد تطهيرها من الثعابين ويتمطقــون بلســـانهم ثم يتفلون على الارض وينطقون بمعنى الجملة الآتية : « أستحلفك بالله ان كنت بالخارج أو الداخل أن تبرح مكانك وتجيء الى واستحلفك بالاسم الاكبر أن تظهر لى ان كنت طائعا ، أما اذا لم تطعفلتمت ولتمت ولتمت » فاذا كان الثعبان طيعــا للامر خرج من مكمنه على الفور ويكون خروجه عادة من ثلمة فى الجدار أو فى الارض .

ومع أن الكثيرين من المتنورين يذهبون الى أن فعل الحــواة هذا حيلة مدبرة فلست أتمالك من الاعتراف بأننى ، وقد شهدت تجاربهم مرارا ، لم اقتنع تمام الاقتناع بصدقهم بل كنت أشــك دائما فى أمانتهم وصدق شعوذتهم . فقـــد ثبت لى أنهم كانوا يتحيلون ، فى أحيان كثيرة ، على ادخال الثعابين الى المكان الذى يعرفون أنهم سيدعون الى استخراجها منه . ولمــا كانت الثعابين تخشى ضوء النهار ، فانهم يبحثون عنها فى الاماكن المظلمة حيث يســـتطيعون ، بلا خوف من الاعين الرقيبة وفى مأمن من نقــد الناقدين ، تنفيذ ما دبروه من الحيل للتغرير بالناس . ومن عادتهم للوصول الى هذا الغرض اخفاء الثعابين تحت أبطهم . وبمـــا اعتادوه من الخفة والرشاقة فى الحركة لا يسع النــاظرين الا الاعجاب بفعالهم وتجنب اساءة الظن فيهم .

ثم انه لا يوجد فى مصر من الثعابين السامة الا النذر اليسير. ومن عادة الحواة استئصال أسنانها . ومن الحيل التى يخدعون بها العامة وضعهم العقارب على رؤوسهم المحلوقة تحت الطواقى التى يغطونها بها . ولكنهــم لا يقدمون عــلى هذا الفعل الا بعد استئصالهم الاعضاء الضارة منها حتى لا يصيبهم أذاها .

٥٥ ـ الاعتقادات الباطلة والخزعبلات

لم يكن العامة فقط هم الذين استحوذت الاعتقادات الباطلة والاوهام على عقولهم ، بل يشاركهم فيها الخاصـــة على اختلاف مذاهبهم .

ولقد اتفق لى يومـــا ، وأنا ذاهب الى قصر ابراهيم باشا فى صحبة جملة من القواد المصريين ، أن مدحت لاحدهم الجواد الذى يحمله . فتلقى راكب الجواد هذه الكلمات بشىء من الاحتياط وعدم التصديق . وما تقدمنا الى الامام بضع خطوات حتى كبا الجواد الذى أسأت ولا شك بمدحه . فسارعت الى التوجه نحو الفارس الذى كان قد ســقط عن جــواده لمعاونته واسعافه ، وسألت منه عن سبب كبوة جواده . فأجاب مبتسما ابتسامة تشف عما فى قلبه من الغيظ « لا بأس والسبب وان خفى معلوم عندى » فأدركت من اجابته هذه اننى قدمت له دليلا جديدا يؤيد الاعتقاد فى الحسد والاصابة بالعين .

وكان محمد بك أول ناظر للحرب فى حكم سمو الوالى . وهو من فحول الرجال اذ اشتهر بمرافقة محمد على ومقاسمته حظوظه ومشاركته اياه فى جلائل اعماله ، يأوى عنده رجلا من المجذوبين الذين كانت طرائقهم المستغربة وأحوالهم الشاذة تدعو الناس الى وصفهم بالولاية . وكان يعتنى بأمره ويظهر له جزيل احترامه . وسبب معرفته بهذا الولى المسمى بالشيخ يوسف ، أنه بدر منه مرة ما دعــاه الى حبســـه فى سجن مظـــلم فبينـــا كان موقنا بأن
مـــا دعـــاه الى حبســـه فى سجن مظـلم فبينمـــا كان موقنا بأن
كأنه لم يقبض عليـــه ولم يودع ســـجنا . فــلم يســعه الا أن يعتبر هذه النادرة كرامة من كراماته ودليلا صادقا عـلى ولايته فدأب منذ هذا الحين على احترامه واجلاله وتقريبه اياه من مجلسه ومؤاكلته مع السماح له بكل ما يخطر بباله من الاعمـــال

وكان من لازمة ذلك الغى اعتراضه الناس جميعا فى الطريق وطلبه من كل منهم خمس برات ، فاذا أبوا عليه دفعهـــا لطموم على وجوههم . وكان يقطع البارات التى تعطى اليه قطعا صغيرة ويفرق أجزاءها على الخدم والفقراء . وقد أنشأ محمد بك ضريحا له بجوار ضريحه ولا تزال رفاته تظللها نفس القبة التى تظلل رفات هذا الكيخياء العظيم الذى كان وكيلا لمحمد على فى ادارة شئون البلاد .

وقد بلغ من تأثر المسيحيين واليهود الوطنيين بالاعتقـــادات الباطلة الشائعة بين مواطنيهم المسلمين انهم اعتقدوا بما يعـزى للاولياء من القدرة العجيبة . فان الجهلاء منهم يتوسلون بهم كمـــا لو كانوا قد بلغوا درجة الولاية بمزاولة العبادة على الطقـوس المسيحية أو العبرية .

٥٦ — المرأة المتنبئة ومحمد على

لقد اقام سمو الوالى الدليل على حدة ذكائه وصدق نظـــره وأصالة رأيه . فلقد توصل فى ظروف كثيرة الى كسر قيـــود الاعتقادات الباطلة التى يذعن لها أبناء دينه ويرضخون لحكمهـــا رضوخ الاسير المغلوب على أمره . وسأذكر على قبيل المثـــال حادثة لا يخلو ايرادها من الفائدة . وبيانها أنه قد ظهر بالقاهرة فى ابان حكمه ، أى فى الوقت الذى لم تكن قواعد سلطانه قـد رست على الاسس الوطيدة ، امرأة تزعم القـدرة على الانبـــاء بالغيب فالتف الناس حولها وأصبح الكثيرون منهم من مريديهـــا وكانوا يقولون انها تستخدم الجن وانهم طوع اشـــارتها تطلـــب أحدهم أن يبرز فيسارع الى اجابة طلبها وتجعل الناس يلمسون فى الظلام يده ويسمعون صوته .

وكان السواد الاعظم من انصارها ومريديها أنفار الجنـــد ورؤساؤهم ، حتى لقد استفحل أمرها وارتفع شأنها . فلما علم محمد على بأمرها ، وكان يريد استكناه سر هذه الساحرة التى أصبح يخشى خطر نفوذها ، استدعاها الى قصره واعرب لها عن رغبته فى الحديث مع جنيها . فرضيت أن تطلعه على ما خصت به من قوة وسلطان . وكان الوقت ليلا ، فأطفئت أنوار المنظرة التى كان ضباط الجند مجتمعين بها . وكان محمد على قد أمر أتباعه ان يوافوه بالمصباح بمجرد طلبه منهم . فلمـا دعت المتنبئـة الجنى أجابها على سؤالها بما يشبه الصوت المنبعث من داخل المغـــارة أو من باطن الذين يتكلمون من بطونهم ، حتى لقد وقع فى وهم السامعين أنهم يسمعون صوتا منبعثا من الجدار . ثم قـدم يده لكى يلثمها الباشا ولكن لم يكد محمد على يقبض عليها حتى صاح بالخدم أن يوافوه بالشموع فلما أضاء المكان اذا باليد يد المـرأة نفسها . وحينما رأت انكشاف حيلتها وانتهاك سترها توسلت اليه أن يعفو عنها .

أما الحاضرون فقد أدهشتهم هذه الجرأة من سـمو الوالى وحكموا أنها خروج على الدين وتحقير لمبادئه ، وأخذوا يمرمرون مستائين ، فخطب سمو الوالى فيهم مبينا لهم خطأهم فى سرعـة أعتقادهم بما لم يكن صحيحا ثم أمر بالقاء المرأة فى النيـل فأراد الضباط ممانعته فيما أمر به . ولكن محمد على تغلب عايهم بقوة الحجة قائلا لهم انه لو كان أحد الجن فى خدمتها ، كما تزعم باطلا وبهتانا ، فلن يتركها تذهب ضياعا فى النيل . أما اذا لم يكن لها صاحب من الجن ، فان ما لقيته من الهلاك الجزاء الحق لاجترائها على التغرير بالناس من غير خوف ولا حياء .

٨

الآداب اللغـــوية

الآداب العربية ـــ قصة أبى زيد الهلالى ـــ المحدثون ـــ الشعر القصص الخرافية المصرية .

٥٧ ـــ الآداب اللغوية العربية

اذا كان لا بد من ذكر الآداب العربية بمناسبة الكلام عــلى آداب المصريين اللغوية ، فان هذا الموضوع من تشعب الفروع وترامى الاطراف بحيث يتعذر عــلى تناوله بالبحث . وغــــاية ما يمكننى قوله فيه ان آداب اللغة العربية لمن أوســـــع الآداب اللغوية فى العالم نطاقا وأكرمها جوهرا وأحسنها حلاوة وطلاوة . ولكن دولتها قد دالت وانقضى عهد مجدها وعزها . وساغ لنا أن نقول فيها أنها أصبحت فى عداد الآداب الفانية .

ثم ان اللغة العربية عاشت بعد اندثار تلك الآداب ولم تتقوض معالمها ، غير أن الضعف والجهل قد غشيا الشعوب الناطقـــــة بها . فبعد أن كانت من الامم المتسلطة صاحبة الغلبة والحـــكم فقدت استقلالها وأضاعت معه المواهب العالية التي كان أبنــاؤها يبتكرون بها أسمى الافكار معنى وأجلها مغــــزى ، وتبث فيهم العواطف الكريمة وتكسبهم الجلال والهيبة .

وتقتصر الآداب اللغوية العربية الآن على بعض القصص التى يحلو للعامة سماعها واستيعاب حوادثها . ويتناقل الحافظــون بها وقائعها العجيبة المختلفة بعضهم عن بعض بطريق الرواية . وهم لا يملون سماعها ولا يضجرون من تكرار روايتها . والغالب

فيها أن تكون من حيث الوضع خليطا من النثر والشعر ، ومن حيث الموضوع وصفا مستفاضا لما كان العرب عليه فى معيشتهم ومـا كان يقع من الحوادث فى الصحراء لقبائلهم . ومن ثم كانت تلك القصص من أوثق ما يستدل به على أخلاق هذه القبائل التى لا تزال على فطرتها الاولى من الشغف بالتنقل فى الصحارى القاحلة وماكان يقع بينها من قتال لا تحوم أسبابه فى الغالب الا حول مكيدة غرامية يرصعونها بالحوادث الآخذة بالالباب لغرابتها .

٥٨ — قصـة أبى زيد

من أهم تلك القصص وأحبها الىالجمهور قصـة أبى زيد الهلالى . وانا لموردون هنا تحليلا وجيزا لها فى الاسطر الآتية :

تزوج رزق أحد أمراء العرب بعشر نساء فلم يرزق منهن بغير غلام واحد لا ذراعين له ولا ساقين . فلما يئس من انجابهن غلاما كامل الخلقة تزوج من امرأة أخرى غيرهن تسمى قدرة . فلم يمض بعد الزواج زمن حتى ظهرت عليها علامات الحمل . واتفق ، ذات يوم ، أن خرجت مع بعض خادماتها تتريض وتنزه النفس. فرات طيرا أسود اللون انقض على سرب من طيور أخر وقتل منها بعضها وشتت البعض الآخر . فأخذتها من هذا المنظر روعة ودعت الى الله تعالى أن يرزقها بغلام يكون كذلك الطير فى قسوته وشدة بأسه ، ولو كان أسود اللون مثله . فأجاب الله دعاءها فلما ولد الغلام وقرت بمولده عينا والده . جمع نفرا من أخص أصدقائه ليحتفل معهم بميلاده . وفى اليوم السابع من ميلاده عرض الولد عليهم مغتبطا به . فما كادت تقع عليه أنظارهم حتى طلبوا منه أن يطلق امرأته لوضعها غلاما لا يشبهه ولان لونه الاسود ينهض دليلا على فجورها ودنس ذيلها . فعمل الامير بنصيحتهم هذه مكرها ، لانه كان شغوفا بامرأته ومقيما على حبها وعهد الولاء لها . وكان لا يشك من جهة أخرى فى أن الولد ولده .

عادت قدرة الى بيت أبيها مكتئبة حزينة كاسفة البال . ولقد روت قصتها على احد الامراء فترفق لها وآلى على نفسه أن يأويها وابنها عنده ، وأن يربى هذا الوليد مع أبنائه كأنه أحدهم وسماه بركات . فانقضى زمن شب الغلام فيه وترعرع ولاحت عليه لوائح الشجاعة وأمارات الفتوة والقوة وشدة البأس . فلما ناهز الحلم أخذ يحارب القبائل المعادية لقبيلته ويظفر بها ويأتى من ضروب البسالة فى القتال ما سارت بذكره الركبان وعلمه الخاص والعام فى كل مكان .

وفى ذات يوم عن له أن يستطلع من أمه حقيقة خبره وماضى أمره . فأثار هذا السؤال فى نفسها الميل الى الانتقام من زوجها الذى طردها ظلما وعدوانا من بيته ، ولوث سيرتها اذ رماها بشر ما ترمى المحصنات به من التهم . فقالت لولدها ان رزقا هـــو السبب فيما يراه من عنائها وتتكبده من بلائها ، وأنه القاتل لابيها والمناوىء لقبيلتها . فاستشاط الفتى غيظا وأقسم الا أن يأخـذ بالثأر وخرج لوقته رجاء الالتقاء به وقتاله . فقاتله وتغلب عليـه وكاد يودى بحياته لولا أن تداخلت قدرة فى الامر لتحول دون قتل الولد والده على جهل منه بحقيقة الصلة بينهما ، وأطلعته عـلى سر الامر قائلة ان الذى ظفرت به وكدت توردة موارد الهـلاك انما هو أبوك بلا نزاع . فتعرف الخصمان على بعضهما وكان ذلك سببا لرضاء الزوج عن زوجته وعودتها مع ابنها الى داره حيث عاش معها فى سلام ووئام وأحاطها بمظاهر الاجلال والاعظام وخصها بالحب الخالص والولاء التام وسمى بركات بأبى زيد وهو الاسم الذى كان قد أطلق عليه حين ولادته .

ذاك هو ملخص الواقعة الاولى من وقائع قصة أبى زيد وفيها من جم الحوادث وغريبها وطرف النوادر وطليها مما لا يتسع المقام لايراده ولا للاشارة اليه . والمفهوم أن قصة أبى زيد هذه كتبت فى القرن العاشر من الميلاد المسيحى .

وهناك قصص أخرى يميل العامة اليها ويحرصون على سماعها ، منها قصة عنترة العبسي وغيرها . وقد ترجمت قصة عنترة كبير أبطال العرب الى اللغات الافرنجية ، وهي ذائعة الشهرة في أوربا وأورد المسيو (دى لامارتين) نتفا منها في غضون كتاب رحلته بالشرق .

٥٩ ـ المحدثون

المحدثون طائفة خاصة من الناس يروون تلك القصص على مسامع الجمهور ، وهم ينقسمون الى أقسام أو فرق تختص كل فرقة برواية قصة واحدة ، فلا يفتات محدثو احدى الفرق على نظرائهم من الفرقة الاخرى بسرد حوادث قصصهم على السامعين . واكثر تلك الفرق عددا الفرقة المتفق على تسمية أعضائها بالشعراء فقد احتكر هؤلاء القاء قصة أبى زيد في المجتمعات العامة .

وفى القاهرة وحدها الآن خمسون شاعرا من تلك الفرقة ، وتليهم الفرقة الخاصة بقصة الظاهر ويسمى أعضاؤها بالمحدثين ثم الفرقة المحتكرة لقصة عنترة العبسى ويسمى رجالها بالعنترية

والعادة المتبعة أن يجلس الرواة من المحدثين والشعراء والعنترية وغيرهم على أبواب القهوات الكبرى في كل ليلة ولاسيما في ليالى الاعياد والحفلات . وقد اعدت لجلوسهم صفة مرتفعة يستطيعون من أعلاها ابلاغ أصواتهم الى مسامع الجميع موزونة الانغام ، فيما يلقونه من القطع الشعرية ، بأداة موسيقية ذات وتر واحد تسمى الربابة . ويجلس السامعون أمامه صفوفا متوازية وكل منهم منصت لما يسمعه من القول ومدخن للشبك أو متذوق طعم قهوة البن تبدو على وجهه علامات السرور والاغتباط بما يستمعه من غريب الحوادث التى يضاعف اهتمامه

بسماعها أسلوب القائها . فان الروّاة يلقونها بأصوات حماسية مقرونة بالاشارات التمثيلية والحركات التى من شأنها أن تستثير الهمم من مكامنها وتوقظ النشاط من سباته . وكلما ازدحم المكان بالسامعين كانت رواية حوادث القصة افعل فى نفوسهم بما يأتيه الراوى من التفنن فى الاساليب التى تشحذ العواطف وكثيرا ما يستفزهم ذلك الى ابتكار حوادث وأقوال من عندياتهم يضيفونها الى الاصل ، التماس المبالغة فى تحريك النفوس واستثارتها .

وعندما ينتهى الرواة من سرد حكاياتهم يوافيهم صاحب القهوة بيسير من المال اجرة لهم ، وهذا غير ما يجمع برسمهم من السامعين . على انه لا أحد من هؤلاء بملزم فى الحقيقة بدفع أى مبلغ اليه بمثابة أجر له ، ولكنهم لا يضنون عادة بشىء من المال كل بقدر همته وبحسب ما تكون القصة قد أحدثته فى نفسه من السرور والارتياح والنشاط .

٦٠ — الشعر

ان وزن الكلام وتقفيته سليقة فى العرب . فانهم يميلون بفطرتهم الى النظم والتقفية الى حد سهل معه عليهم ارتجال الشعر وقد بلغ عند الشعراء المرتجلين منهم مبلغا عظيما .

وقد انتشرت فى مصر الاغانى العامة الشبيهة بما نسميه عندنا بالرومانس . وينقسم الى مقاطع تنتهى عادة بقافية واحدة .

وأغانيهم تختم فى الغالب بقولهم « يا ليل ! يا ليل ! » وبعض هذه الاغانى يرمى الى الهجو ويباح فيه ذكر ما لا يباح عادة من القول ، الا أن أغلبه يستشعر منه الحزن العميق والشجو بتضمنه وصف متاعب المحبين بنغمة رثائية واحتوائه من التشبيهات

الشعرية ما هو مستمد من أخلاق الامة والصفات التى اختصت البلاد بها .

والشعراء المصريون يميلون كل الميل الى تشبيه وجه المحبوبة بالقمر . ومما يذكرونه فى معارض شعرهم شذا الياسمين ولون الورد وصبر الجمل وبأس الاسد وشوكته وجلاله ورشاقة الغزال وخفته وحور عينيه وسكون الليل الخ الخ . ويجدون فى لغتهم الغنية بالالفاظ ومطاوعتها لاداء المعانى المطلوبة ما يمهد لهم التعبير عما يخالج الفؤاد من الاحاسيس المختلفة والعواطف المتباينة .

٦١ — الاناشيد المصرية

بالقاهرة شعراء كثيرون اعتادوا نظم الاغانى والاناشيد مرة فى كل شهر وهذه القطع الشعرية تتغنى بها العوالم فى الاعياد العامة والافراح الخاصة ولا تلبث أن تنبث بين الاهلين جميعا فيحفظونها عن ظهر قلب ويتغنون بها فى أويقات بسطهم وانشراحهم .

ولكى تزجى الى ذهن القارىء فكرة عن طبيعة القطع الشعرية المصرية نورد فيما يأتى بعض الاناشيد التى ترجمها الى اللغة الفرنسية العلامة سيلفستر دوساسى وأضيف اليها أغنية شاع التغنى بها بين العساكر ومنها ينكشف للقارىء مبلغ القدرة على الهجو والتهكم عند المصريين (١) .

---

(١) لم نعثر على الاصل العربى لهذه الاناشيد والاغانى التى أوردها المؤلف نقلا عن العلامة « سيلفستر دوساسى » رغم ما بذلناه من الجهود فى البحث عنها . وهى كالاغانى التى ينظمها الناظمون فى هذه الايام ونتداولها الالسن زمنا ثم لا تلبث أن تندثر وتنسى اذا لم يعن أحد بتقييد أوابدها خصوصا فى مثل ذلك العهد الذى لم تكن المطابع فيه منتشرة انتشارها الان . ولهذا قد ضربنا عن ذكرها صفحا الان حتى اذا أعثرنا استمرار البحث عليها أدرجناها بآخر هذا المجلد .

٩

الموســـــيقى

الموسيقى العربية ــ استعداد المصريين للموسيقى ــ آلاتهم الموسيقية ــ ادخال الموسيقى الاوروبية فى الجيش المصرى .

٦٢ ــ الموسيقى العربية

يميل المصريون ميلا شديدا الى الموسيقى . ولكنهم يرون أنه مما لا يليق برجل الجد والعمل أن يخصص بعض وقته لدرســـــها والتدريب عليها . وقد ذمها النبى محمد فى أقواله ونهى عنهـــا ، ولكنهم لميلهم الغريزى اليها تجاوزوا هذا النهى فتراهم جميعا من رجال ونساء وأطفال يتهلون بها فى أوقات فراغهم أو أثناء ممارستهم لاعمالهم . وبلغ من شدة ميلهم اليها أنهم يعلمون فى المدارس ترتيل الآيات القرآنية بأنغام محدودة وأوزان معينة .

ومعلوم أن العرب تلقوا عن الاقدمين ما قرروه من القــواعد والاساليب فى الموسيقى وزادوا عليه زيادة كبيرة . ولم يطلقوا على هذا الفن اسما من الفاظ لغتهم ، بل احتفظوا للدلالة على أصلــه اليونانى بلفظ الموسيقى الذى مـــا برحوا يسمونه به حتى الان . وقد لوحظ أنهم أخذوا عن الهنود والفرس جملة من الاصطلاحات الفنية فى الموسيقى كما لوحظ أن بين الاغانى العامة فى مصر والاغانى الشائعة فى أسبانيا مشابهة فى كثير منها. ذلك لان العرب احتلوا البلاد الاسبانية زمنا طويلا فكانت تلك الاغانى الشبيهة بالاغانى المصرية بعض ما تركوه من آثارهم قبل رحيلهم عنها . والعرب هم الذين اخترعوا الطبل والارغن .

أما الموسيقى المصرية الحالية فلم تكن الا فنـــا من الموسيقى العربية طرأ عليه الفساد . وهى تمتاز بتقسيم الصوت الى أقسام والاقسام الى أجزاء صغيرة ، كما تمتاز باختلاف مقامهـــا عن مقام الموسيقى الافرنجية ، ولاسيما من جهة عدم وجود المفاتيح فيهـــا بالمرة . ومع هذا فأن العرب يصمون تقسيمنا لمقام الصوت بوصمة النقص والعيب ويحللونه هم الى اثلاث وأرباع وأثمان . وهـــذه المسافات من الصغر والدقة بحيث يتعذر على السمع تقديرهـــا . ولدقـــة تدرج هذا التقسيم يتعذر بل يستحيل على الاوربيين تقليد الموسيقى المصرية ، وان يكن أهل البلاد يدركونهـــا ويلتقطونهـــا بسهولة تامة .

والاوربيون ، اذا سمعوا الموسيقى العربية ، لا يشعرون بشيء غير ذلك الشعور الذى يبث فى نفوسهم الحزن والشجو . على ان اتصافها بهذا الوصف الخاص ، مضافا الى بساطة الانغام التى تتألف من مقامات صغيرة العدد جدا ، للدلالة على بضعـــة أسطر من الغناء ، يعطيها فى الغالب حلاوة تستهوى الاسماع . ومهمـــا يكن من آراء الغربيين فى محاسن الموسيقى العربيـــة أو مقابحها ، فمن المجمـــع عليه الاعتراف بما فى أصوات المؤذنين من خصائص الجمال والجلال ، أثناء دعوتهم الناس من أعلى المآذن الى أداء الصلاة .

أما المصريون فسريعو التأثر بأصوات المطربين منهم بالاغانى والاناشيد . وهم يشجعونهم على الاحسان ويستفزونهم الى الاجادة بما يوجهونه اليهم من عبارات الاستحسان والتحبيذ التى يعبرون بها عن شعورهم ، اذا يصيحون بلفظ الجلالـــه قائلين « الله ! » كلما بلغ الطرب منهم قصاراه . فكأنهم يقصدون بايراد ذلك اللفظ المعنى الآتى مقدرا : « أحسنت أحسن الله اليك ! » أو «صوتك رخيم حفظ الله صوتك ! » .

٦٣ ـ استعداد المصريين لسماع الموسيقى

يميل المصريون الى سماع الموسيقى منذ قديم الزمان . ومـا برح هذا الاستعداد الفطرى باقيا فيهم حتى الان . فانسجام الانغام واتزانها وضبط قوافيها سليقة فيهم ، حتى انك ترى الناس اذا ارادوا التعاون على أداء عمل ، قاموا به على أحسن مايراد بفضل ذلك الاستعداد الفطرى الذى ينظم حركاتهم أثناء عملهم فيعاونهم نظامها على أدائه مع الاتقان والسرعة . ويتمكنون فى الاعمال التى يستدعى أداؤها اشتراك الايدى العاملة اشتراكا مقرونا بالاجماع المنظم ، من الحصول عـلى هذا الاجماع بالتغنى جميعا بصـوت واحـد .

ولبعض الصناعات عندهم أغان خاصة يقصـد بالتغنى بها التعاون على انجازها بالسرعة والدقة . فللمراكبية أغـانيهم وأناشيدهم التى اذا تغنوا بها أو أنشدوها مهدت لهم القيام بمهمة جر المراكب باللبان فى الاوقات التى لا تكون فيها الرياح موافقة، وللسقايين من هذه الاغانى والاناشيد ما يساعدهم على ملء قربهم بالمـاء وحملها وتفريغها ، وهكذا بالنسبة لكل صنعة وحرفة . واذا تذكرنا أن بعض شعراء العصور القديمة مثل (ابشـيل) و (مارسيال) و (أوفيدس) قد استرسلوا فى وصف محاسـن الاغانى النيلية ، استطعنا أن نسلم ،على سبيل الترجيح ، بأن الاغانى التى ما برح نوتية نهر النيل يتغنون بها أثناء تسييرهم السفن فيه ، هى عين الاغانى التى كانت ضفتاه ترجعان صداها قبل بضعة الوف من السنين ، ولكل طبقة من الامة أغانيهـا الخاصة بها . أما أغانى طبقة العلماء فتستروح منها رائحـة الجد والشدة ، لان أغانى الغرام وأناشيد الحب والهيام لا توافق بالطبع أمزجتهم ولا تتفق مع هيبتهم وكرامة مركزهم .

٦٤ ــ الآلات الموسيقية عند المصريين

لدى المصريون آلات موسيقية كثيره خاصة بهم هى من أبسط ما عرف من الآلات وأوفقها للحالة الفطرية . نذكر منها الطبل البلدى وهو من النحاس ويشبه المرجل (الدست) غطيت فتحته بالرق ، والنقاقير وتستعمل فى المواكب ، والكاسات وتستعمل فيها أيضا ، ثم الصنوج (الساجات) وهى أشبه شىء بكاسات صغيرة ن النحاس توقع الراقصات عليها حركات رقصهن ، والدف ; الطار) ويشبه طبل البشكنس ، والدربكة وهى طبل مخروطى الشكل ينتهى بأنبوبة مجوفة ، وتمسك باحدى اليدين بينما تدق اليد الاخرى على الرق الممدود فوق فتحتها . وبالجملة فشكلها يشبه شكل القمع الكبير ، وهى كثيرة الشيوع فى القطر المصرى . والمصريون يستخرجون منها أصوات مقبولة فى السمع ويمزجون أنغامها مزجا غريبا .

ومن آلاتهم الموسيقية الهوائية الناى والصفارة والزمارة التى يميل نوتية النيل الى الزمر بها .

أما الآلات الوترية فأبسطها تلك الآلة ذات الوتر الواحد المعروفة بالربابة . وهى التى يوقع المحدثون والشعراء عليها أنغامهم أثناء روايتهم للقصص . والربابة آلة جديرة بالذكر فانها عبارة عن كمنجة لا تجويف لها يستخرج المصريون منها أنغاما شجية يخيل لسامعها أنها أصوات بشرية . واستخراج الاصوات منها بواسطة القوس . والآلات الاخرى التى من هذا القبيل هى الكمنجة وهى ذات وترين يتألف كلاهما من أكثر من خمسين شعرة من شعر الخيل منضمة الى بعضها . اذ أن تجويفها عبارة عن ثلاثة أرباع جوزة مثقوبة بثقوب صغيرة ، والقيثارة الحبشية وتشبه العود القديم ، والقانون ، والعود وهو قيثارة ذات سبعة أوتار تهتز بفعل ريشة تمسك باليد .

٦٥ ـ المغنـون المصريون

المغنون الذين صناعتهم الغناء يسمون بالآلاتية ، مفرده آلاتى. وتتألف منهم فى مصر طبقة محتقرة فاسدة الاخلاق ، اذا جيء بهم الى أحد منازل الخاصة تقاضوا أجرا لا يتجاوز ما يعدل ثلاثة فرنكات الى أربعة عن الليلة الواحدة . والمدعوون لسماعهم يغدقون عليهم عادة ، من محض كرمهم ، شيئا من المـال يضاف الى تلك الاجرة الزهيدة . وتقدم اليهم أثناء الغناء المشروبات الخمرية كالعـرقى وغيره وهم يفرطون فى شربها اذ يحدث أحيانا وقد لعبت الخمـر بعقولهم ، أن يفقدوا رشدهم ويسقطوا على الارض .

وفى مصر مغنيات يسمين بالعوالم ، مفرده عالمة . وهى كلمة أطلقها الاوربيون على جميع الراقصات من غير تمييز ولا استثناء. مع أنه ليس فى هذا الاطلاق شيء من الصواب . ويقدر المصريون كثيرا مهارة العوالم وحذقهن فى صناعتهن ، واعتاد نساء الاغنياء ان يأتين بهن الى داخل حرمهن ليسمعوهن أغانيهن المقترنة بدقات الطار والدربكـة ــ بينا يكون رب المنزل وأصدقاؤه من المدعوين مجتمعين بصحن الدار ليشنفوا أسماعهـم بتلك الانغام . والعوالم الشهيرات بالحذق والبراعة فى صناعتهن تدفع لهن الاجور العالية وتقدم الهدايا النفيسـة .

وأغانى العوالم شديدة التشابه والتجـانس لا تلبث الاذن أن تمل لهذا السـبب سماعهـا . ومن هذا الوجه لا محل للمقارنة بينهن ومغنياتنا اللائى يمتزن برخامة الصوت ونعومته ورنينـه . ومن المغنين من لا خلاف فى جمال أصواتهـم وهـم يتوخون من مقامات الصوت ، الجهير الكروانى وبالجملة الاصـوات الحادة ، حتى تراهم وقد انتفخت أوداجهن لهذا الغرض وتكلفوا ما فـوق طاقتهم للمحافظة على المقامات العالية من الصـوت أطـول ما استطاعوا من الزمن . وهيئتهن فى هذه الحالة لمن أغرب ما تقع

عليه الابصار ، لانهم عقب هذا الانتفاخ يطـــرقون برؤوسهم ويضعون أصابعهم فى آذانهم ويحشونها بتجويف كفوفهم ويخرجون الاصوات من حلوقهم بأقصى مجهودهم .

٦٦ ـ الموسيقى الاوروبية فى الجيش المصرى

لما تم تنظيم الجيش المصرى ، وكانت الحكومة المصرية تعلم أن لكل أورطة فى الجيوش الاوروبية موسيقى خاصة بها ، أرادت هذه الحكومة أن لا تكون من هذه الجهة دون غيرها من حكومات الغرب فاستدعت الى مصر طائفة من الموسيقيين الفرنسيين عهدت رياستها الى مؤلف حاذق من مشاهير المؤلفين الاسبانيين فى الفنون الموسيقية . فأنشأ هذا الاستاذ ببلدة الخانقاه . حيث كان ميدان تعليم الجيش وأركان الحرب ، معهدا للموسيقى جمع بين جدرانه مائتى تلميذ . فتعلم هؤلاء الطلبة الموسيقى الاوروبية الصوتية وتدربوا على الضرب بآلاتنا . وكما أنهم استعاروا منا آلاتنا الموسيقية ، كذلك أخذوا عنا أدوارنا الحربية وأغانينا العسكرية .

وفى هذا المقام لا يسعنى الا الاعتراف بأننى بالرغم من سرورى واغتباطى بسماع أنغامنا الوطنية وأناشيدنا العسكرية ترددها الاجواء على مقتضى ايقاع تلك الانغام والاناشيد ، الى غايات الفوز والفخار فى المكان الذى سار أبطالنا فيه قبل ثلاثين عاما ، لم أشعر قط بمثل ذلك الاغتباط والسرور لمناسبة استعادة المصريين لها منا ، ونقلهم اياها عنا من غير تحوير ولا تبديل . فان موسيقانا لا تؤثر بالمرة فى المصريين ، حتى أن أنشودة المارسيلييز الوطنية التى يعرفونها من قبل ويميزونها على غيرها من الاناشيد الفرنسوية ويسمونها بأنشودة بونابرته لا تهز وترا واحدا من أوتار أفئدتهم ، ولا تنشرح لها صدورهم ، ولا تميل الى التقاطهـا

أسماعهم . دع أن مطالبة المصريين باستعمال آلاتنا الموسيقية والتغني بأناشيدنا الخاصة لم يتوافر معه الغرض المطلوب من الموسيقى العسكرية فان حكومات أوربا لما أنشأت كل منها موسيقاها العسكرية كانت لا ترمى الا الى غرض واحد وهو التأثير فى العساكر بقوة تبث فيهم النشاط والحماس والهمة .

ولا مشاحة فى أن الموسيقى لغة ، ولغة فصيحة تؤثر فى مجاميع الناس وطوائفهم تأثيرا عظيما ، ولكن ارغام المصريين على سماع أدوارنا الموسيقية وأدائها بآلات غير التى ألفوها قد أوقع الذين أرادوا هذا الاصلاح المعكوس وقاموا به ، فى عين الخطأ الذى وقع فيه من يريد تحريك شعب بارغامه على حفظ عبارات نصيحة فخمة بلغة لا يفهمونها لانها غير لغتهم . وعلى هذا فالمصريون الذين يغمى عليهم سرورا اذا سمعوا أغانى المغنين والآلاتية منهم ، وهى على ما عرفت من التجانس والتشابه الباعثين على الملل ، لا يشعرون حين سماعهم الآلات والادوار الموسيقية الاوروبية الا بالملل وانحراف المزاج . واذا كان من الآلات الاوربية ما يلتذون بسماعه وتحسن فى نظرهم رؤيته فهو الطبل الكبير .أما الآلات الاخرى فأصواتها فى حكمهم خليطلايستحق الاهتمام والاعتبار .

وكان الواجب والصواب فى آن واحد ، أن يستدعى الى مصر فريق من الفنانين فى الموسيقى القادرين على ادراك مغازى الموسيقى العربية وعبقريتها ليركبوا منها موسيقى خاصة يكون للآلات الموسيقية الوطنية نصيب من مجموعة آلاتها . وبهذه الوسيلة كان يمكن التأثير فى نفوس الجنود المصريين تأثيرا موسيقيا لا ريب فيه .

وبدهى أنه ما كان لموسيقانا أن تجد ، بين أناس لا يهتمون بنا ولا يخفق لهم قلب عند سماعها ، أن تؤدى اداء حسنا

بمعرفتهم . فلم يكن من الغريب اذا أن نقرر الحكومة ما قررنه من الغاء معهد الخانقاه الموسيقى الذى كان ؛ بالرغم من الموانع والصعوبات السالفة ، ينشىء عددا لا بأس به من الموسيقيين الاكفاء القادرين . وقد استعاضوا عنه بأن جعلوا فى كل اورطة من الجيش معلما أوربيا للموسيقى . ولكن ما كان بميستور لمعلم واحد أن يحرز ذهنه نظرية الآلات المراد استعمالها جميعا ولا طريقة استخراج الاصوات منها . لذا كان منعذرا على الموسيقى العسكرية المصرية أن نجارى الموسيقى الاوربية . ولو ترك المصريون وشأنهم فى تطبيق الموسيقى الاوربية . على حاجاتهم لتطرق اليها الفساد والاختلال بلا ريب .

١٠

الرقص

الرقص المصرى — الرقصات والعوالم — الرقاصون .

٦٧ — الرقص المصرى

لا وجه بالمرة من وجوه الشبه بين رقص الشرقيين ورقص الغربيين . فعندنا ينظر الى الرقص بوجه عام من حيث كونه احدى وسائل الابتهاج والسرور بين طائفتين من الجنسين اللطيف والخشن . أما فى الشرق فمحال أن ترقص امرأة مع رجل . والرقص فى أوربا رياضة عملية تتلخص فى أداء أشواط من الحركات موقعة ايقاعا متناسقا وتحريك الساقين تحريكا يراعى فيه الاقتران والتوفيق على وجه الدقة والضبط .

أما فى مصر فما هو الا تتابع أوضاع وتعاقب حركات يلتوى الجسم فيها تارة وينعطف أخرى . يرمى بذلك الى غرض واحد هو استثارة كوامن الشوق الى الملاذ الشهوية .

والمفهوم أن الرقص المصرى وجد بنوعه وشكله منذ العصور الموغلة فى القدم . فقد رأيت فى النقوش الهيروغليفية بمعابد طيبة والقرنة وغيرهما مناظر مما يقع داخل البيوت كمناظر الراقصات فى ثياب كالتى يلبسنها الآن وأوضاع وحركات لا تختلف فى شىء عن أوضاعهن وحركاتهن اليوم .

ثم ان هناك تشابها عظيما بين رقص الراقصات الهنديات والعوالم المصريات . وليس هذا وحده وجه الشبه بين الفريقين فان رقص الراقصات الاسبانيات من نوع الرقص المصرى وهو مطبوع بالطابع العربى . ولكنه ، والحق يقال ، أخف من الرقص المصرى وارشق وأدق وأطبق على المعانى الشعرية .

والغرائز فى مصر ، من حيث ارتباطها بالآداب النفسية ، أكثر انفعالا بعوامل الفساد منها فى سائر أقطار الملكة العثمانية . فان الرقص ، مع أنه غير مباح فى الديانة الاسلامية ، مسموح به للغوازى (الراقصات العموميات) اللائى لا يقتصرن فى عرض حركاتهن الشهوية على المنازل الخاصة بل يتجاوزنها الى الطرقات والميادين العامة . على ملأ من الجمهور . ومنذ سنوات قليلة صدرت أوامر الشرطة فى مصر بمنع تلك الراقصات من التجوال فى طرقات القاهرة والاسكندرية .

ولا يدخل الرقص فى برنامج الدروس التى تعلم للبنات ، ولكن البعض منهن يتدربن على أداء حركات العوالم ورقصهن . ومع أن هذه الحركات فى غاية القبح وسوء الادب فان الاهلين

لا يستقبحونها ولا يتضجرون منها . والمحقق أن النساء المحصنات العفيفات الذين لا يجرأن على الرقص الا فى داخل منـــازلهن بين صويحباتهن ، ولكنهن لا يأتينه على مشهد من آبائهن أو أمهاتهن او أزواجهن . ولمـا كان الرقص من وسائل التسلى والابتهـاج التى تروق السيدات كثيرا ، فقـد اعتاد العظماء والاثرياء اتخاذ الراقصات فى منازلهم من الجوارى لادخال السرور على زوجـاتهم برقصهن وشرح صدورهن بحركاتهن .

ومن النادر جدا أن يدعو المسلمون الغوازى الى منازلهم . فاذا وجد من بين سكان مصر من يجيز لنفسه هذا الترخص فانما هم اليهود والاوربيون . واذا اتفق وجود الغوازى فى منـــازل المسلمين برسم الرقص فانهن لا يرقصن الا على مشهد من الرجال وحدهم أو من النساء بمعزل عن الرجال . وسواء أكان الرقص لهذا الفريق أم لذاك فانه يحصل فى بهو الاستقبال . والراقصات اذا رقصن فيه برسم الرجال جيء بالنوبة اى طائفةآلات الطـرب وبيد كل من رجالها احدى الآلات التى سبق وصفها ، لايقـاع الحركات على مقتضى الانغام . ويبلغ شعور الراقصات بالحـاجة الى الايقاع والتناسق فى الحركات الى حد أننى شـــهدت بنفسى البعض منهن لا يستطعن القيام بأداء حـــركاتهن ، اذا قصرت الموسيقى عن أداء الانغام بحسب الوزن المطلوب .

والعادة أن يجلس الموسيقيون فى ركن من أركان البهو وأن يشغل الراقصات المكان المعروف بالدركة وأن يجلس المدعــوون فى سكون تام على الدواوين يتمتعون بهذا المرأى الشـهوى وهم يدخنون الشبكات . ويطاف على الراقصات والموسـيقيين ، من آن الى آخر ، بأقداح العرقى الذى يستفزهم بالتدريج الى الامعان فى الرقص والغناء . ولكنه كثيرا ما يفقدهم الصواب ويلقيهم فى وهدة السكر جميعا فلا يفيقون من سكرتهم الا بعد ســاعات

طويلة . اما اذا كان الرقص فى الحرم فان الموسيقيين لا يحضرون مجلسه . وفى هذه الحالة توزن حركات الراقصات بالطار والدربكة اللذين ينقر عليهما جماعة النساء من حاشية ربة البيت .

٦٨ ـ الراقصـــــات

السواد الاعظم من العوالم فى مقتبل العمر وعلى حصة وافية من الجمال والحسن . لانهن يجمعن الى فن الرقص مزية الاتصال مع الرجال بالروابط التى تربط الخليلة عادة بخليلها . وملابسهن تشبه على وجه التقريب ملابس السيدات المتأنقات فى ثيـــابهن اللائى وصفناهن فى غير هذا الموضع ، ولكنها تختلف فى مظهرها الخارجى عن ملابس الحلائل الطاهرات الذيل . فمن ذلك أنهـــا ضغط عـــلى اجسامهن فتصفهـــا أكثر مما تصف ثياب الحلائل اجسامهن ، دع أنهن يكشفن عن نحورهن وسواعدهن . ويتوخين الزخرف والزينة فى ثيابهن وحليهن ويتخذن هذه الثياب من فاخـــر الاقمشة ويتحلين بالكثير من المصوغات والجواهر .

واذا رقصن يرقصن اما مثنى واما رباعا . ومع كونهن يتحرين التوفيق أحيانا بين حركاتهن ، فانهن لا يأتين بأوضاع منتظمـــــة كالتى تتراءى لنا فى الصور أو على مسارح التمثيل .

وطبيعة رقصهن من مخالفة الآداب والاخلاق بما يمنعنى عن التصدر لايراد تفاصيله ووصف أجزائه . لذا أكتفى بوصفه وصفا سطحيا يصور للقارىء شيئا من حقيقته . فانهن اذا اصـــطففن فى الدركة تقدمن بضع خطوات ضاربات بالصنوج (الصـــاجات) المثبتة بأطراف أصابعهن (الابهام والسبابة) محركات أيديهن فوق رؤوسهن وحـــول أجسامهن ، فيؤدين هذه الحركـــات أداء جميلا للغاية وبعد هذه المقدمة يبتدىء الرقص الذى يتلخص وصـــفه

فى احتفاظ الساقين والجذع من الجسم بسكونها مع تحرك الذراعين والتقائهما بحيث يتكون منهما ما يشبه الحلقة ثم انخفاضهما تارة وارتفاعهما أخرى بحسب الاطوار المختلفة للشعور الشهوى الذى يستثير هذه الحركات فيهن .

وترى أجسامهن مضطربة على الدوام اضطرابا يشتد أحيانا بما يبذلنه من النشاط ويضعف أحيانا أخرى لتكلف الكلل والملال وما يستتبعانه من الفتور والدلال . وقد تضطرب أعضاء من الجسم دون غيرها وتنعطف وتنثنى فتنحط بفعلها الحرقفتان تارة وترتفعان طورا آخر وتنطبع هذه الحركات كلها بطابع يجعلها منافية للحياء والحشمة لدلالتها على المقاصد الشهوية بالغة أقصى حدتها .

ورقص الغوازى على صنوف متنوعة أولها ، وهو أدلها على ما هنالك من الجرأة فى أداء تلك الحركات ، مصرى الابتكار . وثانيها خليط من الرقصين المصرى واليونانى اذ يتخلله التنقل بالخطوات . وثالثها الرقص المعروف برقص النحلة . ومؤداه أن يتصنع العوالم حالة من تلسعه النحلة ، فيأخذن بالبحث عنها فى ثيابهن صائحات : « النحل أوه ! النحل أوه ! » ولكى يقبضن على هذه الحشرة التى لا وجود لها الا فى مخيلتهن يتجردن شيئا فشيئا من ثيابهن حتى لا يبقى على أجسادهن سوى غلالة شفافة تخفق بشدة حركاتهن حول أجسامهن ، ويفتحها من آن الى آن ثم يضممنها بمقتضى الايقاع النغمى .

وانى أترك للقارىء الحكم على تأثير هذا المنظر المحرك لكوامن الشهوات حتى فى العواطف الجامدة .

ومتى بلغ الرقص من مداه حدا تثور فيه الاشواق الشهوية ، تلجأ الراقصات الى الراحة وتختلطن بالمتفرجين لمعاكستهم

ومناوشتهم . وأغلب ما يوجهن دعابتهن الى زعيم المدعـــوين وعظيمهم . ولست بحاجة الى القول بأنه لا يتمالك نفســه من الاسترسال معهن فى هذه الدعابة . ومن مزاحهن فى هذه الفرصة جلوسهن فى حجر من يقصدنه بملاطفتهن وتقبيلهن أو معــانقتهن اياه . وبالجملة فانهن يتطوحن معــه فى أســاليب من المداعبة والمطايبة ينفر منها من لم يعتدها . والاوربيون يخجلون طبعا من نظرها أو سماعها . أما بقية المدعوين فيظهرون الراقصــات ارتياحهم منهن واعجابهم بحسن اسلوبهن فى الرقص ثم يخصوهن بالتحف والهدايا يقدمونها اليهن على شكل يدعو الى الاســتغراب اذ غالبا ما تكون هذه الهدايا قطعا صغيرة من النقود الذهبيــة يريقونها بلعابهم ثم يلصقونها على جباههن ونحورهن وسواعدهن الخ .

وأجمل العوالم وأبرعهن فى استمالة الرجال اليهن يحــرزن فى الغالب جانبا لا بأس به من الثروة والنفوذ والدالة ، وتتــألف منهن فى الامة المصرية طبقة خاصة تعيش فى معزل عن ســائر الطبقات . فهن من هذا الوجه أشبه بطبقة (الجيتانو) بأوروبا . وغير خاف أن الغوازى يرجع تاريخ وجودهن الى العصور الموغلة فى القدم اى الى العصر الذى ابتكرت فيه حركات الرقص الشهوية التى كان الفراعنة الاولون يتلهون بمشاهدتها بدليل ما هو منقوش من صور تلك الراقصات فى قبورهم منذ آلاف السنين .

٦٩ ــ الراقصــون

معلوم أن فى الرقص المصرى شيئا يخالف المألوف ويســتفز العجب . ولكن من المرغوب فيه أن يستبدل هذا الرقص بمــا يكون أوفق لمقتضى الآداب والاخلاق الفاضلة . وعــلى كل حال فالرقص كما يشاهد الآن من الوجهة العامة أفضل بكثير من الحركات السخيفة السافلة التى يقوم بها الراقصون فى مصر .

ومع أنه من المقرر فى الدين الاسلامى ان لا يباح للرجل مشاهدة رقص النساء فان من الرجال فى مصر طائفة تحترف الرقص وتعرف فيها باسم « الخولات » .

والخولات يتزيون عادة بزى النساء . واذا كان الرجل الذى يرقص عندنا قليلا ما ينال من الرائى استحسان رقصه فان الخول المصرى اذا رقص ، لا يترك فى نفس من يشاهده الا التقزز والاستنكار . وحينئذ فمما يعتبره الناقدون غير ملائم للادب فرقص العوالم يصير ممقوتا ومخجلا فى رقص الخولات .

ومنذ صدرت الاوامر بمنع رقص النساء على قوارع الطرقات ازداد عدد أولئك الراقصين المخنثين زيادة يندى منها جبين الادب ويحمر وجه الانسانية ، وكان من أثر ذلك المنع أن حل مكان فساد فساد آخر أسوأ وأفظع منه . وانى لارجو من الحكومة المصرية أن تعجل باقتلاع جذور هذا الخزى الذى يدنس أرض مصر أو احتمال الخفيف الضرر منه من باب التفضيل على مالا قبل لاحد بضرره وشره .

١١

الالعاب والرياضات والمشعوذون

اليانصيب — الالعاب الحسابية — الرياضة البدنية — ركوب الخيل — الحواة والمشعوذون .

كان حتما أن يميل العرب ، مع ما يؤثر عنهم من حدة الذكاء وصفاء الذهن ، الى اللعب والمقامرة لهذا جاءت أوامر الدين الاسلامى ونواهيه صريحة فى منع المقامرة ولكن المصريين الذين

يميزهم عن مسلمى الاقطار الاخرى عدم الاكتراث بأوامر الـــدين ونواهيه أباحوا لانفسهم مخالفتها والعمل على ضد ما ترمى اليه. فان القمار من الالعاب التى يتهلون بها ويعتمدون فى قطع الوقت عليهـــا . وعامة الشعب شديدو الشـــغف بالمخاساة أى المقامرة بالفرد والزوج .

٧١ ــ الالعاب الحسابية

أكثر الالعاب موافقة لطبيعة الدعة والسكون فى المصريـــين وأوفقها لميولهم وأذواقهم الالعاب الحسابية التى نذكر منها الدامة والطاولة والشطرنج . ولهم بهذه اللعب ولع شديد اذ كثـــيرا ما يرى اللاعبون بها يقضون النهار برمته فى نقل قطعها عــــلى الرقع . وصناعة هذه القطع لا أثر فيها للدقـــة . وهى برســـم الكبراء والاثرياء تصنع من الاخشاب الثمينة أو سن الفيل .

اما لعبة الورق (الكتشينة) فالاقبال عليها قليل ولذا ترى المصريين يجهلون الالعاب التى تبنى عليها وتستنبط منها ولا سيما لعبة القمار التى مدارها ربح المال وخسارته .

وهناك ألعاب أخرى خاصة بمصر والشرق يطول بنا الشرح اذا تصدينا لبيانها فى هذا المقام ، وانما نذكر منها لعبة المنقلة وهى تلعب من اثنين على لوحة من الخشب حفر فى اتجاهها الطـــولى الى كل جانب من جانبيها ستة تجاويف يتألف منها صفان متوازيان وتوضع فيها قطع صغيرة من الاحجار أو أصداف بحرية بقصــــد ضمها جميعا بتدبير اللعب وسياسته فى تجويف معين من قبل . ثم لعبة الطابة وهى عظيمة الانتشار شديدة الالتباك وبينها وبين لعبة الطاولة بعض المشابهة . أما لعبة السيجا فأكثر النـــاس اقبالا عليها هم الفلاحون ، وتشبه من وجوه كثيرة لعبة الدامة .

واللعب بهذه الادوات تجرى أدواره اما بالمنازل أو بالقهوات العامة وفى النادر يكون النقد موضوع المراهنة اذ لا يتعدى موضوعها بوجه عام بعض الفناجين من القهوة .

٧٢ ــ الرياضة البدنية

مما يجعل المصريين غير صالحين للقيام بالتمرينات الرياضية البدنية التى تتطلب ممن يؤديها الرشاقة والقوة والحيلة سرعة وقوع الوجل فى قلوبهم أمام ما يحسبونه خطرا على حياتهم وضنهم بأرواحهم أن تتجشم المتاعب والمصاعب . لهذا لم تقع الانظار عليهم متنافسين فى احراز قصب السبق فى الركض أو المصارعة أو غيرهما من ضروب الرياضة التى تبث فى الجسم النشاط والهمة وتكسب الاعضاء اللين والمرونة . نعم ان الفلاحين اعتادوا المنازلة أحيانا فى الاعياد والحفلات العامة بالعصى الطويلة المسماة بالنبابيت التى مدار الفوز بها محاولة اصابة الخصم فى رأسه ولكنهم ، اذا هموا باللعب ، يحملون على بعضهم البعض بالضربات أو يتقونها بهمة فاترة ولين وتقصف لا أثر فيه من البسالة والاقدام .

وعلى كل حال فمنازلتهم بعضهم البعض على الوجه المتقدم لا تنهض دليلا على أن فيها شيئا من البراعة والحذق . وهم يباشرون المصارعة أيضا ، والمصارعون يتجردون عادة من ثيابهم بحيث يبقى نصف أجسامهم عاريا . وهم يدلكون هذا الجزء بالزيت ثم يتظاهر كل مصارع بأنه يحاول التغلب على خصمه بصرعه على الارض . ولكن الذين يشهدون هذه المصارعات ممن يفهمون معنى النشاط واليقظة والحيلة ويقدرونها قدرها ويعتقدون توافر هذه المزايا فى المصارعين الاوربيين لا يسعهم النظر الى تلك الجهود الا بعين الازدراء والتهكم والاحتقار .

٧٣ — ركوب الخيل

ركوب الخيل أو الفروسية من الرياضات المنظور اليهـا فى الشرق بعين الاجلال والاحترام . والشرقيون يعتبرونها من أشرف ضروب الرياضة وأسماها قدرا ، ولا يكادون يتجاوزون طـور الطفولة حتى يتفرغوا للتـدرب عليها ولا سيما اذا كانوا من البيوتات الكريمة أو الاسر المعروفة بسعة العيش وكثرة المـال . ولدربتهم على الفروسية وبراعتهم فيها تراهم يركبون أشد الخيـل جموحا وأكثرها شموسا بهيئة تدل على الوقار وحسـن السمت وجلال الهيبة . ويقومون وهم ركوب عليها بصنوف كثـيرة من الحركات التى من شأنها توثيق قوتهم وفتح أبواب الحيـل أمامهم وتنمية البداهة فيهم حتى يصير حضور الذهن من أخص صفاتهم. ولقد كان المماليك فى الزمن السابق متفوقين فى هـذا النوع من الرياضات وأفضى تفننهم فى الخطران بالسلاح ، وهم على متـون الجياد وترويضهم الخيل على أداء أسرع الحركات وأصعبها ، الى وصف فرق الخيالة وشراذمها منهم بأنهم أحسن الفرسان طرا على وجه الارض .

وكان من أخص رياضاتهم التى بقيت بعـد انثلال عرشهم وانقراض ذريتهم من مصر الرياضة المعروفة بالجريد . وهى ممـا يذكرنا ببراجسنا القديمة أيام انكباب الناس فى فرنسـا على الفروسية واشتغالهم بالرياضات البدنية على متون الخيل ، ومؤدى تلك اللعبة أن يركض فارسان عدوا من جانبين متقابلين ليلتقيـا ببعضهما . ففى أثناء هذه يقذف أحد الفارسـين بأقصى ما فى ساعده من القوة والشدة عصى من جريد النخل يختلف طولها من أربعة اقدام الى ستة يقصد بها اصابة الفارس الآخر . فاذا اصابه بها فقد يحدث به جرحا بالغا ربما يلقى بسببه حتفه ، وهـذا

لا يكون طبعا الا اذا أنفق من قوته الكثير فى القاء تلك العصى على نظيره . ولكن وجه الحيلة فى تلك اللعبة أن يستطيع الفارس المراد اصابه بالجريدة اتقاءها بل واختطافها بيده وهى تخترق الجو مصوبة اليه . وقبل أن يبرز فرسان العرب لاداء هذه اللعبة العسكرية يقضون زمنا طويلا فى التمرن على اصابة غرض ثابت معين بالعصى من الجريد .

على أن هذه التمارين الرياضية لن تقرب من نظائرها التى تشاهد فى ملاعب الخيل بأوروبا ولن تعدلها .

٧٤ ـ الحواة والمشعوذون

الحواة منتشرون كثيرا فى شوارع القاهرة وميادينها وهم يقدمون أدوارهم التمثيلية وسط حلقة من المتفرجين الذين سرعان ما يتواردون من كل جهة للتفرج على هذه المناظر . وهم يقومون بعدد عظيم من الادوار ويكسبون استحسان الجمهور المتفرج وما يقدمه اليهم من العطايا الصغيرة بما يبذلونه من الكلمات ويبدونه من الحركات التى لا تتفق ومكارم الاخلاق . وللحواة عادة عون أو عونان من الاطفال فيوهمون المتفرجين أنهم يغرزون فى جسم أحدهم نصلا أو رمحا من الحديد لا يمس الطفل بضرر ما فى الحقيقة ، لان هذا السلاح انما يغيب فى قراب من الخشب . وقد يطرح الطفل أرضا ويستعمل الطريقة عينها . موهما الناظرين أنه يغرز فى أنفه نصلا مطويا أو مدية صغيرة . وفى أحيان أخر يفتح شدقه ثم يمسك بخديه داخلا وخارجا لينفذ منه قفلا لا يلبث أن يقفله بالمفتاح فيظل هذا القفل معلقا بوجه الطفل المسكين ، والحقيقة أن شيئا من هذا القفل لم ينفذ من خد الطفل الذى يظن المتفرجون انه يقاسى من العذاب ألوانا .

وبالجملة فأغلب أدوار الحواة المصريين تشبه من وجــوه كثيرة أدوار الحواة المتنقلين فى أوربا . ومن أخص أدوارهم دور الاكواب التى يحولون البيض فيها الى كتاكيت ويصبغون بالالوان المختلفة قطع الورق الابيض الخ . ومن أدوارهم أيضـا ايهامهم الناظرين أنهم يبتلعون الخام من القطن أو الصوف ثم يستخرجونهما من أفواههم مغزولين وملونين بمختلف الالوان ، ومنها أنهم يلقون التراب فى اناء ممتلىء ماء ثم يستخرجونه فاذا به جافا ، ويتفننون فى أشباه هذه الحيل التى لا يحصيها العد بين استحسان المتفرجين وتصفيقاتهم الحادة .

وفى أيام الاعياد والحفلات يقوم الجعيدية المضحكون بتمثيل نوع من المناظر المضحكة فى الطرقات والميادين لادخـال السرور على العامة . ولدى المصريين وسيلة للهو يقوم بالتمثيل فيهـا تماثيل صغيرة على شبه الانسان وتسمى بالاراجوز . والممثـل الذى يحرك التماثيل يستتر عن أنظار المتفـرجين فى مربع من الالواح الخشبية ثم يحرك تلك التماثيل بخيوط يمسك بأطرافهـا ويقرن حركاتها بأقوال يفوه بها فيخيل للسامع أنها أقـوال تلك التماثيل وألفاظها .

وهناك طائفة من ممثلى الروايات المضحكة تؤدى أدوارها فى منازل الخاصة ولا يدخل فى تضاعيفها من الحوادث ما يستمد من الحيل والدسائس أو يشير الى أنها جاءت عفوا ومن غير تكلف أو قامت على أساس من الذكاء والعقل . وبالجملة فان مصر مهـد لفرع من فن الروايات لا يزال على فطرته الاولى مجردا مما تحسن فى السمع أو البصر .

وهناك طوائف وفرق من البوهيميين « الغجر » يمثلون أمام الجمهور بعض أدوار القوة والصلابة البدنية ، فيرقصون عـلى

الحبال المشدودة أو يطوفون على الناس بقرودهم وكلابهم وغيرها من الحيوانات المعروفة بالذكاء فيجعلونها ترقص أمامهم أو تأتى من الحركات المضحكة ما يدخل السرور عليهم .

١٢

٧٥ ــ الاعياد والحفلات العمومية

اذا استثنينا حفلة قطع الخليج ، وهى الحفلة العامة التى حرص المصريون بحكم التقاليد على اقامتها احتفاء بوفاء النيل منذ الالوف العديدة من السنين ، فانا نجد الاعياد والحفلات الاخرى كلها ذات صبغة دينية لا مراء فيها .

والذى يمر بخاطر الناظر فى هذا الامر والباحث عن أسبابه، أول وهلة ، أن الشريعة الاسلامية لم تترك جهدا الا وبذلته لتمييزهم على غيرهم من معتنقى الديانات والعقائد الاخرى . فهى فى دعوتهم الى أداء فرض الصلاة بالمساجد لم تتخذ النفير الذى ينفخ العبرانيون فيه لهذا الغرض ، ولا الاجراس التى يدقها المسيحيون له ، بل قضت بأن يكون الاذان هو النداء الداعى الى الصلاة .

والعادة ، اذا دخل الاسرائيليون معابدهم ، أن يدخلوها لابسى أحذيتهم غير مكشوفة رؤوسهم . كما أن عادة المسيحيين ، اذا غشوا الكنائس ، أن يكشفوا عن رؤوسهم .

أما المسلمون فانهم اذا دخوا مساجدهم أبقوا عمائمهم على رؤوسهم وخلعوا نعالهم . وحتى لا تكون هناك قدوة باليهود والمسيحيين فى راحتهم الاسبوعية لم تتخذ الشريعة الاسلامية

أحد يومى السبت والاحد لالتماس الراحة من عناء العمل ، بل اتخذت له يوم الجمعة الذى لم يكن المقصود به ، بمقتضى الشريعة الاسلامية ، الامساك عن العمل لطلب الراحة بل أداء صلاة الجمعة . ولهذا ترى المسلمين ، بعد قيامهم بهذه الفريضة الدينية ، ينصرفون الى ممارسة اعمالهم كما اعتادوا مزاولتها فى بقية أيام الاسبوع بلا فارق أبدا .

أما الاعياد العامة التى يتحتم عليهم الاحتفال بها فتنحصر فى عيدى الفطر والاضحى . وليست الاعياد الدينية الاخرى التى سأسردها فيما بعد ، الزامية كذلك العيدين .

فالسنة الهجرية من هذه الاعياد ، تبتدىء بشهر محرم الحرام لان العشرة الايام الاولى من هذا الشهر تعد من الايام المباركة ، ويرتبط بها كثير من الاوهام الباطلة التى يسلم العامة بصحتها . ويسمى اليوم العاشر منها بعاشوراء بذكرى وفاة الحسين شهيدا فى واقعة كربلاء .

وفى صفر تبدو بين الناس حركة عظيمة سببها الاهتمام بالاستعداد لعودة المحمل الشريف من مكة الى مصر .

ومنذ الشهر الثالث من السنة الهجرية تعد المعدات العظيمة للاحتفال بمولد النبى واقامته فى ميدان الازبكية بمظاهر الابهة والجلال . والدراويش السعدية المحور الاكبر الذى يدور عليه هذا الاحتفال العظيم . فانهم يجتمعون طوائف كثيرة ويعكفون على الاذكار التى سبق لى وصفها فى احدى الفقرات المتقدمة . والعادة أن يبقى الشيخ البكرى ، شيخ سجادتهم ، بميدان الازبكية . فاذا أقبل ذلك اليوم عاد فى موكب جليل من المسجد الى داره . وقبل أن يصل اليها بقليل يقف فى الطريق حيث تقام بحضوره الحفلة المعروفة بالدوسة .

وبيان هذه الحفلة أن ينكب نحو مائة من الدراويش أو مائتين على وجوههم فوق الارض متلاصقين متلاحمين فتتكون من أجسامهم سجادة بشرية لا يلبث الشيخ الجليل أن يسير عليها ممتطيــــا جواده ، يتبعه بعض مريديه سائرين عليها حفاة الاقدام . والذى يزعمه أولئك الدراويش بعد مرور الشيخ ومريديه فوق أجسامهم أن سنابك الجواد لم تصبهم بألم ما وأن هذا ينهض دليلا عــلى ولايتـــــه .

وتقام حفلات عديدة بمناسبة موالد بعض الاولياء أشهرهـــا مولد الحسنين ثم مولد السيدة زينب . وليلة السابع والعشرين من شهر رجب الاصب تعد من الليالى المباركة التى ينبغى احيـــاؤها بالحفلات لانها ليلة المعراج التى عرج النبى فيها الى السماء .

وقد ذكرت فيما تقدم أن شهر رمضان وعيد الفطــر الذى يتلو ختامه وعيد الاضحى الذى يطابق وصول الحجاج الى مكــة من الاعياد التى تقــام الحفلات العامة برسمها . ففى هذه الاعياد وفى ليالى رمضان كلها يقوم المغنون والمحدثون والشعراء والحواة والراقصات والموسيقيون بادخال السرور على الجمهور فى الشوارع. وكلها مما يسهل على الباحث فى أحوال مصر وعادات أهلها الوقوف على ما يمتاز به الشعب المصرى من الاخلاق الغريبة والعــادات العجيبـــة .

١٣

بيانات تفصيلية عن الاخلاق

٧٦ — الشـــحاذة

بالرغم من أن أهالى مصر يرزحون تحت أعباء الفقر ويرسفون فى أغلال العوز والفاقة ، فان الشحاذة لم تكن فاشية فيهم بنسبة

فقرهم وعوزهم . وسبب ذلك أن احتياجات المصريين تنحصر فى دائرة ضيقة تجعل مداركتها أمرا ميسورا عليهم . بل أن مداركتها من السهولة بحيث يندر أن يوجد فى القطر المصرى كله رجل واحد يعجز عن كسب قوته بنفسه .

ويتقى المصرى برد الشتاء بقميص بسيط لان الشتاء فى مصر لم يكن زمهريرا ، ولا يرهب حرارة الشمس وقيظ الهاجرة لاعتياده اياهما منذ نعومة أظفاره . واذا لم يكن مالكا ما يسد به الرمق من القوت فانه يثق بحصوله على شىء من الخبز والادم من أى كان من أبناء جلدته يواجهه فى طلب اسعافه ، فالمصرى الفقير لا يموت بالجوع أبدا .

وكان بعاصمة القطر المصرى فى زمن مضى جماعة من الشحاذين يتجرون بالعواطف التى يستفزها الاسلام فى نفوس المسلمين بما فرضه عليهم من الزكاة والاحسان ، حتى اقتنوا من المال شيئا كثيرا من تلك الطريق بالحاحهم والحافهم فى السؤال . وكان سوادهم الاعظم ينفقون هذا المال فى ملاذهم ، ولا سيما فى تدخين الحشيش . فيصور لهم الخيال أثناء تخدرهم بهذه المادة أنهم أسعد الناس حظا فى هذا العالم وأن ما يشعرون به من الملذات الخيالية لا يختلف فى شىء عن الملاذ الحقيقية التى يحس غيرهم بها فى عالم الحقيقة . ومنذ بضع سنوات أنشأ محمد على مستودعا للشحاذين جمع فيه أكثر من أربعمائة شحاذ رجالا ونساء وأطفالا .

٧٧ — اللصوص

كان انتشار الفوضى فى مصر ، قبل أن يتسنم محمد على ذروة الحكم ، من بواعث اختلال الامن واضطراب حبل النظام وتألف عصابات اللصوص فى كل مكان ، وعلى الخصوص فى الوجه

البحرى . وقد اختص لفيف منهم بالقرصنة على نهر النيـــــل اذ كانوا يلاحقون القوارب سباحة لسرقة ما تحمله ويتخيرون الليـل لارتكاب جرائمهم .

وتدور على ألسنة الناس قصص عن مهارتهم وجرأتهم تكاد لا تصدق . ولكنهم كانوا مع ذلك فى غاية الجبن اذ كانوا يخشون بأس الاوربيين ويفرون من أمامهم اذا وقفوا لهم وقفـــــة الجاد لا المازح وكشروا عن أنيابهم .

ولقد استأصل محمد على شأفة أولئك اللصوص وتمكن بعزمه الماضى وبأسه الشديد من القضاء على القرصنـــــة فى النيـــــل واللصوصية التى اتخذها العربان حرفة لهم ، والزم سكان القرى جميعا الذين تقع فى دائرتهم التعديات على عابرى السبيل بتبعـــة ما يقع منها من دفع التعويض الوافى متضامنين لمن يصيبهم الضرر من جرائها . فصاروا لهذا السبب يهتمون بالمحافظة على النظـــام ويؤدون وظيفة الشرطة متطوعين مع الســـــهر على حفظ الامن والسكينة فى نواحيهم .

ومع هذا فحوادث السرقات بمصر أقل منها بأوروبا وخـــاصة الخصوص الحوادث المصحوبة بالظروف المضاعفة للعقوبة كأن تكون السرقة سطوا استعمل فيه السلاح أو الكسر الخ .

٨ — المحكوم عليهم بالليمان

منذ انشئت ترسانة الاسكندرية ابتكرت للمجرمين عقـــوبة جديدة قصد بها افادة هذا المصنع العظيم ببعض الايدى العـــاملة وصرف أصحابها عن الاذى وتعويدهم العمل الصالح . فالمجرمون الذين ارتكبوا جرائم معينة يحكم عليهم الآن بالاشغال الشاقة المؤقتة

لمدد طويلـــة أو قصيرة . وهذه العقوبة فى مصر لا تسىء ســمعة المحكــوم عليهم بها ولا تحط من أقدارهــم ، اذ كثيرا ما شوهدوا بعد انقضاء مدة العقوبة وانقلابهم الى أهليهم وهم يحلون محلهم القديم فى المجتمع الانسانى ويتحلون بالرتب والامتيازات التىكانت لهم قبل الحكم عليهم . ولوحظ فى حالة ميلهم الى الزواج أن لاأسرة من الاسر التى طمح فى الارتباط معها بآخية المصاهرة رأت فى سعيه لديها ما يلوث شهرتها أو يذهب برونقها أو يحط من مكانتها بين الناس . ويدعو الى ذلك أن المسلم لا يرى فى العقــوبة التى يقضى بها الشرع ما ينافى شرفه وكرامته أو يصمه طول عمـــره بوصمة الخزى والعار .

٧٩ ـ القتـــل

اذا كانت حوادث القتل فاشية عند الامم المتمدينة فانها فى بلاد الشرق نادرة الوقوع جدا . أما ما قد يحدث أحيانا فى هـــذه البلاد من جرائم التعدى على النفس فتعليله لا يرجع الى مثـــل ما يعلل القتل به فى أوربا من الشهوات الدنيئة والاهواء السافلة والغرائز الوحشية الخ ما يدعو عامة المجرمين بأوروبا الى ازهاق النفوس البريئة .

أن المصرى قد فطر ، فى الاحوال العادية ، على دعة الجانب ودماثة الخلق والنزوع الى الطاعة . وليس من الممكن ، وهــو فى هذه الحالــة ، أن يقصد ارتكاب جريمة تفضى الى اراقة الدماء أو يصر على أى جرم من هذا القبيل ، فانما تلك نزعته الطبيعية الى السكون والهوادة فى معاملاته .

٨٠ — الشغب والفتنة

ان ماذكرناه من انفطار الامة المصرية على السكون والهدوء وحبها العيش فى ظلال الامن والسلام يقعدان بها عن رفع لواء العصيان والخروج على أولياء الامور . نعم ان الفلاحين ينزعون أحيانا الى الشغب واضرام نار الفتنة . ولكنهم لا يلبثون أن يفيئوا الى الطاعة ويخلدوا الى السكينة قبل أن تتحول تلك النزعة فى نفوسهم من التردد الى اليقين . وهذا فضلا عن أنه لا يدور بخلد مصرى ولا يخالط مزاجه شىء من البواعث التى توطن العزم على الثورة كالتروى فى عواقبها والاحتياط لها بالوسائل العملية كالمثابرة والهمة واليقظة . اذ كثيرا ما يحدث أن يتجمهر الفلاحون وتحتشد حشودهم وتثير التراب فى الهواء وتصيح قائلة : هلموا ! هلموا ! (يلا ! يلا !) فاذا حان وقت العمل لا يلبثون أن يسكن الروع قلوبهم وأن يخشوا عاقبة طيشهم وغرورهم . وربما كان الباعث لهم على ذلك يقينهم أنهم عزل من السلاح وان لا خطة للعمل مرسومة عندهم ولا رئيس يشرف على تنفيذها .

وقبل أن تتوثق أركان حكومة محمد على وتشتد مقاومها ، كانت الفتن والمشاغب متواترة الوقوع فى القاهرة . وكان رجال الدين يعززون جانبها بتأييدهم ويعضدونها باشتراكهم فيها من شيوخ وعلماء . والسبب الدينى وحده هو الذى يستفز المصريين الى العصيان ، كما يدل عليه ما لا يزال حاضرا فى الاذهان لقرب عهده من توصل الكذابين ، وفى مقدمتهم المهدى ، الى جمع شتات بعض الالوف من الفلاحين أيام الحملة الفرنسية لاغرائهم بجيوشنا وتحريضهم على النكاية برجالها .

وفى سنة ١٨٢٤ احتدمت فى الوجه القبلى نار الثورة فالتهمت ما بين اسنا وأسوان ، لاشتغال الحكومة بتكوين الجيش على

النسق الجديد . وكان زعيمها ومذكي ضرامها شيخا ممن يدعون انهم مهبط الوحى الالهى . وكانت فى تلك الارجاء شرذمة جنود الاورطة الاولى فتفرقوا أيدى سبا ولم يبق فى الصفوف منهم الا العدد الكافى لاخماد تلك الثورة التى لو حدث مثلها فى بلد آخر لانسع نطاقها وخيفت مغبتها .

٨١ — تنفيذ أحكام الاعدام

اعتاد المجرمون المحكوم عليهم بالاعدام الرضا والتسليم بما ساقه القدر . وكل ما يتذرعون به من وسائل الدفاع أثناء سوقهم الى ساحة الاعدام تكرارهم الجملة الآتية « هذا ما أراده الله. هذا ما كتب فى لوح القدر » . ولاعتقادهم بأن هناك قوة فوق الطبيعة تحركهم على مشيئتها وتسيرهم الى حيث تريد ، يتحملون بالصبر والسكون وعدم الاكتراث عاقبة خطيئتهم . وانك لتعتقد ، اذا رأيتهم ، انهم ليسوا المقصودين بتنفيذ الحكم الذى سيطوى حياتهم على السجل للكتاب .

ولقد شهدت مرارا حوادث الاعدام ، فكنت أرى المحكوم عليهم يسيرون نحو آلة التنفيذ من غير اكتراث وبدون أن تبدو على وجوههم علامات الانفعال أو الذعر ، بل ويتحدثون بسكون مع الحراس الذين يقودونهم اليها . أما جماهير الناس فقلما تسوقهم الرغبة الى ذلك المكان لمشاهدة التنفيذ او ينحلبون اليه من كل فج وحدب كما تفعل الجماهير عندنا كلما سيق مجرم الى ساحة الاعدام .

والعادة المألوفة أن يكون التنفيذ فى الساحة التى تقام فيها الاسواق . فاذا سيق مجرم الى هذا المكان فقلما ترى ممن اجتمعوا فيه من قبل للبيع والشراء اهتماما بغير أعمالهم التى

جاءوا من أجلها ، اذ يعكفون على مساوماتهم وبيعهم وشرائهم بدون أن يولوا وجوههم شطر الرواية المحزنة التى تمثل على مقربة منهم . ويصعد المحكوم عليهم بالاعدام فى سلم آلة التنفيذ بغير تردد وبعد أن ينطقوا بالشهادتين يمدون عنقهم اما الى آخية حبل المشنقة واما الى سنان سيف الجلاد ، بدون أن يبدو على وجوههم أثر ما من آثار الخوف حتى أن المتفرس فيهم لا يفرق بين حالتهم فى موقفهم أمام الموت وحالتهم العادية قبله .

٨٢ ــ الانتحار

حوادث الانتحار فى مصر أندر من حوادث القتل لان ذلك الوباء الادبى لا يفتك الا الجماعات التى انطفأ نور الايمان من قلوبها ، ولا ينزل الا حيث يصطدم العزاء الذى يبثه فى النفس الاعتقاد بالحياة الاخرى والاستسلام لقضاء الله وقدره ، بمذهب الشك الذى لم يذر من دعائم الايمان سوى الاعتقاد بالحزن والالم . ولكن الدين الاسلامى يبث فى قلوب ذويه جذورا قوية من الايمان لا تلبث أن تتأصل فيها ، لذلك كانوا فى طليعة الذين يدركون حقيقة معنى الانقياد لطاعة الله والخضوع لارادته الظاهر أثرها فى الحوادث كلها صغيرها وكبيرها . ولاشىء فى العالم يزعزع هذه العقيدة فى نفوسهم لانهم يرون أن ما قدر عليهم مكتوب منذ الازل فى اللوح المحفوظ ، وأن أوامر الله ونواهيه لا معقب عليها . فالمسلم ، لاستقرار هذه العقيدة فى نفسه ، من أسرع الناس الى التعزى والسلوان عما ينزل به من بوائق الدهر . اذا جاءه نبأ بخسارة مال او فقدان مظهر ، يتلقى هذا النبأ بالصبر والسكون فلا يسقط فى يده ولا يضطرب جأشه ولا يختلج فؤاده . وهذه حالته أيضا اذا فقد أعز الاشياء عليه كزوجته أو أولاده أو سائر أفراد أسرته .

ومهما تكن الدرجة التى يهبط اليها فى سلم الهيئة الاجتماعية على أثر كارثة حاقت به ، لا يعتقد أن فى هذا الهبوط ما يحط من كرامتـه ويقلل من شأنـه . فلا غرو ، وهذه قـوة توكله ووطود ايمانه ، أن يكـون من اليأس وخـور العزيمـة مناط الثريا وأن لا يفكر أبدا فى الانتحار ولا يخطر له مثل هذا الفعل على بال . ولو كان فى وسعنا أن نذكر أمثلة على عكس هذا للزمنـا أن نتحراها فى طبقة المسلمين الذين انغمسوا فى رذائل الحضـارة الاوربية ومخازيها . ذلك لان الشرقيين لا يأخذون فى الغالب عن أخلاقنا ، كلما اختلطوا بنا ، سوى ما كان منها سىء العاقبـة بعيدا عن الصواب .

٨٣ ــ المبـارزة

ان المبارزة ، وهى تلك العادة التى اتصلت بنا منذ عصـر المروءة القديمة والتى تدعو اليها فى أوربا عزة النفس والحاجة الى صون الكرامة والذود عن الشرف ، مجهولة عند الامم الشرقية . وبلغ من جهلهم بها أنه لا توجد فى لغاتهم كلمات للدلالة على ذلك الشعور الكريم الذى ينزل عندنا فى منزلة الايمان الحقيقى ، بالرغم من أن المسلمين يتعلمون ضروب القتال ويواصلون الليـل بالنهار فى التدرب على استعمال السلاح . ولقد رأينا فيما سـبق كيف أنهم يتابعون بعضهم البعض على الخيل وبأيديهم الجريد يتراشقون به . ولكنهم لا ينازلون عادة سوى المستظهرين بالعداوة لهم مـن أعداء دينهم أو وطنهم .

الباب السابع

نظرة فى العناصر الاخرى

من سكان مصر

١

العربان

قبائل العربان ــ شغف العربان بالصحراء ــ صفاتهم وطباعهم قناعتهم ــ مكارم أخلاقهم وجميل عاداتهم ــ تربيتهم ونظامهم ــ حروبهم ــ حريتهم الدينية ــ تربيتهم العقلية ــ الادلاء من العربان سرقات العربان وقطعهم الطريق ــ مكافحة محمد على لهذه النزعة ــ تنظيم فرسان العربان على هيئة جيوش غير نظامية ــ فضائل العرب الرحل .

١ ــ قبائل العربان

يطلق اسم العربان أو البدو على القبائل الرحالة العائشة فى الصحراء . وكانت القبائل التابعة لمصر أيام الحملة الفرنسية ستين قبيلة عدد أفرادها مائة ألف نفس منهم ثمانية عشر ألفا الى

عشرين ألف فارس . وهذا الاحصاء التقريبي لم يتغير منذ ذلك الوقت ، الا قليلا . ومن أشد تلك القبائل بأسا وأبعدها شهرة الهوارة والعبابدة والهنادى والهدندوه بالوجه القبلى ، والمعازة بمصر الوسطى والطرابين والقطاوية والكبابيش وأولاد علي الخ بالوجه البحرى .

٢ — شغف العربان بالصحراء

اخترقت الصحراء المترامية الاطراف الى أبعد مدى مراتكثيرة فأدركت السر فى تعلق العربان بها ، واستكشفت سبب نظرهم الينا بعين الاحتقار ، نحن الذين كدستنا الحضارة فى آفاق ضيقة الحلقات . وقد بلغ ذاك التعلق وهذا الاحتقار من نفوسهم مبلغا جعلهم لا يطيقون سكنى الحضر الا بعد معالجة طويلة لاعتيادها وتوطين النفس عليها .

ولقد تعرفت بشيخ من أغنياء العربان كان لا يميل بفطرته الا الى الصحراء ثم تغلب على هذا الميل باعتياده الاقامة فى الحاضرة حيث تسلم مقاليد الحكم على احدى المقاطعات . ولقد طلب ، وهو فى مركزه هذا ، مصاهرة أحد مشائخ القبائل العزبية فرفض طلبه بحجة أنه بتطوره بطور الحضارة وايثاره المعيشة فى المنازل المنجدة عليها فى بيوت الشعر ، وطلبه خصب العيش فى ظل الدعة والراحة والسكون ، فقد خشونة البداوة وضعفت فيه العصبية والبسالة فأصبح غير أهل لان يختلط نسبه بنسبه .

٣ — صفاتهم وطباعهم

احتفظ العرب الرحل بحسن شكلهم الاول وبساطته . فالناظر اليهم يخيل له أن نفوسهم لا تنفعل الا بالعواطف السامية

والاحساسات الشريفة ، وأن الفضائل العالية خلق فيهم وسجية. فمن محض الخطأ اذا تخيلناهم فى صـفة المتوحشين وثوب الهمج واسأنا الظن فيهم بذلك . نعم لا تخلو الحال من قبـائل بدوية تدهورت فى الدرك الاسفل من حضيض الرذائل ، اذ جعلوا همهم اللصوصية والدعارة ، ولكنها لا تخالف فى ذلك شأن قبائل كثيرة اشتهرت بعراقة الاصل واكرام النزيل وبسطة الكف . ومن أخص صفات البدوى ومميزاته ولعه بالحرية والاستقلال الى حد يخيل معه للناظر أن لوائح هاتين الصفتين مرتسمتان فى وجهه . فلا يدهشك اذا أن تراه مفاخرا على الدوام بأصله ، معاليا الشعوب الاخرى بصراحة نسبه العربى الذى لم يعرف فيه الشوب وأنه ما رئم قط المذلة . وما أجمل منظره ، اذا غشى مجلس عظيـم أو ديوان ثرى ، متدثرا بردائه ومتشحا ببندقيته ورافعـا رمحه بلا تعمل ولا معاناة خيلاء ، لا يرضخ للنظم المرعية فى الاجتماع ولا يأبه بالآداب المسنونة له ، فجسمه مستعص على الحركات التى يراد بها الاحترام واظهار شعائر الخضوع . واذا خاطب عظيما ولو كان سمو الوالى نفسه أو سمو ابراهيم باشا ، خاطبه بجـرأة وسهولة وصراحـة لا أثر فيهـا للتكلف ، مخاطبة النظير لنظيره فاذا واجه سمو الوالى أو ابنه خاطبهما بالكاف قائلا : « كيف الحال يا محمد عـلى وكيف مزاجك يا ابراهيم » . وهذه سجيته دومـا فى الاسئلة التى يروم بهـا فتح باب الكلام مع سـيد مصر وصاحبها وأكبر قائد فى المملكة العثمانية كلها .

٤ ــ قنـاعتهم

اشتهر البدو بشدة القناعة ، فقليل من لبن النيـاق وبعض التمر يكفيان الواحد منهم غذاء طول النهار . وهم لا يعولون على أكل اللحوم الا فى الاعياد والحفلات الكبيرة حيث يذبحون رؤوس

الضأن الكبيرة أو الصغيرة ويشوونها على الطريقــة التى كانت معروفة على عهد (هيرميرس) الشاعر اليونانى . وغالبا ما يقع النظر على نسائهن وهن مشتغلات على متــــون الهجن ، بادارة الرحى لطحن الحبوب واتخاذ الخبز من دقيقها عجنا ثم انضاجــا على الواح حديد ، يوقدون النار من تحتها كلما حطت القبيــلة رحالها فى مكان . وهم فى الشراب أشد قناعة منهم فى الغذاء ، أما النبيذ فلا يشربونه أبدا وهكذا شأنهم فى ســـــائر الخمور . وبفضل تقشفهم فى معيشتهم واعتدالهم فى طعامهم يقل فيهم المرضى ويزداد عدد المعمرين .

٥ ــ مكارم أخلاقهم وجميل عاداتهم

المعيشة فى الصحراء تصون الاخلاق من الدنس وتربأ بهــا عن المخازى ، فمكارم أخلاق العرب وجميل عاداتهم أمر لا يختلف فيه اثنان وهم كغيرهم من مخلوقات الله تتأثر أفئدتهم بعــوامل الغرام ، الاأنهم يجهلون التسرى ويمقتون الزنا الى حد أن الفتاة عندهم يستحيل على رب الحيلة اغواؤها . وذلك لان احتـــــرام الرابطة الزوجية والاحتفاظ بالشرف والكرامة أصبحا من غرائزهم وسجاياهم المخالطة لدمائهم . والذين يجرأون منهم على انتهــاك الحرمات ويخالفون ما ألفته القبائل من العفة والنزاهة والطهــــر يعرضــون حياتهــم لخطــر الموت . ومع شــدة غيرتهم عــلى الاعراض تراهم يمنحون نساءهم من الحرية أكثر مما يمنحه لهــن غيرهم من المسلمين . فانهن يبرزن سافرات الوجوه ، ولا يتنقبن اذا وقعت عليهن أنظار الرجال . ولمــا كانت تربيتهن من تربيــة الرجال ، فانهن يتشبهن منذ الطفولة بعادات هـــؤلاء ويتخلقن بأخـــلاقهم .

٦ — تربيتهم ونظامهم

اذا تنجع البدو فى طلب الكلأ ونزلوا ، جعلوا خيامهم على استقامة خط واحد . وهذه الخيام أو البيوت تصنع من الاوبار السوداء أو السمراء ، أو من جلود الماعز والجمال . وخيمة شيخهم أو زعيمهم تمتاز على ما سواها ببياض لونها . وتحتوى كل خيمة أسرة واحدة ، وتنقسم بفاصل من القماش الى قسمين، أحدهما خاص بالنساء . واذا كانت القبائل لا تستطيع المعيشة متضامة الى بعضها فانها تنقسم الى شعب متفرقة تسمى كل شعبة منها بالفريق وتتألف من أربعين الى مائة خيمة . ويختار كل فريق شيخا له من رؤساء الاسر وعظمائها . وتنتخب الفرق مجتمعة شيخا كبيرا تجعله الرئيس الاعلى لها . وسلطة الشيوخ محدودة فى دائرة ضيقة جدا ، اذ فى الامكان عزلهم من منصبهم بصوت الاغلبية التى افضت بالرئاسة اليهم من قبل . على أنهم يحتفظون بحقوق وامتيازات لا ينازعهم عليها أحد ، بعد اعتزالهم العمل فى المشيخة . ولكل قبيلة راية ترفع امام خيمة شيخها ، وفيها يكرم مثوى الغرباء وتطرح الاراء وتدور المناقشات فى شئون القبيلة لتقرير ما يتفق مع مصلحتها . وتحصل المفاوضات فى الصلح والحرب . دع أن شيوخ القبائل وهم الذين يقودون التجريدات الحربية ويسوسون المقاتلة فى ساحات الوغى .

٧ — حروبهم

لكل قبيلة نصيب من الصحراء وحدودها التى تنتهى اليها مراعيها الخصبة . ومفهوم أن من المتعذر تعيين هذه الحدود بالدقة فى أرض تنطمس معالما بهبوب الرياح فى كل حين . فلا عجب اذا نجمت المنازعات بين القبائل المتجاورة على حدود أراضيها وسرعان ما يتحول الكلام فيها الى خصام فقتال بين الفريقين .

وكثيرا ما تستمر الحروب بينها زمنا طويلا بل ربمـــا لا تجد حـــدا تقف عنده . وربما كان الباعث على انحلال عقدة السلم وقـــوع الحيف بأحد الناس أو شكوى أحد العربان من سوء معاملته فيكون هذا السبب الفردى أو ذاك ، من بواعث التناحر بين الجماعات.
وقد ألف البدو الصدق والشهامة فى حروبهم . فانهم ، قبل مفاتحة أعدائهم بالخصومة ، ينذورنهم بها ويطلبونهم الى منازلهم . وهـــم فى قتالهم يتبارون فى اظهار الشجاعة والاقدام . ونظامهم فى القتال يلفت النظر ببساطته ويذكر بأساليب القتال فى العصور الاولى اذ يجعلون مصافهم للقتال على الترتيب الآتى : الصف الاول للشبان صفوة أهل القبيلة فى الفتوة والحماس وسرعة النجـــدة ، فان هؤلاء المقاتلة الطامحين الى الظهور والشهرة يطلبـــــون بعضهم البعض الى المبارزة ويتلاقون مرارا فى ساحة النزال . أما الصف الثانى فخاص بأرباب الاسر الذين بلغوا سن الكهـــولة . ويقف خلفهم فى الصف الثالث ذوو الاسنان من الرجال والنساء .وحكمة وجود هاته النسوة فى ساحة القتال واختلاطهن بالرجال أنهن يحنثن المقاتلة ويشجعنهم بالاغانى والطبول وارتجال الاناشيد الحربية . اما الفتيات المخطوبات للزواج فيستنهضن هم خطبائهن ويعدنهم بقرب الزواج مكافأة لهم على انتصارهم المأمول . وأما النســـــاء المتزوجات والامهات فيذكرن أزواجهن بالروابط المقدســـــة التى ترطبهم بهن ويمثلن لهم حالة الابناء والاسرات اذا لم يعـــودوا مكللين بغار الانتصار . وتحرض أجمل بنات القبيلة الشـــــبان المحاربين واعدة اياهم جميعا بأن تهب نفسها لمن يحرز منهم فى القتال أو فى قسط من المجد والفخار .

٨ — حريتهم الدينية

يحمل أهل الحضر من العرب نيرين : نير الاستعباد السياسى ونير الاستعباد الدينى ، بخلاف أهل البادية الذين يجهلون النير

الاول جهلا تاما ويلمون بطرائق تحرير أنفسهم من النير الثـــانى والقائه عن أعناقهم . وغنى عن البيان أنهم مسلمون كغيرهم من أهل الاسلام ، ولكن اسلاميتهم لا تزال على فطرتها الاولى من الصراحة والسذاجة ، اذ لم يدخلها شوب التعاليم الدقيقـــة ومذاهب أهل الكلام ومختلف آراء الائمة . لهذا تراهم يتنصـلون بمهارة وحذق من تبعة مخالفاتهم لقواعد الدين ونصوص الشــرع فيقولون مثلا : « اذا لم نؤد فرض الصلاة فلأن المـاء ينقصنا للوضوء ، واذا لم نتصدق فلأننا فقراء أحق بالزكاة من غيرنا ، واذا لم نصم شهر رمضان فاننا نصوم من الجوع طول الســنة . واذا لم نحج الى بيت الله الحرام فلأن بيت الله الحرام حيثيصلى الانســـان » .

٩ — تربيتهم العقلية

لغة أهل البادية مبنية فى الغالب على التشبيه . وهم فى شعرهم يستعيرون تشبيهاتهم مما تقع عليه أنظارهم فيما حولهم كعيون الغزلان وسرعة الفرس وصبر الجمل وقناعته وفـــوائد الصحراء وصفاتها المميزة . وليس فى أذهانهم أثر من العلوم ، بل أن السواد الاعظم من مشائخهم أميون لا يقرأون حرفا ولا يكتبون، ولكن مواهبهم العقلية بالغة أقصى مبلغ من الاتساع معززة الجانب بالمواهب الجثمانية التى تقويها الرياضة البدنية واستنشـــاق النسيم النقى من الشوائب .

١٠ — الســنيوره

أتيح لى مرارا البحث فى عادات البدو وأخلاقهم خلال رحـلاتى العديدة الطويلة فى الصحراء . ومما عرض لى فيها من الحوادث الجديرة بالذكر الحادثة التى أسوقها فيما يلى الى القراء .

لمـــا شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر ، هاجم البـــــدو لتابعون لقبيلة الزعيم الشهير المعروف بأبى قوره ، وهو الزعيم الذى طالمـــا قاوم المماليك ونافسهم على السلطة حتى حصلت له السيادة على اقليم المنصورة ، حاميتهم فى هذه المدينة . وكان مقره قرية (ميت العامل) على مسافة ستة فراسخ من الجنـــوب الغربى لها . فلما احتدمت نار المعركة سبى العــــربان امرأة فرنسية فى ريعان الشباب وأخذوها الى زعيمهم الذى لم يلبث أن تزوج بها . ولقد اشتهر أمرها فى تلك الجهات وأطلق عليهـــا اسم « السنيورة » لجمالها .

وكثيرا ما ذكر أمرها على مسمع منى فوددت التعرف عليهـــا واعتزمت اللقاء بها . فلما كانت سنة ١٨٣٤ ذهبت الى مـــديرية الشرقية ومررت بالقرية التى قيل لى أنها تسكنها ونزلت بدارها فاذا بها قصرا فسيح الجنبات قائما بالقرب من مساكن العرب.. وقد أحسن أحد أبنائها لقائى وأكرم مثواى . وما عـــــرف أننى فرنسى الجنس حتى ذكر لى والدته وقال انها لكذلك . فأعـــربت له عن رغبتى فى لقائها وكانت الذريعة الوحيدة الى ذلك مهنـــة الطب التى أقوم بها . فلما وصلت الى خدرها تلقتنى محييــــة باللغة الفرنسية . ولكننى سرعان ما تبينت أنها ايطاليـــة الجنس وعلمت منها فعلا أنها ولدت بمدينة البندقيـــة ، وأن والدها كان تاجر قبعات ، اسمه بارتولى ، وأن والدتها كانت تسمى مرجريت ، وأن اسمها هى جوليا ، وأن العربان سبوها وهى خارجة من المنصورة اذ أركبوهاجوادا وانطلقوا يطوون بها الفدافدوالسباسب حتى بلغوا بها فى المـــاء دارا كبيرة التقت فيها برجل يغطيـــه من الرأس الى القدمين حرام أبيض ، وأن هذا الرجل بذل لهـــا من مظاهر العطف والميل ما لا يوصف ، وانه جـــردها من ثيابهـــا الاوربية ليلبسها بدلا منها ثوبا شرقيا واسعا ، ثم سلمها من الحلى والجواهر ما قيمته ستمائة كيس أى ما يعدل مائة ألف فـــرنك

تقريبا ، وجعل فى خدمتها عددا كبيرا من العبيد والجوارى . ذلك الرجل هو الزعيم (أبو قوره) الذى كان مشهورا بالشوكة والجاه الطويل ، ولكن هذا الالتفات وهذا العطف كانا يضجرانها ، فكانت لا تكف عن البكاء وتعرب بالقول والاشارة والصياح عن رغبتها فى العودة الى ذويها . ومع هذا فلم ينقض احد عشر شهرا حتى رزقت غلاما ، فهدأ شعورها الامى نحو وليدها ثائرة التذمر والاستياء ولطف من أسرها فى هذا المكان فلم يسعها الا احتماله والرضاء به .

ولما مات زوجها وكانت توليه الحب الصادق وتعيش معه فى بحبوحة الهناء والنعيم ، أكرهت على التزوج بأخيه فلم تجد منه ما كانت تلقيه فى أخيه المرحوم من حسن الرعاية وجميل العطف . وبعد انقضاء أربع سنوات فى هذه الحال ، توفى هذا الزوج تاركا لها ابنة فى الثانية من عمرها تسمى (حفيظة) وجنينا فى بطنها سمى بعد ميلاده بعلى . ومع أنها كانت لا تزال بعد ميلاد هذا الابن تكابد من زوجها صنوف العسف والعنف،فانها خسرت بموته خير معوان وأقوى سند لها فى الملمات . ذلك لان الشره أغرى أقاربهبالاستفادة منضعفها على اثر وفاته ، فنصبوا المكائد ودسوا الدسائس التى توصلوا بها الى اغتصاب الشطر الاكبر من ثروة هذه الاسرة التى كان قد اعتورها النقص بامتداد أيدى السلبة اليها .

وكان منصور ابنها البكرى لا يزال فى مقتبل العمر وعاجزا عن الدفاع عن تراث أبيه . فأصابه غم شديد من رؤية تلك الثروة تتحول من يده الى أيدى الاغيار . ولم يلبث هذا الغم أن انقلب معه الى جنون . أما أخوه على ، فهو الآن عماد بيت أبيه وسنده الوحيد ، هذا البيت الذى كان فيما سبق رفيع العماد ومرموقا من الرواد والقصاد ، اذ كان يملكزعيمه أربعا وأربعين

قرية وبضعة آلاف من الجمال وقطعانا لا عداد لها من الاغنام وأكثر من خمسمائة عبد وجارية من الارقاء ، فلم يبق من هذه الثـروة الطائلة الا فضلات يسيرة تكاد لا تفى بقضاء حاجاتها ولا تكفى لاعالتها بمـا اعتادته من السعة والخصب والنعيم .

ومنذ الاربعة والثلاثين عاما التى قضتها السنيورة فى هـذه الدار لم تبرحها قط ، بل لم تر رجلا من الاجانب سـواى . ولقد أثار وجودى فى نفسها بواعث الانفعال والتأثر ، فتبينت من حالها أن عوامل الشوق الى وطنها والرغبة فى استنشاق نسـيم الحرية لم تنطفىء نارها بعد فى فؤادها . وعندما انصرفت من حضرتها كانت تشيعنى بنظرات العطف والمودة . ولقـد برحت دارها وقلبى يتحفز تأثرا بما رأيته وسمعته فى هذه المقـابلة ، ولا سيما بما أفهمتنيه من انها لم يصل اليها منذ وقعت سـبية فى أيدى العربان ، خبر ما عن أسرتها ولا عن زوجها الضـابط (ديفو) الذى لا تدرى أقتل فى معركة المنصورة أم بقى على قيد الحيـاة .

ولقيت فى دار السنيورة كل ما يؤثر عن العرب فى ضيافتهم للاجانب من مظاهر الحفاوة والاكرام ، فلقد تناولت الطعام فيها مرتين على مائدة كبيرة مستديرة كانوا يضعون فى وسطها ، عند كل وجبة ، خروفا بأكمله ويصفون على حافتها كثيرا من الصحاف الصغيرة ، فينتابها أولا أفراد الاسرة والاعيان من أهل القرية ، وكنا نأكل جلوسا على السجاجيد ونمزق اللحم باصابعنا وبها كنا نتناول الارز مطبوخا على الطريقة العربية . وبعـد أن نأكل كل على قدر همته ، ينتاب المـائدة بعدنا غيرنا من المدعوين ثم يحيط بها بعدهم الخدم والفقراء . ولقد أحصيت عـدد هؤلاء فاذا بهم يبلغون الستين .

ومما ضاعف دهشتي احتفاء رب الدار بالآكلين وملاطفته لهم وأنسه بهم الى نهاية الطعام . وكان يبدو على وجوه أولئــــك الفقراء الذين يقريهم رب الدار كل ليلة على هذا المثـــال ، أثر السرور من تلك الملاطفة التي تمحو فى نفوسهم أثر الفوارق بينهم وسائر الضيوف . خصوصا وانهم يعتقدون أن ما يجـدونه من حسن القرى لم يكن الباعث عليه الرياء وحب الظهور والخيلاء، لان أهل البيت يكرمون زائريهم فى كل يوم على هذا المثال السابق.

١١ ـ العــــربان الادلاء

يعتمد السياح والمسافرون الذين يقصدون اختراق الصحراء على البدو فى الاهتداء والوصول الى مقاصدهم . ويسترشــــد العربان فى قطع الطريق الذى يسيرون فيه ويقدرون أبعـــــاد ما اجتازوه وما يتبقى عليهم اجتيازه منه تقديرا دقيقا مبنيا عــــلى صدق النظر . والادلاء من قبيلة بيزار (؟) أهدى من غـــيرهم فى مسالك الصحارى الشرقية الى جبل طورسيــناء أما قبيلة أولاد على فمنها الادلاء العارفون بأسرار صحراء ليبية وهـــكذا قبيلة العبابدة بالنسبة لبلاد النوبة وقبيلة العوازم بالنسبة للصــحارى الممتدة بين النيل والبحر الاحمر فيما بين القصير ورانيس القديمة؛ وبالنظر الى حذقهم فى الصيد والقنص ترى أنهم من أنفع العربان للباحثين فى الشئون الطبيعية الخاصة بالمواليد الثلاثة .

١٧ ـ سرقات العربان وقطعهم الطريق

ان العربان كقطعة النقد التي اذا سرك منها منظر احــــد وجهيها ساءك منظر الوجه الآخر . لان محامد الخلال ومحاســن الخصال لا توجد ، عند جميع القبائل على السواء ، خاليــة من الشوب . وربما لم يكن ما وصفتهم به من كريم الشيم متوافرا فيها

جميعا فان منها قبائل لا تستطيع مقاومة ميلها الفطرى الى النهب والسلب . فكان اعتيادها قطع الطريق على السابلة واعتقادها أن الحكومة لن تنزل بها العقاب على سوء فعلها ، ومن بواعث خوف المسافرين على حياتهم . ومع ما تقدم فليس من العدل تعليل تلك النزعة فى العربان الى ارتكاب الشرور بسوء الغرائز ورداءة الطبائع وفساد النفس ، فان أهل البادية والمعتصمين بأوعار الجبال من شعوب العربان وقبائلها يرون أنهم فى حرب لا يخمد ضرامها مع أهل الحضر ، فهم يبيحون لانفسهم كل ما يبيح العدو لنفسه مع عدوه من ضروب التعدى والسلب والنهب . وكان هذا على الدوام شأنهم معهم اذ يرون أن ما يسلبونهم اياه انما هو من من الغنائم الشرعية والفيوء التى لم يحرمها الله فى كتابه .

وغنى عن البيان أن العربان أزعجوا طويلا جيش الحملة الفرنسية بمصر بما تراءى للجنرال بونابرته معه أن يشكل لقتالهم وكبح جماحهم فرقة من الهجانة كان كل هجين فيها يحمل رجلين. ومما ذكره نابليون فى مذكراته عن ذلك ما يأتى : « اذا كان موقع مصر الغريب ، وهى البلد الذى يستمد ثروته من اتساع نطاق الفيضان يقتضى حسن الادارة لانتظام شئونها واستقامة احوالها ، فان ضرورة كبح جماح عشرين الفا الى ثلاثين الفا من اللصوص المعتصمين بفسيح الصحراء حيث لا تنالهم ضربات العدل تدعو الى أن تكون تلك الادارة من مضاء العزيمة ومتانة القوة بحيث توقع رهبتها فى أفئدة اولئك الاشرار فلا يعيثون فسادا فى تلك الاقطار » .

ولقد بلغت بهم الجراة ، فى العهد الاخير ، الى التعدى على قرى الفلاحين بدون أن يطاردهم احد أو ينكل بهم ، عقابا لهم على سوء فعلهم . ولكن ما كاد الفرنسيون يحتلون القطر المصرى حتى كسروا شكيمتهم وقبضوا على ناصيتهم ، فلم يتمادوا فى باطلهم .

ولقد حذا محمد على حذوهم فى معاملته لهم فـــردهم ، بادارته الحازمة ، عن بغيهم والزمهم الوقوف عند افقهم .

١٣ ـ مكافحة محمد على لهم

فى الوقت الذى تسلم محمد على فيه زمام مصر ، كان العربان قد بلغوا من الجبروت وشدة البأس النهاية . فقد كانوا يفرضون الاتاوات على ســـكان مصر ويضربون الفدية لا يزعهم عن ذلك وازع . بل كان لا يصدهم احد عن الزحف على مدينة القـــاهرة ودخولها دخول الفاتح لسبى النساء وخطف الاطفال ونهب الاموال. وكان لا يجرؤ أحد على زيارة الاهرام بغير رضائهم وأمرهم .وكانت القوافل التى تجتاز برزخ السويس تدفع لهم الفرض الفادحة من المـــال .

فلما وقف محمد على على حقيقة هذه الحال ، قرر أن يمد رواق سلطته المطلقة على الصحارى كما نشر لواءها على الارياف، مقتديا فى ذلك (بسكست كنت) الذى يؤثر عنه قوله : « من أحب الامور الى أن يستطيع الناس فى مملكتى حمل أموالهم فى أديهم وترك ابوابهم مفتوحة على أعقابها طول الليل بدون أن يتعرض لهم أحد بأذى أو يسطو عليهم فى مأمنهم » . ولعل الوالى ، حينما تسلم زمام الامر ، جرى فى خاطره ما ينطبق على قول ذلك الملك ، فهم بالعمل على تحقيقه اذ سلك مع العربان مسلك المهادن المسالم ، فعقد الاتفاقيات مع قبائلهم . ولكنهم لم يلبثوا أن هتكوا ستارهـــا وخاسوا بعهودهم غير مبالين ولا هيابين . وأيقن محمد على لهذا السبب أن لا مناص له من الاعتماد على القوة فى قمعهم وتأديبهم فعول على قتالهم وسير لمطاردتهم فرقا من الفرسان المتحـــركة انطلقت تناوشهم وتأخذ الآفاق عليهم وتسد السبل ،حتى اضطرتهم الى التماس الصلح واستمناح العفو . ومنذ هذا الوقت ثابوا الى

الطاعة لوالى مصر واقسموا بالولاء له . ولقد اشترط فى عقد الصلح معهم ان يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة ليكونوا رهنا عنده على طاعتهموضمانا لوفائهم بعهودهم ، ولتقع على عواهنهم تبعة ما يرتكبه رجالهم من الجرائم ضد النظام والامن . وزاد على ذلك أن أجرى عليهم الارزاق والمرتبات لمعاشتهم .

وفى رأيى أن هذه الطريقة التى ابتكرها محمد على فى معاملة العربان ينبغى تطبيق مثلها على قبائل العربان فى بلاد الجـــزائر الملحقة بأملاكنا ، فانها خير وسيلة لكبح جماح أمة قال البحاثة الكاتب (بلانكى) عنها : « أنها لا تفهم معنى العقاب الا اذا برز لها محسوسا فى صورة الضرب بالسوط أو اعدام الحياة » .

١٤ ـ تنظيم جيوش فرسان العرب بهيئة جيوش غير نظامية

وبعد مضى زمن من تقرير أحوال العربان على النمط المتقدم، عرض محمد على عليهم تشكيل جيوش منهم للعمل فى جيشـــه واقترح ان يدفع لهم الاجور فى مقابل خدمتهم ، على شرط أن يأتى كل منهـم بفرسه وبندقيته . ولقـد أفادت هذه الفرق المساعدة محمد على فوائد جليلة اذ اشتركت فى حروبه بالسودان وســنار وجزيرة العرب وبلاد الشام كافة . وكانت منزلتهم من الجيش ، من الوجهة العسكرية ، كمنزلة القوازق غير المنتظمين من بعض الجيوش الاوربية . وكان عليهم القيام بمهمة الاستطلاع أثناء زحف الجيوش ومطاردة العدو أثناء الهزيمة أو مناوشته ومعاكسته أثناء انسحابه . وهم من أصلح ما يكون لاداء هذه المهمات الحربية .

ولا يزال عالقا بالاذهان أن العــربان هم الذين أسروا السر عسكر رشيد باشا قائد قواد الجيش العثمانى فى معركة قونيــا خلال الحملة الاولى على بلاد الشام .

١٥ ـ فضائل العرب الرحل

مما لا ريب فيه أن محمد على توخى مع العربان أصوب خطط السياسة وأحكمها ، وجاء من ذلك بما لا يستطيع غيره أن يجىء به لا تقاء شرهم . ولقد عقد على بك وهو أحد أمراء المماليك الذى استقل زمنا ما بالقطر المصرى فى النصف الاخير من القرن الماضى ، النية على ابادة العربان جميعا للتخلص من شرهم . وشرع فعلا فى تنفيذها ، اذ نكل ببعض القبائل وقضى عليها واضطر غيرها الى التراجع فى الصحراء فرارا من المجزرة . وكان هذا العمل منافيا بلا ريب لمقتضى الحكمة السياسيةومضادا للطبيعة الانسانية ، فلا غرو اذا عاد بالوبال والشر على المماليك أنفسهم . واذا قلنا أنه ما كان لعلى بك أن يعامل تلك القبائل بمثل ما عاملها به من القسوة والقهر ، فما ذلك الا لما هو ثابت ومستقر فى الاخلاد من فائدة وجودهم . فانه اذا صح لنا أن نقول ان الجمال سفن الصحراء ، فمن الحق والعدل أن نقول أيضا ان العربان ربانو هذه السفن وقادتها فى ذلك الاوقيانوس الارضى الذى لا افق له . فالعربان هم الذين يسهل عليهم دون غيرهم اجتياز تلك الفلوات الرملية المترامية الاطراف الى اقصى مدى والخالية من السكان والكائنات الحية ، وأنهم هم الذين يقدرون دون غيرهم أن يوثقوا عرى المواصلات السريعة بين البلاد التى على حفافها . فالاحتفاظ بهم ، وذلك مبلغ أثرهم فى افادة الانسانية ، يعود عليها بأجل المزايا . واذا كان هناك ما يدعو الى اتخاذ شىء من الوسائل لقمع شرورهم وصد طغيانهم فلا يجوز أن يتعدى حدود التهذيب والتأديب ، لتتم الاستفادة بالمزايا المتوافرة فيهم والتى لا يجاريهم فيها مجار غيرهم .

ذاك ما كان ينبغى أن يعامل به العربان لدفع شرهم والانتفاع بمزاياهم وهو ما قام به محمد على على خير ما كان يريده ويتمناه.

٢

العثمـــــانلية

أتراك مصر — صفاتهم النفسية — أزدهاؤهم بأنفسهم وكبرياؤهم شعور الاتراك نحو الاوروبيين — الاسـتـــلامبولية — اتراك أوربا والالبانيون والعثمانيون — الاتراك الاسيويون والمماليك .

١٦ — اتراك مصر

العثمانلية اجانب عن مصر . وهم يفدون عليها من أنحاء المملكة العثمانية كافة ، يجذبهم اليها فى الغالب اشتهار محمد على بمكارم الاخلاق بين مسلمى الارض قاطبة .

ويرى الاتراك انفسهم أنهم يؤلفون فى مصر طبقة ممتازة ، أى طبقة الظافرين الفاتحين . وازدهاؤهم شديد بالفـــــارق الذى يتخيلونه فاصلا بينهم والعناصر العربية . لذلك تراهم لا يرتبطون مع المصريين بصلة مبنية على قاعدة المساواة ، ولا يلتحمـــون معهم بلحمة المصاهرة ، الا فى النادر الذى لا حكم له . والذين يشغلون منهم المراتب الصغيرة والدرجات الواطئة هم الذين يتحرون مصاهرة المصريين ، وانما يشترطون فيها أن تكون مع الاسر الوطنيـــــة الممتازة بمركزها فى الهيئة الاجتماعية ، أو المعروفة بسعة الثروة والجاه ، وفى المدن دون الارياف .

ثم ان العثمانلية يترفعون عن تعلم اللغـــــة العربية ، اذ يعتبرونها لغة الامة المغلوبة على أمرها ، ويرون أنهم من سمو المكانة بحيث لا يليق بهم علمها ، ناسين أو متناسين أن بهـــــا شيدت آثار جليلة فى الآداب اللغوية ستظل باقية أبد الدهر ،

وانهم قد استعاروا منها ثلث كلمات لغتهم التى يتحدثون ويتفاهمون بها ، وأن اللغة العربية هى التى تنزل بها القرآن وهو كتاب المسلمين طرا وفيهم الاتراك . واذا كان الاتراك لا يظهرون نحو المصريين الميل والعطف ، فان هؤلاء يعاملونهم بمثل معاملتهم ، اذ من النادر أن نجد بينهم من يعرف كلمة واحدة من اللغة التركية .

١٧ — صفاتهم النفسية

من الحقائق المقررة أن للعثمانليين اخلاقا وعادات وطبـــاعا مغايرة كل المغايرة لمـــا يقابلها عند المصريين . أما صفاتهم النفسية فعين الصفات التى تتصف بها الطبقات الشريفة الراقيـــة . فمن صفات العثمانلى الحزم والثبات والصلابة والمثابرة والتحفظ وبعـد النظر فى المستقبل . وطالمـــا لا تعترضه الوساوس الناشئـة عن التنطع فى الدين ، فانه يمتاز بسلامة القلب وســـلاسة الخلق وبالشهامة والمروءة فى صلاته الاجتماعية . والناظر اليه يخيل له أن آدابه السامية غريزة فيه . وهو شديد الشعور بكرامة الذات . ومع أنه لا يفوق المصرى فى حدة ذكائه وصفاء ذهنه ، فانه يسمو عليه فى العلم بأساليب التسلط والحكم والادارة .

١٨ — ازدهاؤهم بانفسهم وصلفهم

هذه الصفة من صفاتهم النفسية منبثة فيهم انبثاثا يكاد يكون نقيصة ورذيلة . فان الاتراك متكبرون الى اقصى حد . ومـــن مظاهر كبريائهم وصلفهم انهم لا يترددون فى أمر ما ، ولايتراجعون عن انجاز ما يعن لهم من عمل ، ويعتقدون فى انفسهم القدرة على القيام بجميع الاعمال على حد سواء . وهذا الصلف البالغ مـــن مداه فيهم الى الحد الاقصى ، كان من اقوى أسباب سقوط الدولة

التركية ، لاننا طالما رأينا الوصوليين الذين لا يعرف لهم أصل ولا فرع قد ترقوا فى هذه الدولة وبلغوا من مراتبها الى الدرجة العليا لمجرد عطف السلطان عليهم . وبما أظهروه من دلائل العجز فى المناصب الخطيرة التى أسندت اليهم ، أوردوا الحكومة العثمانية شر الموارد وأوقفوها على شفا جرف هار من هاوية الهلاك .

يكون أحدهم بالامس خادما لخادم ، فاذا هو اليوم قائد لجيش عرم . وما هى الا لفتة من لفتات المولى المعظم ، فى ساعة من ساعات رضائه ، حتى يصير فى الغد أميرا للبحر أو فى منصب قبطان باشا . فمجرد هوى السلطان ومطلق ارادته يغنيانه من شهادة الفضل تليدا أو طارفا ، أو من تزكية العلم معقولا كان أو منقولا ، أو من الفوق على الاقران بالاخصاء فى فرع من فروع المعلومات البشرية . وبالجملة فتلك الارادة . اذا انصرفت اليه أو رمقته بعين عنايتها ، كانت بمثابة الشهادة له بالكفاءة التى لا تبارى فى علم كل شيء . ومن مدهشات الامور أن يتجرد المحسوب الذى يؤاتيه الحظ بمثل هذه السعادة الفجائية ، من مزية الاعتراف بعدم كفاءته . فانه سواء أكان قائد الجيش أم أمير الاسطول ، يعتقد أنه القابض دوما على ناصية الفوز والمتصرف فى أطوار الانتصار .

واذا كان ادراك الاتراك وفطنتهم قد بلغ الفساد منهما هذا المبلغ ، فمن أين لهم أن يتمالكوا أنفسهم عن التدفع والتدهور مع دولتهم على المنحدر السريع الذى زلت فيه اقدامهم ، نحو مهواة الفناء والهلاك ؟

ومما لا بد لنا من الاعتراف به فى هذا المقام ، بالرغم مما أوردناه من عيوب الاتراك ونقائصهم ، أنهم أقل من العرب طمعا

فى عرض الدنيا وحرصا على حطامها الفانى ، لذا يمكننا القــول بأنهم كرماء وأنهم يذهبون فى الكرم الى حد الاسراف وأنهم مولعون بالسعة فى النفقة والاخذ بمذاهب الترف والنعيم فى الحياة .

وبدهى أن هـــــذا الميل الطبيعى يسوق أصحاب المناصب فى الحكومة الى ارتكاب الرشوة ، ليستطيعوا قضاء مطالب النفس من وسائل البذخ والعيش فى ظل الهناء والسعادة .

لقد قلت ان كرامة النفس غريزة فيهم ، واقول الآن ان من أخص صفاتهــم وأوجبها للعجب ، ما يجدونه من السهولة كلمــا أرادوا اتخاذ الاصوات أو الاوضاع التى تلقى فى يقين الســامع أو الناظر معنى العظمة والابهة والجلال . وهم من الثقـــــة بنفوسهم والاعتداد بذاتيتهم بحيث اذا فاجأهم الحظ بمال أو منصب، لا تعتريهم دهشة ولا يأخذهم من ذلك ما يحمل الناظر على الحكم بأنهم دونها . ثم هم ينتقلون بالسهولة التامة من صوت الجبروت وأوضاع العظمة والعزة ، الى الملل من الطرائق التى يلجئهم الى اتباعها حب التزلف الى الذين يسمون عليهم فى المراتب ورفعـــــة الشأن . وكثــيرا ما يفضى فجأة هذا التنقل الى التناقض ، فبينما ترى كبار الضباط يتظاهرون أمام الوزير بالطاعة والانقياد ويؤدون الى مقامه اشارات الاحترام المقرونة بمظاهر الانصــياع ، اذا بهم متى برحوا ديوان هذا الوزير وغشوا مجلسا أو مكانا اجتمع فيه اناس أحط منهم درجة فى سلم الاجتماع ، قد رفعوا عقيرتهم ، وقوموا من منحنى صالبهم ، وأكسبوا سحنتهم وحركاتهم وأوضاع أجسامهم سمات العزة واباء الضيم . ومن ثم ترى ذلك الرفيق الذى رأيناه محتقرا مرذولا وقد صار فى لحظة واحدة مولى عظيمــا يتوخى فى حركاته واشاراته الصفات الارستقراطية المبنية عـــلى النهى والامر .

١٩ — شعور الاتراك نحو الاوربيين

للعثمانليين فى حكمهم على الاوربيين أفكار مستغربة ومذاهب لا مثيل لها . فهم يعتقدون مثلا أننا اذا اشهرنا الحــرب عليهم فانما نشهرها على ديانتهــم ، وأن الغرض الذى نرمى اليه هو ازالة معالمها من عالم الوجود ، واننا اذا كنا لا نستولى على بلادهم فما هو الا لضعف جانبنا وخور عزيمتنا . ولطالما عانيت الكثير من المشـــاق فى تفهيــم بعضهــم ما نحن عليه من التسامح الدينى وأن تفاوت وجهات النظر فى السياسة كان السياج الوحيد الذى وقى كيان الدولة العثمانية من خطر الزوال حتى الآن . وقليل من يستطيع منهم تكوين فكرة واضحة عن مركز تركيا حيال أوربا ، كأنهم لا يذكرون شيئا من فشل الدولة العثمانية المتكرر فى العهـــد الاخير أثناء حروبها مع الروسيا . وأعرف من بينهم فريقا لايتزعزع يقينه فى أن أوربا تدفع الجزية ، وهى صاغرة ، الى الســـلطان المعظم .

نعم ان الاتراك يضطرون ، فى مسائل كثيرة ،الى الاعتراف بتفوق الاوربيين عليهم ، ولكنهم لا يكفون عن النظر الى هــؤلاء بعين العطف المزوج بالاحتقار . وغنى عن البيـــان أنه ما دمت عقيدتهم الدينية متأصلة فى نفوسهم ، فلن نكون فى نظـــرهم الا كفارا مشركين (جاور) ونذكر بهذه المناسبة أسلوبهم فى استقبال الاوربى من ذوى المكانة والنفوذ ، فانه ممـــا يؤيد الرأى الذى أسلفناه . وبيان ذلك أنهم ، مع استقبالهم اياه بشىء من مظاهر الادب والاحترام التى كثيرا ما ينخدع بها الجاهلون بحقيقة العادات المرعية فى المراسم الشرقية ، لا يقومون اجلالا له عند دخـــوله بهو الاستقبال . وغاية الامر أنهم يتحـــركون ، وهم فى مكانهم ، حركة خفيفة . فاذا كانوا ممن يحبون أن لا يتهمهم أحد فى أدبهم فلا يكون هذا عادة الا اذا علموا أن زائرهم الاوربى من افاضل

الرجال وأعاظمهم الجديرين بالاحتفاء والاجلال ، اذ يكلفون خدمهم عندئذ بأنبائهم بوصول هذا الذات فاذا ما وافاهم النبأ على لسانهم قاموا واقفين قبل دخوله حتى لا يظهر له أن قيامهم كان من أجله . وأن ننس لا ننسى أخبار الخلاف الذى سار ثائره فى هذه المسألة بين سفراء الدول والباب العالى ، فقد كانت العادة أن يحتاط الصدر الاعظم لمقابلاتهم بأن يدخل معهم بهو الاستقبال فى آن واحد ، حتى لا يتكلف القيام خصيصا لهم اذا دخلوا عليه وهو فيه .

وفى ظروف كثيرة قامت الادلة على هذا الصلف المستمد من التمسك الدينى . وآخر دليل منها ما حدث ، منذ زمن قريب فى الديار المصرية ، من رفض أحد الضباط المتغشمرين ، وهو برتبة أميرالاى ، المرور بالآيه على مشهد من الدوق (دى راجوز) الذى دعاه سمو الوالى الى مشاهدة عرض جزء من الجيش أمامه .

أما سمو محمد على ، فقد ربأ بنفسه عن الانغماس فى هذه الاوهام الفاسدة وسما فوق خرافات العوام والمتعصبين ، اذ أقام الدليل القاطع على رجاحة عقله وحسن تسامحه وجم أدبه . فانه يتلقى الاجانب دوما بما جبل عليه من الانس والرقة وحسن التعهد ، ولا يكف أبدا عن ضرب الامثال لضباطه وحضهم على الاقتداء به فى حسن معاملتهم اياهم وسلوكهم معهم بما يقتضيه الادب وواجب المجاملة . ولطالما تعرض بسبب ذلك للتهم التى رماه بها أفراد رعيته يتهمونه فيها بقلة الايمان ، فكان يغتنم هذه الفرص ليشرح لهم تفوق الاوروبيين على الوطنيين فى العلوم والمعارف ويتخذ الوسائل لحمل هؤلاء على احترامهم واجلالهم . وفى وسعى أن أذكر فى هذا المقام طائفة من الحكايات الغريبة فى هذا الموضوع ، ولكننى أجتزىء منها بحكاية واحدة تكفى لاثبات ما ذكرته الآن .

جاء بعض ذوى الحيثيات من الاجانب يوما ، لزيارة الوالى فتلقاهم سموه فى الديوان . وما استقر بهم المقام ، حتى أمر محمد على باحضار القهوة . فما هى الا برهة حتى تقدم الاعـــوان المكلفون بها لتوزيعها عليهم ، فكانوا يقدمونها بأيديهم اليسرى . ولم يلتفت الزائرون الى هذا الامر ولا فطنوا للسبب الباعث عليه، جهلا منهم بتفاصيل الآداب المرعية فى الشرق . والذين فطنوا منهم للامر ، لم يذهب سوء الظن بهم الى الحكم بما فى تقديم القهوه على هذا الوجه من سوء الادب وقلة الاكتراث بالضـيوف . اذ لا يخفى أن المسلمين يرون فى اليد اليسرى أنهاخلقت للدنس ، فهم لايستعملونها الا فى الاعمال التى يصح وصفها بهذا الوصف. وما كاد الزائرون ينصرفون من حضرة الوالى الذى لم تفته ملاحظه ما أتاه خدمه من سوء الادب فى حق زائريه ، حتى اسـتدعاهم اليه . وبعد أن بالغ فى تأنيبهم أمرهم بلبس الثياب البيضـــاء والسفر فورا الى مكة ليكونوا ضمن خدم الكعبة . ثم قال لهم : « اذا بلغ بكم التعصب الذميم الى حد تعمد سوء الادب مع أناس يشرفنى لقاؤهم والاجتماع بهم ، فأولى لكم أن تقطنوا المدينـــة التى لا يوجد بها أوروبى واحد تسومكم رؤيته والتى لاتستطيعون أن تعرضونى فيها الى الخجل من قبح فعالكم وسوء أخلاقكم » .

٢٠ — الاسلامبولية وأتراك أوربا والارنؤود والعثمانيون والاسيويون والمماليك

ان الخلال التى استدللت عليها بالحادثة السابقة غير شائعة بدرجـــة واحدة بين العثمانلية . بل أن هناك فوارق تترتب عـــلى اختلاف أنحاء السلطنة العثمانية التى تواردوا منها على مصر .

فالاسلامبولية جبلوا على البشاشة واللطف ، وربما بالغـوا فيهما الى حد التصنع . وكثيرا ما يقولون عن غيرهم من الاتراك

انهم ريفيون وأنهم لا يجاورونهم فى سمو الادب ورقة الاخـــلاق وسلامة الذوق وغيرها من الصفات التى يمتاز بها أهل العواصم والحواضر على أهل الارياف والبوادى . ومنهم مـن يميلون الى الازدهاء بأنفسهم ويتطوحون فى الغرور الى حد يجر عليهم السخرية والاستهزاء . أما أتراك أوربا واليونان ومقدونيا . فلاعتيـادهم مخالطة الاوربيين فقدوا بعض سماتهم الاصلية المميزة لهم عـلى غيرهم ، حتى أن منهم من يجهلون اللغة التركية ولا يتكلمون الا بلغة الوسط الذى يعيشون فيه .

واذا نظرنا الى الارنؤود من هذا الوجه فلا نلبث أن نرى أنهم جنس مستقل بذاته وذرية لا تمت الى الاتراك بحبل القرابة . وهم مشهورون بالبسالة والولع بالقتال ، وهذا هو سبب اقبالهم على التطوع فى خدمة الولاة ، واذا انتظموا فى سلك الجيش تفوقوا على غيرهم فى الصفات المطلوبة من الجندى . وانما عيبهم الوحيد العناد والنزوع الى الثورة والشغب ولهم حرص شديد على المال وغرام بجمعه الى حد يمكن القول معه بأن جميع حـــوادث الاضطراب ترجع غالبا الى النزاع على المــال . وسواد الاتراك الموجودين بمصر من أصـــل أرنؤودى أو أوربى . اما الاتراك الاسيويون فقد احتفظوا بالصفات المميزة لجنسهم اذا لم يطـرأ عليهم تغيير كالذى ذكرناه .

أما المماليك فيحتفظون بأصولهم بدليل ما يبـــدو عليهم من سماتها الخاصة بها . وهذا بالرغم من تطبعهم بالعادات والاخلاق التى يقتضيها نوع التربية المعطاة لهم . ومع أن الكثـيرين منهم مسيحيو الاصل ، وانما اعتنقوا الاسلام فى نعومة أظفـارهم ، فان التعصب الدينى تأصل فى نفوسهم الى حد جعلهم من الدخصوم الديانة المسيحية . وهم ، بوجه عام ، لا يمتازون بشىء مـن الذكاء والعقل . وكل ما يميزهم عن غيرهم ، ويعتبر الصـــفة

الخاصة بهم والفطرة التى فطروا عليها دون غيرهم ، التصلب والعناد . وأعرف منهم فريقا لا ارتآب فى سمو مكانتهم من العقل ونباهة الذكر . وفى تاريخ الدور الخطير الذى قاموا بتمثيله على مسرح الديار المصرية الى أوائل هذا القرن أمثله لا عداد لها على خيانتهم وغدرهم ، فالامانة لم تكن اذا من الفضائل الشائعة بينهم. وليس هذا مما يستغرب اذا نظرنا الى أصل نشأتهم ، وعلمنا أنهم فى طفولتهم الاولى حرموا لذة الحب العائلى ولم يتذوقوا لها طعما ، وانتقلوا بغتة من بيئاتهم التى نشأوا فيها الى وسط اجتماعى لا تلحمهم بآله لحمة قرابة ولا يعطف عليهم احساس الشفقة الوالدية . فهذا الحرمان محا من أفئدتهم العواطف الطاهرة والخلال الكريمة والصفات التى يحول دون انبثاثها فيهم شبوبهم ، منذ المهد ، فى ضيق اليتم وذل الاغتراب .

ولم أستطع ، فى هذه النبذة الموجزة ، أن أذكر من طباع العثمانليين الا البارز المشهود . وليس هو فى الحقيقة مما يجوز فيه الاطلاق ، فان بينهم كثيرين اكتسبوا بتأثير التربية القويمة والعلم الصحيح ، منذ جلس محمد على على أريكة ولاية مصر ، من الآداب العالية ما جعلهم أهلا للاجلال والتوقير ، نخص منهم بالذكر جميع أفراد الاسرة المحمدية العلوية وأكابر رجال معيتها .

٣

الاقبـــــــاط

نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها فى حالة الاقباط — طباع الاقباط وأخلاقهم — عقيدتهم الدينية — كنائسهم — حجهم الى بيت المقدس — اكليروسهم — الزواج وتشييع الجنازات — صناعات الاقباط وحرفهم .

٢١ — نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها فى حالة الاقباط

الاقبـــاط أقدم سكان القطر المصرى والاختلاف طفيف بينهم والعرب الذين يعيشون ، منذ الفتح الاسلامى ، مختلطين بهم . واغلب هؤلاء العرب سلالة المصريين الذين اعتنقوا الدين الاسلامى، على تعاقب الاجيال .ولقد تأثرت طباع الاقباط بما ظلوا يعانونه من الاضطهاد والظلم مدة اثنى عشر قرنا . وغنى عن البيـــان انهم ، حينما نادوا بالمسلمين لاستنقاذهم من ربقة الحكم اليونانى والتنكيل بدولة الروم لما بينها والمصريين من الاختلافات الدينية، كانوا بحيث لا يقدرون عواقب هذه الخيانة المخزية وسوء تأثيرها فى مستقبلهم . فلقد ظنوا أنهم يحصلون بمعاهدة يبرمونها معهم، على كثير من الضمانات والحقوق والمزايا . ولكن ما كاد فاتحـو مصر يستولون عليها ويستتب لهم الامر فيها حتى نقضوا عهدهم وأخلفوا مع الاقباط وعدهم وابهظوا عـواهنهم بغير مضاعف من السياسة والدين . فكان ما حاق بهم من ذلك ، جزاء ايثارهم اعداء المسيحية على أبناء دينهم ، من أروام القســــطنطينية ، فى تولى أمورهم .

٢٣ — طباعهم وأخـلاقهم

طباع الاقباط وأخلاقهم ليست مما يستهوى الاوربيـين الى محبتهم والعطف عليهم . فانك تراهم فى وجوم دائم واكتئـــاب ملازم ، كأن الحزن لا ينفك عنهم . وسبب ظهورهم فى هـــذا المظهر الشدة المرعية فى تربيتهم والطرائق والاساليب المتبعة فى قيامهم بفروض دينهم .

والاقبـــاط يمتازون بأهلية خاصـــة للقيام بأعمال الحساب على أنواعها ومسك الدفاتر . وهذا هو السبب الذى جعـــل

المماليك ، وهم أولئك الفرسان الشجعان الذين لا يقــدرون من العلوم والفنون الا ما تعلق منها بالحرب وحمل السلاح ، يتخذون من الاقباط القومة على ادارة شئونهم المنزلية ، خصــوصا وأنهم من أصحاب الدراية ببعض المعلومات .

وقد نجم عن تولى الاقباط بعض المناصب الادارية ، لمــا اضطرت الحاجة المماليك الى التنازل لهم عنها ، أن توافــرت لديهم الوسائل للاخذ بالثأر من جراء ما لحق بهم من المظـــالم والاضــطهادات على يد المتســلطين . فانه لمــا عهــدت اليهم مساحة الارض وادارة الاموال رأوا من استنامة الرؤســاء اليهم واعتمـــاد أرباب الامــوال عليهم خــير فرصـــة لاعتبـــارهم أنفسهم أصحاب مصر الشرعيين وسادتها الحقيقيين ، ونظرهم الى المسلمين بوصف كونهم الفاتحين الغاصبين . فكأنى بأولئك المسيحيين قد نسوا كلمة اليسوع : « رد الى قيصر ما لقيصر » .

٢٣ — ملابســـهم

يلبس الاقباط مثل ما يلبسه المسلمون من الثياب ، وانما يفضلون منها ما كان قاتم اللون . واذا كانوا من سكان المدن ، آثــروا من الثياب ما يكون أسود اللون أو أزرقه أو رماديه ، ذريعــة الى التمييز بينهم والمسلمين . وجعلوا عمائمهم بأحــد هــذه الوان . أما نساؤهم فيتنقبن حتى لا يرى شيء من وجوههن سواء خــارج منازلهم أم داخلها ، وفى حضرة أقرب الناس اليهن .

٢٤ — ايمانهم الدينى .

الاقباط شديدو التمسك بعقيدتهم ، ولهم فى أداء فروضـــها أساليب فى الغاية القصوى من الشدة والصرامة . فمن ذلك أنهم

يقومون بالصيام مراعين فى اداء فرضه منتهى الصلابة والدقة والصوم عندهم صومان يسبق أحدهما عيد الفصح بأسبوع ويسمى صوم (يونان) ومدته ثلاثة أيام وصيامه تذكار لصوم نينوى الذى سببه نبوءة النبى يونس . وأكثر الاقباط تشددا فى رعاية هذا الصوم يمسكون عن كل طعام مدة الثلاثة الايام ولياليها . أما الثانى فيسمى عندهم بالصوم الكبير وكان فى الزمن السابق ، لا تزيد مدته على أربعين يوما . ولكن اقطاب الدين زادوا فيه زيادات متوالية حتى أبلغوه الى خمسة وخمسين يوما . وهم فى هذه المدة يمسكون عن تعاطى الاطعمة الحيوانية الاصل ومنها اللبن والبيض والزبدة والجبن ، ويقتصرون فى القوت على النباتات والبقول . ويحتفلون بـ « قبل المجيء » اى مدة التجهز لعيد الميلاد والاربعة الآحاد السابقة عليه . وهناك صوم آخر يدعونه صوم الرسل وهو يشمل المدة بين عيد الصعود والخامس من شهر أبيب . ويقومون أيضا بالصوم الذى قام به الرسل بعد موت المسيح .

وهناك صوم غير ما تقدم يسمونه صوم العذراء ويقع فى الثلاثة أيام السابقة على عيد صعود العذراء ، وصوم يومى الجمعة والسبت من كل أسبوع وما يقع من هذين اليومين فى غضون الخمسين يوما الفاصلة بين عيد الفصح وعيد العنصرة أى « حلول روح القدس على التلاميذ » . أما الاعياد الكثيرة التى يقيمونها بهذه المناسبات فأضرب عن ذكرها صفحا دفعا للتطويل .

٢٥ — كنائسهم

سبق لنا القول فى الجزء الاول بأن للاقباط عددا عظيما من الكنائس والاديرة . ولنذكر الآن أن الكنائس عندهم تنقسم

عادة الى اربعة اقسام أو خمسة : القسم الاعلى أو الفـــوقى والهيكل ويحتوى المذبح وهذا القسم ينفصل عن بقية الكنيســـة بحاجز من الخشب يتوسطه باب ينسدل عليه ستار رسم فوقه صليب كبير والقسم الذى يلى هذا الحاجز خاص بالقساوســـة والشمامسة والمرتلين وكبار أعضاء الطائفة . وهذا القسم أيضا يفصله عن الاقسام التالية المخصصة لعامة المصلين حاجـز من الخشب . وأرض الكنيسة تفرش عادة بحصير السمار وعــلى الجدران صور غليظة تمثل القديسين وعلى الاخص القديس الذى نسبت اليه الكنيسة . اما التماثيل فممنوعة من الكنائس القبطية.

وعادة الاقباط عند دخولهم الكنيسة أن ينزعوا الاحـــذية كالمسلمين اذا غشوا مساجدهم ، حتى لا تتلوث الارض بلوثها .

٢٦ ـ الحج الى بيت المقدس

من جوامع الشـــبه بين الاقباط ومواطنيهم المسلمين ، اهتمامهم بالحج الى بيت المقدس . والمسيحيون الوطنيون من أهل الممالك العثمانية يقتدون بالمسلمين فى الطمــوح الى التحلى بلقب (الحاج) فتراهم يتهافتون على زيارة الاماكن المقدسة ، ويرون فى هذه الزيارة فضلا كبيرا ومزية عظمى . وهم يؤلفون القــوافل العديدة لهذا الغرض ويسيرون بحيث يدركون المدينة المقدســة فى أسبوع الصلبوت « الآلام » وأعياد الفصح . وعقب الاسبوع المقدس بثلاثة أيام يقصدون نهر الاردن للاستحمام بمياهه .

٢٧ — الاكليروس القبطى

يقوم بالخدمة الدينية فى الكنائس القبطية الرهبان والشمامسة الانجيليون والكهنة ورؤساء الكهنة والاساقفة الذين يخضعون لسلطة أحد البطارقة . ولا يجوز عند الاقباط أن يترشح أحدهم للانتظام فى سلك الاكليروس الا اذا كان متزوجا . فاذا وافته المنية وهو قائم بوظيفته الكهنوتية . فالواجب أن تقضى أرملته بقية حياتها فى العزوبة . وكذا الحال بالنسبة له اذا توفيت زوجته ، فانه لا يجوز له أن يتزوج مرة أخرى . ويشترط فى قبوله بالاكليروس أن يكون خاليا من العيوب الجثمانية وأن لا يقل عمره عن ثلاثة وثلاثين عاما . وعليه أن يعيش من ثمار الحرفة التى يحترفها ، ويتلقى الصفة الكهنوتية المقدسة اما من يد البطريق واما من يد أحد الاساقفة .

اما الرهبان فتحتم عليهم العزوبة ويتتلمذون قبل قبولهم ليمتحنوا فى الصبر والتقوى ، وذلك بأن يرسلوا الى أحد الاديرة الواقعة فى وسط الصحراء ويستخدموا فى الاعمال الحقيرة المزرية فاذا ظلوا بعد هذه التجربة مصرين على عزيمتهم ، قبل اندراجهم فى سلك الكهنوت ، وتقرأ عليهم صلوات الموتى فى حفلة تكريسهم لتمثيل موت الانسان وفنائه فى الحياة الدنيا . والرهبان كثيرو العدد جدا ويعيشون عيشة أساسها الزهد والتقشف ، فلا يحملون من الثياب الا الصوف ، ويميزون عن غيرهم بشريط من الصوف الازرق سابل حول القلنسوة .

وللاقباط فى القطر المصرى اثنى عشر أسقفا ينتخبون عادة من

بين الرهبان أو القساوسة العزب ، ويظلون طول مدة أسقفيتهم محافظين على الاساليب الصارمة لمعيشة الرهبان .

اما البطريق فهو رئيس الكنيسة الجالس على كرسى مار مرقص الذى يقول الاقباط انه تولى تحويل المصريين من عقيدتهم الاولى الى الديانة المسيحية . ويلقبونه ببطريرك الاسكندرية ، وأن يكن مقيما بالقاهرة . وينتخب عادة من رهبان دير مار انطونيوس القريب من البحر الاحمر . ويجوز أن يكون تعيين البطريرك بمعرفة سلفه ولكن القاعدة المرعية بوجه عام فى اختياره، أن يكون بواسطة الاقتراع .

وطريقة ذلك أنه اذا خلا الكرسى المرقصى انتخب رئيس دير مار أنطونيوس عشرة رهبان أو اثنى عشر راهبا من المعروفين بالنسك والزهد والاهلية لحلول ذلك المركز السامى ، ويكتب أسماءهم فى قطع صغيرة من الورق يلقيها فى كيس بعد أن يجعلها فى شكل الانابيب . ثم تخلط الاوراق بعضها ببعض خلطا جيدا ، ويدخل أحد القساوسة يده فى الكيس ويأخذ ورقة منها ، فالذى يوجد أسمه مكتوبا فيها ينصب بطريكا ويعهد اليه الكرسى البطريكى . وينبغى أن تكون عمامته أكبر من عمامة أهل ملته أجمعين ، وأن يلبس من الملابس افخرها . على أنه يبقى خاضعا لقواعد نظامية فى غاية الصرامة والشدة منها أنه لا ينام الا اذا اوقظ مرة فى كل ربع ساعة وللبطاركة تأثير كبير فى الامة القبطية وسلطتهم محترمة منها وهى ترجع اليهم غالبا فى حسم منازعاتها وحل مشكلاتها .

٢٨ ــ الزواج وتشييع الجنازات.

يحصر الاقباط الزواج فى دائرتهم بحيث لا يتعدى قط أفقها ، فهو بينهم وأهل الديانات الاخرى محرم قطعا . ويحتفلون به على

الطريقة التى يتبعها المسلمون . وعندهم أن من بواعث العـــار والخزى أن تكون المرأة مصابة بالعقم .

أما الجنازات فليس فيها ما يستوقف النظر وغاية الامر انهم، كالمسلمين ، يستأجرون فيها المعددات والندابات . والمرأة التىتوفى زوجها تحمل الحداد عاما بخلافه اذا توفيت زوجته ، فانه يحمل حدادها نصف هذه المدة . والزوج الذى يعيش بعد وفاة زوجته لا يجوز له التزوج ثانيا خلال مدة الحداد .

١٩ ــ صناعات الاقباط وحرفهم

للاقباط مدارس كثيرة ، ولكنها مقتصرة على الاطفال فالنساء اللاتى يعرفن القراءة والكتــــابة قليلات العدد جدا فى الطائفـــة القبطية : والدروس التى تعلم للاولاد فى هذه المدارس هى مزامير داوود (الزبور) والاناجيل ورسائل الرسل . ويتكلم الاقبــــاط باللغة العربية وبها يتفاهمون . أما لغة أجدادهم فلا يدرون منها شيئا ، خصوصا فى الوجه البحرى . ولا يزال الكثيرون منهم ، كما كانوا فى عهد المماليك ، يشغلون وظائف الادارة والمســاحة وجباية الاموال . أما فى المدن فيباشرون الحرف المختلفة ، وفى القاهرة يزاولون الصياغة والتطريز ، وفى مديرية منوف يصنعون حصر السمار ، وفى مديرية الفيوم يستقطرون ماء الورد ، وفى أسيوط ينسجون الكتان .ويزاولون فيما عدا هذه الصنائعمايزاوله بقية المصريين من اعمالالزراعة وما يرتبط بها .

٤

اليهود والارمن واليونان والسوريون

الفقر الظاهرى لليهود ــ أخلاقهم ــ بغض المسلمين لليهود واحتقارهم اياهم ــ يهود دمشق ــ الصناعات التى يمارســـها اليهود ــ الارمن ــ اليونان ــ السوريون .

٣٠ — الفقر الظاهرى لليهود

يسكن السواد الاعظم من يهود القطر المصرى مدينة القاهرة. ولهم فيها حى خاص بهم ضيق الطرقات مظلمها قذر بلوث الوساخات المختلفة . وله أبواب خاصة يغلق بها فيحبس اليهود انفسهم فيه ، كلما ارادوا ذلك ، ليكونوا فى معزل عن بقية سكان المدينة . ومنازلهم متلاحمة متراكمة الى بعضها ، رديئة التقسيم زرية الشكل . واختلاف يهود مصر عن بقية سكانها من حيث السحنة والملامح ، أقل منه فى أوروبا بينهم والاقوام التى يساكنونها . ومن عاداتهم لبس الثياب الرثة والاطمار البالية ، وقد جبلوا على هذه العادة الى درجة يخيل للناظر منها أنهم يزدهون بما هم متمرغون فيه من ذل الفاقة والمتربة . أما وجوههم فشاحبة اللون ، والمجمع عليه أن هذا العارض المرضى فيهم سببه الافراط من أكل زيت السمسم المعروف بالسيرج أو الشيرج .

٣١ — أخلاقهم

تلاقت فى يهود الشرق الادنى الطباع والغرائز التى جعلتهم ، فى القرون الوسطى مبغضين فى أوربا وممقوتين من الناس طرا . وهم ما برحوا الى اليوم على ما فطروا عليه من الجشع والشح، اذ تراهم يجتهدون فى ستر ما لديهم من الثروة عن الانظار ، بصنعهم مظاهر الفقر والفاقة . والغالب على اليهود الجهل مع التدين ، والتشيع للدين تشيعا يزيده حدة توالى وقوع المظالم والاضطهاد من كل نوع عليهم حتى فى أيامنا هذه .

ورغم ذلك فانهم يمتازون بالنشاط والملاينةوالمداهنةومعالجة الصناعات المختلفة . ولا يترفعون عن الوسائل أيا كانت ما دامت تكفل لهم الربح ، قل أو كثر . أما اخلاقهم وعاداتهم فمبنية

على الشدة والصرامة ، لذلك كانت بعيدة عن مظنـــة الدنس والشـــوب .

ونساء اليهود تتحجبن كالمسلمات والقبطيات تحجبـا تاما . ولا سبيل الى اتهامهن بما تتهم به المرأة التى تفرط فى عفتها مع الرجل ولا تساومه على شرفها .

٣٢ — بغض المسلمين لليهود واحتقارهم لهم

المسلمون من أكثر أهل الديانات الاخرى بغضا واحتقـــارا لليهود . ويرجع ذلك الى ما وقر فى نفوسهم من أن اليهود أكثر حقدا على الاسلام وكراهة له. فقد ورد فى القرآن (المائدة) : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركـوا ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون » .

ومن عادة المسلمين اذا حدثوا عن عدو لدودلهم ، قالوا : « انه يبغضنى بغض اليهود للمسلمين » . وكثيرا ما كان يحدث ، فى القرن الاخير ، أن يساق اليهودى ليذوق الموت بمجرد توجيه التهمة اليه ، صدقا أو كذبا ، بأنه طعن فى القرآن وفاه فى حقه بكلمات تشف عن عدم الاحترام . فليس من الغريب اذا أن تجتمع فى طائفة اليهود الشرقيين ، وقد نزل بهم من الحيف والظـــلم ما سبقت لنا الاشارة اليه ، العيوب والنقائص الباعثة عـــلى احتقارهم وكراهة الناس لهم .

٣٣ — يهود دمشق

ولقد شملهم سمو الوالى الآن بنعمة تسامحه وكرمه ، كما فعل مع أهل الديانات الاخرى . فهم يتمتعون الآن فى ظـــلال

حكومة محمد على ، بأكثر مما يتمتع به أهل ملتهم من الحرية الصحيحة والحماية الفعلية ، فى سائر أجزاء السلطنة العثمانية. ومن الدلائل البينة والبراهين الساطعة على ما لقيه اليهود من العناية والرعاية فى عهد محمد على ، حادثة يهود دمشق ، وهى الحادثة التعسة التى دوى رنينها فى أصقاع أوربا كافة .ولسامع هذا القول أن يعرب عن دهشته واستغرابه ويجنح الى عدم التصديق به ، ولكننى أقول لمن لا يؤمن بقولى ان مدينة دمشق تأصلت فيها جذور التعصب للدين وفشت الضراوة بمخالفيه . فلو أن تهمة كالتى وجهت الى اليهود من أهلها بحق أو بغير حق، وجهت قبل فتح البلاد السورية بالجنود المصرية ، لأفضت بلا ريب الى انزال النقمة بالامة الاسرائيلية فيها وتسلط الناس عليها بالتخريب المتلف .

ولنفرض أن مدينة دمشق الآن فى قبضة وال كأحمد باشا الجزار أو عبد الله باشا أو غيرهما ممن لا يكترثون بحياة الرعية، فانه ما كان من المأمول ، حتى مع طول التروى وامعان النظر فى القضية التى تورط اليوم فيها جملة من يهود الشام ، الوصول الى حلها حلا عادلا . أما الآن ، وقد أحاط الوالى هذه القضية بجميع الضمانات الكفيلة بالعدل وعدم التحيز وأصبحت ادارته الحكيمة فى بلاد الشام بعيدة عن مزالق الانتقاد ، فقد أقام الدليل الساطع على انه يعمل بمحض الميل لخير الانسانية .

٣٤ — الصناعات التى يمارسها اليهود

يعالج اليهود من الصناعات ما يتطلب أداؤها أكثر ما يكون من النشاط والحركة ، وتكون أرباحها محفوفة بالمصاعب والاخطار . فأغنياؤهم يسلفون النقود بالربا الفاحش ، وغيرهم يزاولون بيع الامتعة القديمة أو يتداخلون بين الباعة والمشترين

لاداء مهمة السمسرة ، أو يحترفون بالصاغة الخ . ومن اليهود فريق كبير يعانون الفقر ولا يعيشون الا من الصدقات التى يتبرع لهم ذوو اليسر من أبناء دينهم .

٣٥ — الارمن

الارمن قليلو العدد فى مصر ، والاسر المقيمة بها الآن هاجرت اليها مع الفاتحين العثمانيين . ولسنا بحاجة الى ذكـــر التأثير العظيم الذى نتج عن مداخلة الارمن ، وهم على ما هو معـــروف من اقتدارهم ونفوذهم بالاستانة ، فى أعمال الحكومة العثمانية ؛ وكيف استطاعوا بما احتازوه من الثروة وقدموه من الخدم المأجورة للباشوات ، التسلط على ادارة الاقاليم . والباحث فى أحـــوال بلاد الدولة العلية يخيل له أن السلطنة العثمانية أصبحت بـــين الاتراك والارمن ، ملكا مشاعا استقل هؤلاء بالنصف من خيراتها. ومن عادتهم التى درجوا عليها أن يتعقبوا العثمانيين فى تنقلاتهم من بلد الى آخر فوصلوا بهذه الوسيلة الى مصر واستوطنوها.

وليس للارمن فى القاهرة حى خاص بهم . وقد درجوا عـــلى أن ينظروا الى الوطنيين بالعين التى ينظر الاتراك اليهم بها ، فهم يعاملونهم بالعجرفة والصلف ويبرزون لهم فى مظاهر الكبـــرياء والسمو ، ويبلغ من أمرهم فى ذلك أنهم يتحاشون مخالطتهم ويتقون لقاءهم . والغالب عليهم اليسر وسعة الحال ، لانهم يعالجـــون صنوف التجارة ويشتغلون باستثمار الاموال . والعظماء الاذكياء منهم هم الصرافون ، كما أن أغلبهم يتجرون بالجواهر وصـــنع الثياب وكراكى السمور وشغل الحديد . ويبدون الكثـــير من النشاط والهمة والاهلية فى أداء هذه الاعمال التى زاولوها مزاولة تعلم وتدرب منذ نعومة أظفارهم .

٣٦ — اليـــونان

فى مصر طبقتان مختلفتان من الاغريق لم تختلطـــا حتى الآن ببعضهما . الطبقة الاولى منهما ســـلالة الاغريق الذين كانوا يسكنون القطر المصرى قبل الفتح الاسلامى ، وقد احتفظ هؤلاء بشىء كثير من السمات المميزة لاصلهم . ولا يتكلمون اليـــونانية وانما لغتهم العربية ، ويزاولون من الصناعات النجارة والتطريز ويتجرون بالقطاعى فى كل شىء . اما الطبقـــة الاخرى فتشمل اليونان الذين هاجروا الى مصر منذ فتحها العثمانيون وجميعهم تقريبا يشتغلون بالتجارة .

ويقطن اليونانيون فى القاهرة حيين متباعدين : الحى الاول سمى أرض الروم (لعلها حارة الروم) ، والآخر الحى المعــــروف بالجوانية . وهناك طائفة منهم تسكن مصر العتيقة ، وسوادهم الاعظم على المذهب اليونانى المبتدع . ولهم ثلاثة معاهد دينيـــة كبرى وهى : كنيسة مار نيقـــولاس التى يباشر شئونها بطريرك الاروام ، ودير القديسة كاترينه فى الجوانية ، ودير مار جرجس فى مصر العتيقة . وهذا الدير موضع احترام الاروام وتبجيلهــم وهو عبارة عن قصر حصـــين يتعذر الولوج فيه من مدخله وفيـــه كنيسة يصعد اليها بسلم ضيق مركب فى جدار سميك جدا . وفى الكنيسة برج مرتفع يشرف الواقف بأعلاه على الاراضى الخلوية المحيطة به . وقد اعتاد المسلمون والمسيحيون الذهاب بالمعتوهين والمجانين الى هذا الدير لالتماس الشفاء لهم من القديس الــذى أطلق اسمه عليه .

هذا وقد أسر عدد من الشبان اليونانيين خلال الحرب فى شبه جزيرة موره . فلما جىء بهم الى مصر بيعوا بيع الارقاء ثم

اعتنقوا الديانة الاسلامية فتوصل بعضهم بذلك الى أسمى المناصب فى الادارة والجيش .

٣٧ — السوريون

بدأ السوريون بالهجرة الى مصر منذ قرن تقريبا ، وكانت تدعوهم اليها الروابط العديدة التى تربط بلادهم بالقطر المصرى. ولقد عالجوا فيه التجارة فلم يلبثوا أن أحرزوا منها الثروة الواسعة ، ولا يزال أعقابهم يسيرون على النهج الذى سلكه أجدادهم فآباؤهم .

والسوريون كاثوليكيون على المذهب اليونانى ، وقد حاول بطاركة المذهب المبتدع استدراجهم الى الاندماج فى طائفتهم ، واتخذوا التدابير المختلفة لحملهم على ذلك . فلكى يوقوا أنفسهم عاقبة اضطهادهم تعهدوا بأن يدفعوا اليهم فى كل سنة اتاوة من المال قدرها ثلاثة آلاف قرش .

وبالقاهرة نحو ثلاثة آلاف مسيحى من أهل سوريا وخمسمائة الى ستمائة بدمياط ، ومائتان الى ثلاثمائة بالاسكندرية ورشيد . ويحرصون على جنسهم من اختلاط الانساب وتداخل الشعوب فبقيت عاداتهم وأخلاقهم مصونة لهذا السبب وبعيدة عن شوب الالتحام بالعناصر الغريبة .

٥

الحالة السياسية للرعية

٣٨ — يطلقون اسم « الرعية » على الاهالى الوطنيين الذين لا يدينون بالاسلام . والرعية فى تركية أوروبا شطر الامة الاكبر،

أما فى مصر فلا يتجاوز عددهم مائتين وخمسين الفا من الانفس .
وهو ما يؤخذ منه أن حالتهم السياسية فى القطر المصرى لا تؤثر تأثيرا كبيرا فى أعمال الحكومة ، حاضرة أو مستقبلة ، كما هــو الشأن فى بقية بلاد الدولة العثمانية .

ومما يلفت نظر الباحث ويستدعى دهشته طابع التطـــور الذى رسم به الاتراك كل شىء فى أنظمتهم السياسية . ولقد مضى زمن طويل قيل فيه أن الاتراك لا عمل لهم الا التنقل بخيلهم ورجلهم فى تسبيح أملاكهم ولكننا رأينا ، أثناء الكلام على عادات المسلمين وأخلاقهم ، أن هذا القول لا يزال صحيحا فى مدلوله الخاص به .

فان العثمانيين لم يلقحوا المملكة التى أسسوها بشىء من عنصر البقاء ولقاح الحياة بل تركوا للمصادفة العمياء أو لحكم القـــوة والجبروت تدبير أنظمتهم الادارية والعســكرية ، اذا صح أن نسمى بهذا الاسم النظام الفظ الغليظ الذى تخبطوا فى وضعه تخبط من به مس . فانهم لم يدركوا قط أن الاستقرار فى البلاد المفتـــوحة حديثا لا يستدعى احتلال أراضيها فقط ، بل أيضا افناء سكانها فى ذواتهم بما يتفرغون لتحقيقه من مزج الاديان والانظمة والاجنـــاس بعضها ببعض . ولقد تحول البرابرة المتوحشون الذين أغـــاروا على أوربا ، ابان سقوط الدولة الرومانية ، عن عقيدتهم الدينية ليعتنقوا عقيدة الامم المغلوبة بهم ، ويتخذوا دينها دينـــا لهم ، وجعلوا قوانينها شريعة لهم ولغتها اللغة التى يتفاهمون بهـــا .
ومن هذا الاختلاط الذى بث فيه احتضان الزمن له روح الحيـــاة تولد ، مع حالتنا الاجتماعية الحاضرة ، ما هو مشاهد من آثار التقدمات الحديثة فى الامم الاوروبية جميعا .

أما العثمانيون فقد ساروا ، بالنظر الى ازدهائهم برفعـــة عقيدتهم وسموها على سائر العقائد ، على عكس الخطة المتقدمة

فلم يمنحوا المغلوبين ميزة ولا اتحفوهم بعطاء ، بل أقصوهم عنهم وعوملوا بالقهر وسيموا بالمذلة فلم يتوافر فى المملكة العثمانية ، لهذا الباعث ، اتحاد أو امتزاج ما بين عنصر القوة والنشاط الحيوى اللذين يحملهما الفاتحون الى المغلوبين كوثيقة تتضمن وعودهم للمستقبل ، وعنصر المدنية الذى هو تراث الماضى مصونا بيد المغلوبين . ولم يتم فى تركيا ما تم بأوروبا فى القرون الوسطى من تلقيح الجسم الذى أخذت تتلاشى حياته ، بدم جديد كريم توافر فيه ما يحتاجه هذا الجسم الآيل الى الفناء من عناصر القوة والتجديد . وكل ما حصل هناك تراكم العنصر المتوحش المتمرغ فى خيلاء جهله تراكما عقيما على أنقاض هيئة اجتماعية ألقاها الانحطاط فى هاوية الانقراض والفناء أجيالا متعاقبة .

قامت الدولة العثمانية على هذا الاساس فأوصدت فى وجه نفسها كل باب للتقدم والنجاح ، ولم تحصل من الزمن على ضمان بالبقاء ، اذ كانت مؤلفة من أمتين احداهما واقفة حيال الاخرى ومتصلة بها اتصالا لا انقطاع له ، مع تناقض مصالحهما وتعاكس أخلاقهما وتباين عاداتهما وانفراج أفكارهما وخواطرهما وشعور كلاهما للاخرى فى نفسها بالازدراء والبغضاء .

فلم يكن يوجد فى أفق السلطنة العثمانية أمة واحدة بل امتان لاحداهما على الاخرى التفوق فى العدد ، وان لم تكون قابضة على ناصية الشوكة والحكم فى الحال والحقيقة التى لا ريب فيها أن وحدة الامة شرط أساسى لا مفر منه لشباب الدول وحياتها ولا مستقبل لها من غيره .

ومما أدهش ذوى العقول الراجحة ما يمكن أن يفضى اليه من النتائج انقسام شعوب تركيا الى شطرين كبيرين فقد قال أوركارت فى كتابه الموسوم (تركيا ووسائلها) : « ان للرعية من المكانة

والشوكة ما تستطيع به تعطيل اصلاح الدولة العثمانية واعادتها الى نشأتها الاولى » .

وليلاحظ ما هنالك من الفرق المشهود ، من هذه الوجهة ، بين مصر وبقية أملاك الدولة العثمانية . فان مصر لا تخشى تفشى المنازعات الداخلية فيها ، وكل ما تخشـــاه أن ترى النصف من سكانها يستصرخون بالاجانب ويدعونهم الى قلب النصف الآخــر والتحكم فى أهله بالغلبة والقهر . ولنفرض جدلا أن هنـــــاك أسبابا لتقليل التهم التى يوجهها خصوم مصر الى حالتها الحاضرة. ولكننى أود أن يعترف هؤلاء الخصوم بأنها جزء من أملاك الدولة العلية مخالف بالمرة لسائر الاجزاء ، بتوافر الدلائل الراجحة فيه عـــلى حسن مستقبله ، لتحقق معنى الوحـــدة الجنســـية فيه بحـــذافيرها .

والرعية التابعون للدولة العثمانية لا يساهمون المســـلمين فيما هو مفروض عليهم من الكلف والرسوم ، ولا فيما هو ممنوح لهم من المزايا والخصائص فى السياسة . فمن ذلك أنهم غـــير مطالبين بالتجند للدفاع عن حوزة الوطن ، غير أنهم محرومون ازاء ذلك ، من مساواتهم فى الحقوق المدنية ، فضـــلا عن أدائهم الى الخزينة ضرائب خاصة بهم الخ . فالتقريب بين الرعية والمسلمين بازالة الفوارق القائمة بينهما ومساواة أحدهما بالآخر فى الحقوق هما الغرضان اللذان يجب أن ترمى اليهما ، فى تركيا ، كل سياسة رشيدة تتمنى من قلب سليم تجديد الدولة العثمانية واعادتهـــا سيرتها الاولى ، والظاهر أن الى هـــذه النتيجة تشرئب أعنـــاق مستشارى السلطان ، وفى طليعتهم رشيد باشا المتـــاز عليهم جميعا بصراحة الافكار وحريتها وصدق الميول الى ناحية الخير . وأتمنى من صميم فؤادى أن يوفق لتنفيذ المشاريع الــكريمة التى تضمنها الخط الشريف (خط كلخانه) الذى صدر أخيرا .

واذا أتيح لى أن أزجى الى سمو والى مصر رأيا فانما أول ما أشير به عليه اقامة المساواة فى الحقوق المدنية بين المسلمين ورعاياه المسيحيين (الرعية) . وبدهى أن هذا العمل لا يكبده من الصعوبة والحيرة ما يكبد الباب العالى منهما ، لان الرعية فى حكومته أقل نفرا وأضعف شوكة منهم فى بلاد الدولة العلية . فاذا سعى سعيه فى هذا السبيل ، عاد سعيه بالنفع الجزيل والخير الوفير على اعتبار ان هذا العمل لم يكن الا تجربة ضيقة النطاق ، فاذا افلح ، وهو المرجو ، هيأت هذه التجربة سائر بلاد الدولة العثمانية لثورة يكون من صالح هذه البلاد أن تتقلب فى أطوارها على عجل حتى تستقصيها كلها . وفى هذه الحالة يكون بامكان محمد على البدء بتنفيذ وسيلة من وسائل التقدم والاصلاح التى يعد العمل بمقتضاها فاتحة خير للحكومة العثمانية نفسها . فاذا أتم ذلك بمعرفته فانما يتم عملا بدأ به ، فقد رأينا أنه قام بأعمال كثيرة لتحرير الرعية من ربقة الاستعباد بقبولهم فى المناصب الكبرى الادارية واختيار المحافظين والمديرين منهم .

٦

الفـــــرنجة

القناصل — التجار — الصنائع — مستخدمو الحكومة — أخلاق الافرنج وطباعهم — المسافرون والرحالة — شعور المسافرين — ما يستحقونه من اللوم — نصائح .

فى جميع بلدان الشرق ، يطلق اسم الفرنجة أو الافرنج على جميع الرعايا التابعين للشعوب المسيحية وجميع الذين يحملون الثياب الاوروبية . وقد رأينا ، فى غضون الكلام على سكان القطر المصرى ، أن عدد الافرنج فيه ستة آلاف نسمة تقريبا .

ومن هؤلاء السكان تتألف عدة طبقات تختلف عن بعضها . وسأتناولها كلها بالبحث طبقة تلو طبقة .

٣٩ ـ القناصل

الطبقة الاولى جماعة القناصل والقنشلرية والاعوان المرتبطون بالقنصليات على اختلافهم . وأهل هذه الطبقة حائزون على احترام الوطنيين وتوقيرهم .

وفى مصر قناصل جنرالية يقيمون بالاسكندرية . والدول الاوروبية التى ينوبون عنها هى فرنسا والروسيا والنمسا وانكلترا وبروسيا وأسبانيا والسويد وصقلية وسردينيا وهولانده وبلجيكا والدنمرك وتوسكانا .

والقائمون بتلك المناصب السياسية الكبيرة يعلقون على أبواب دورهم شارات حكوماتهم ويرفعون أعلامها خفاقة على أرفع نقطة منها .

أما القاهرة فالمباشرون لشئون الاجانب فيها وكلاء بدرجة (فيس قنصل) ، فى حين تتطلب أهمية هذه المدينة أن يكون بها لفرنسا قنصل من الدرجة الاولى لما يوجبه ارتفاع مرتبة الوكيل عن هذه الدولة فيها من احترام الوطنيين لها . فانهم لا يحترمون الحكومات الاجنبية ووكلاءها ، الا بقدر ما يكون لها من جلال المظهر وحسن الهيئة . وللدول السالفة الذكر وكلاء فى دمياط ورشيد والسويس وقنا والقصير تخترنهم عادة بين أهالى القطر الذين يدينون بالنصرانية :

وعلى القناصل فى بلاد الشرق أداء مهمة غير التى يقوم بها أمثالهم فى أوربا . فانه لما أبرمت الامتيازات المنظمة لعلاقاتنا

مع الدولة العثمانية ، كان الاختلاف بين أخلاق الاتراك وأنظمتهم وبينها عند الامم الاوروبية عظيما الى حد استدعى سن قوانين خاصة لمعاملة الافرنج بمقتضاها ، وتوسيع نطاق اختصاصات القناصل ، وجعلهم الرؤساء على أبناء وطنهم والمكلفين بالسهر على تنفيذ القوانين الصادرة من حكوماتهم والمتوطنين بحمايتهم ، على وجه يستدعى دوام رعايتهم أكثر مما لو كانوا فى اى بلد غير تلك البلاد . وسبب ذلك ان الاتراك ، لما فطروا عليه من التوحش والهمجية ،كانوا لا يكفون عن استعبادهم بوسائل بالقهر والاذلال، فكان التصدى لدفع هذا البلاء يقتضى من القناصل همة لا تنى ويقظة لا تنقطع ، فكان فرضا محتوما أن تحتفظ قنصليات الدول الاوربية فى الشرق بمثل تلك الصبغة الخاصة، الى ان تصبح الاخلاق والانظمة فى الدولة العثمانية متفقة مع نظائرها فى الديار الغربية .

ويمتاز القناصل الجنراليون للدول فى الاسكندرية ، على زملائهم فى سائر بلاد الشرق الادنى ، ويسمون عليهم فى رفعة القدر . لان الدرجة التى بلغت مصر اليها فى العالم السياسى ، منذ قبض محمد على على زمام شئونها ، افضت بحكم التبعية الى رفع القنصل الجنرال لدولة عظمى لدى حكومة الوالى الى مكانة تتناسب مع مركزه الذى أصبح أرفع شأنا واعظم حظوة مما كان. ومن الحقائق الثابتة أن قناصل فرنسا وانكلترا والروسيا والنمسا الجنراليين يؤدون وظيفة السفراء ، لانهم لا يقتصرون على حياطة المصالح التجارية أو المدنية الخاصة بأبناء وطنهم بما تستدعيه من وسائل الحماية والرعاية بل يتصلون بسمو الوالى اتصالا مستمرا ليرفعوا اليه بلاغات حكوماتهم ويعالجوا معه المسائل السياسية البالغة أقصى حد من الخطورة والصعوبة . فالشأن الخاص الذى صار للقنصل الجنرال فى الاسكندرية منذ بضع سنوات يتطلب اذا تحويل هذا المنصب الى مركز سياسى بحت بان تعهد مصالحنا السياسية فى القطر المصرى الى معتمد سياسى .

ولكل من انكلترا والروسيا وكيل خاص عهد اليه النظر فى الشئون السياسية . فخليق بالدولة الفرنسية أن ترتفع الى مستوى هاتين الدولتين لا سيما وأن اهتمامها المتواصل بشئون مصر وتاييدها محمد على فيما يبذله من الجهود الجليلة لمما يدل دلالة واضحة على أنها بانابتها أحد المعتمدين السياسيين عنها فى القطر المصرى تريد أن يرى الملأ فيه واليا عظيما لا باشا من مطلق الباشوات الكثيرين .

ثم انه لمن الواجب على فرنسا الاقتداء بانكلترا فى الفصل بين الاختصاصات السياسية والاختصاصات التجارية فى منصب القنصل الجنرال ، وذلك بأن تعهد الاختصاصات الاخيرة الى قنصل خاص بها . وغير خاف ما للشئون التجارية من الاهمية العظمى ، فاذا اعتبرنا الاحوال الحاضرة فان القنصل الجنرال الذى يكلف بالنظر فيها سيكون العمل لديه كثيرا والمشاغل عظيمة بالنسبة الى اضطراره من جهة أخرى للنظر فى شئون القنصليات التابعة له بالقطرين المصرى والسورى . فاذا ظل قائما معها بالشئون السياسية كان ذلك ضغثا على ابالة .

يتولى القنصل الجنرال أمور الجالية من أبناء وطنه المقيمين بدائرة سلطته وهو يدبرها بمقتضى الاوامر والقوانين المعمول بها فى كل الشرق ، ويصدر أحكامه بمساعدة نواب الامة المنتخبين من الاعيان فى القضايا المدنية والجنائية ، ويبرز فى الجمهور بالزى الخاص بمنصبه يحف به النواب المنتخبون كلما اقتضت الظروف ذلك .

وللقنصل الجنرال ، فضلا عما تقدم ، الحق فى حماية جميع الاديرة الكائنة بالاراضى المقدسة . أما معاهد نشر الديانة المسيحية ، فحمايتها من حق القنصل وهى داخلة فى دائرة اختصاصه .

ومن المهم لرفع مقام قناصلنا فى المملكة العثمانية واعلاء شأنهم توفير ما ينبغى من الوسائل لقيامهم بالمهمة الموكولة اليهم ليكونوا أهلا للثقة التى وضعتها فيهم حكوماتهم . ومن المرغوب فيه أيضا تزويد السلطة القنصلية بالقوة الكافية ، وأن لا يستمح بوجه ما لاحد من أبناء وطننا التنصل من الطاعة لهذه السلطة أو امتهانها. والواجب على قناصلنا أن يكونوا بحيث يستطيعون المحافظة على النظام بين أفراد التبعة الفرنسية وتطهيرها ، ما دام النظر فى شئونها موكولا اليهم ، من أدران المحتالين والدساسين الذين لا ال لهم ولا ذمة ، الذين يلوثون سمعة أمتهم باغتنامهم فرصة طيبة الشعب المصرى واستنامته اليهم لابتزاز أمواله وانتحالهم ما ليس لهم من الالقاب والصفات للتغرير بهم . وواجب أيضا الزام السياح والمسافرين باحترام سلطة القنصل وتبجيل ذاته .

٤٠ — التجار بالجملة

الطبقة الثانية من الافرنج تتألف من كبار التجار . وهم يقيمون غالبا فى الاسكندرية وعددهم الآن اربعون ، يقيم بعضهم بالبلاد مع أسرهم منذ سنوات عديدة . ولا يتضمن عددهم طبعا التجار بالقطاعى ، انما ينبغى أن يضاف اليهم الوكلاء التجاريون الذين يقيمون بمنازل رؤسائهم التجار .

٤١ — المتسببون أو التجار بالقطاعى

الطبقة الثالثة منهم تتألف من التجار بالتجزئة وبالاسكندرية نحو مائة حانوت للتجار الاوربيين يباع فى بعضها القماش وفى البعض الآخر الزجاج أو الجواهر . والازياء الحديثة الخ . وجملة من هذه الحوانيت مملوءة بالبضائع على اختلاف أصنافها . أما

مخازن الأزياء المستحدثة فانها من استجماع أسباب النظام والكمال بحيث تستطيع ايقاف زبائنها على حركة الازياء المستحدثة بأوربا.

وتحتوى الاسكندرية ثمانية مطاعم أو عشرة للفرنسيين والانكليز والايطاليين على ما يرام من النظام ، وقهوات جميلة تقدم فيها الشيكولاتا على الطريقة الاوربية ، وفى فصل الصيف أنواع الجليد المحلى الذى يرد الثلج اللازم لتبريده من بلاد كرامانيا. وللفطاطرية الافرنج بالاسكندرية زبائن كثيرون يترددون عليهم وهم يربحون ربحا لا بأس به . وفى القاهرة مطاعم عديدة على الطراز الاوروبى .

٤٢ ـ ارباب الصنائع والحرف

اما طبقة الصناع فتتألف من النجارين والبنائين وصانعى الاقفال والكوالين والسمكرية والنحاسين وصانعى المركبات والصياغ والجوهرية والساعاتية وصانعى الاحذية والقبعات والخياطين وأصحاب الازياء الحديثة للسيدات .

٤٣ ـ موظفو الحكومة

تتألف من الاوروبيين المنتظمين فى خدمة الحكومة طبقة مستقلة ليست من كثرة العدد كما يتبادر الذهن ، أول وهلة . ومن أفرادها مائتا طبيب وصيدلى وعشرون معلما فى الجيش هذا كل عددهم الذى يتوهمون بأوروبا أنه يتجاوز بضع مئات بل بضعة ألوف ، ولقد كانوا أيام تشكيل الجيوش البحرية بمقتضى النظام الجديد أكثر عددا منهم الآن ، ولكن عددهم قل كثيرا منذ تدريب الجنود المصرية ولم تعد الحاجة ماسة الى الاوروبيين فى تعليمها الفنون العسكرية . أما المدارس ففيها نحو العشرين الى

الخمسة والعشرين استاذا أوروبيا أغلبهم من الفرنسيين وأما مصانع الحكومة وفاوريقاتها فبها جملة من الفرنسيين والانكليز والايطاليين يزاولون أعمالهم بمثابة مديرين لحركتها أو كصناع فيها . وبين موظفى الادارة بعض الافرنج يؤخذ من احصائهم والاحصاء المتقدم أن عدد الاوربيين الذين فى خدمة سمو الوالى لم يكن من الكثرة بما ذهب اليه الظن واتجه الخاطر . ولا جرم فان بدهيا أن يكون اهتمام محمد على منصرفا الى استخدام اكبر عدد ممكن من افراد رعيته ، وأن يتخلص من الوصاية التى كان لا بد لمصر أن ترزح تحت أعبائها لو تمادت فى استمداد أوربا والاستعانة بها على كل أمر من امورها . وهى نزعة وطنية محمود العقبى ، غير اننى الاحظ أن فيها مبالغة وشططا . اذ لا يخفى أن الانظمة الجديدة تحتاج فى حفظ كيانها الى الحرص على ثمراتها والضن بنتائجها أن تذهب ضياعا حتى يتيسر اطراد السير فى سبيل التقدم والفلاح وهذا يستدعى الاستمرار على طلب المعونة من الاوروبيين والاسترشاد بهم .

٤٤ — طباع الافرنج واخلاقهم

ان الاوروبيين الذين ذكرت نتفا من أحوال طبقاتهم ، تتألف منهم مستعمرة يلم شتاتها أحياء خاصة بهم . ومما يؤثر عنها التشدد فى رعاية التفاوت بين المراتب والدرجات فيها ، والحرص على الآداب والاصطلاحات الرسمية مع المبالغة فى تطبيقها . فان أفراد كل طبقة من طبقاتها الاجتماعية لا يجوز لهم أن يتعدوا فى علاقاتهم وروابطهم ببقية الطبقات الحدود المرسومة بمقتضى وظائفهم أو حرفهم أو ثروتهم . ويمتاز أهل الطبقة العليا بالتوسع

فى الانفاق على ما هو مألوف فى الهيئات الاجتماعية الاستعمارية، وتحرى البذخ والابهة فى الاثاث والرياش والثياب ، وتعقب الازياء الباريسية فيما يطرأ عليها من التغير والحضور فيها . وغالبـا ما تقيم الحفلات الليلية الفخمة وتعد المعدات الباهرة لاقامة المراقص التى تحف بها مظاهر البذخ وتشف عن سلامة الذوق فى التنميـق والتنسيق . وفى الاسكندرية معهدان صغيران فى الغاية القصوى من احكام الترتيب وجمال الزخرفة لتمثيل الروايات على اختـلاف موضوعها ، وقد خص احدهما بتمثيل الروايات الفرنسية والآخر بتمثيل القطع الايطالية وكان بنـاؤهما على نفقة بعض هواة الفن الذن يقومون الآن على ادارتهما واستغلالهما . والمعهود فى افرنج القطر المصرى الانس بالغـريب واكرامه والرقة فى المودة رقة مقرونة بمظاهر الادب واكرام مثوى الزائرين وبسط الكف بالمـال لذوى الحاجة ، حتى انهم كثيرا ما يوافون البائسين بمساعدات تبلغ الثلاثمائة فرنك الى الخمسمائة . ويتعهدون دائما الفقراء من أبناء وطنهم فيكتتبون لمساعدتهم بالاموال التى كثيرا ما تبلغ مبلغا عظيما . وقد انشأوا بالاسكندرية مستشفى يتولون الانفاق عليه من صفوة مالهم ، ويعالجون فيه الصناع والبحرية وسائر الافرنج الذين تنقصهم وسائل العناية بشئونهم فى منازلهم ، اثنـــاء عـلاجهم .

وما يؤسفنى ذكره هنا ما لاحظته فى الاخلاق والآداب بـين الجالية الافرنجية ، من التجوز والترخص . فحيل الغرام ودسائسه من الحوادث الشائعة المألوفة ، ولكن هذا الانحلال الخلقى لاينفى وجود أشخاص وأسرات على غاية ما يراد من العفـة واستقامة الاحوال والمحافظة على نواميس الادب والتدقيق فى رعاية ما يليق وما لا يليق . وهؤلاء خـير قدوة لمن يحب أن يستن بسنتهم فى الفضائل ومكارم الاخلاق .

٢٥ ـ الرحالة والمسافرون

يوجد بمصر دوما ، فيما عدا طبقات الاوروبيين الذين سبق الكلام عليهم ، عدد غير معين من المسافرين يفضى البحث فى طباعهم وأخلاقهم وأعمالهم ومشروعاتهم الى الانتقاد القارص .

ان الاسباب التى يستند الاوربيون اليها فى اعتزام زيارة القطر المصرى كثيرة ومختلفة . فبعضهم وهم الرحالة الحقيقيون يقصدون بزيارتهم الانتفاع فى أوقات فراغهم بعلم ما يجهلونه ، فهم كالنحل يتنقلون من زهرة الى زهرة لاجتناء ما يطمحون اليه من ثمرات العلوم والفنون ، والبعض الآخر وهم لفيف الفنانين والكتاب يقصدون بالزيارة حل رموز العلم وتلقى آيات الوحى فى أقدم معهد للفنون بل فى الارض التى أغدقت عليها الطبيعة نعمها الجزيلة وزينتها بالطرف النادرة واللطائف المستملحة ، وتحوم فى جوها ذكريات ترجع فى القدم الى بضعة آلاف السنين. وهناك فريق ثالث يشخص الى مصر فىطلب المال ، وسوادهم الاعظم من رجال العسكرية والتجار والاطباء والمهندسين وذوى الابتكار للمشروعات والواقفين على الاسرار العجيبة وغيرهم ممن رفضت اختراعاتهم واستكشافاتهم فى أوربا ، فهبطوا مصر ليضعوا غراسها فى أرضها العذراء وليجدوا بها اتهاما يسهل عليهم بواسطتها التصرف فيها بحسب أهوائهم وشهواتهم .

وممن يحضرون الى مصر التماس النزهة وتمتيع النفس أصحاب المقامات العالية والراتب الخطيرة . وهؤلاء يعاملون بما هم أهل له من الاكبار والاجلال ، اذ يحتفى سمو الوالى بلقائهم ويكرم مثواهم ويبذل المستطاع فى العناية بهم وحسن الالتفات اليهم وكثيرا ما يخصص لنزولهم احد قصوره الباذخة أو ينزلهم دور العظماء من رجال دولته . وانا لنذكر بهذه المناسبة الحفاوة الباهرة التى

لقيها (الدوق دى راجوز) و (البرنس بوكار مسكو) وحديثا (البرنس لويس) شقيق ملك نابولى .

أما السياح الذين لا القاب لهم ولاشهرة ، وانما هم على شيء من الغنى واليسر ، فيجوبون القطر المصرى فى أمن وسلام ويتمتعون بكل ما يستطيع أحدهم أن يتمتع به من الطيبات .وذلك باستصدارهم من الوالى فرمانا (١) أى نوعا من جواز المرور يتيسر الحصول عليه بواسطة قناصل الدول التى هم تابعون اليها .

٤٦ ــ تاثير الزيارة فى نفوس السياح

التأثيرات التى تتركها مصر فى نفوس السياح كثيرة التباين والاختلاف . واختلافها تابع لغرائزهم وأمزجتهم ، فان بعضهم يصلون الى ضفاف النيل وادمغتهم ملأى بما تراكم فيها من الخواطر والهواجس قبل تحركهم للرحيل من بلادهم ، فاستقر فى أخلادهم أنهم سيجدون بمصر ، فيما عدا الوسائل الحديثة لتوفير أسباب

(١) كان هذا الفرمان يكتب كما يلى :

من ديواننا فى سنة . . . . من الهجرة

ان صديقنا القديم الحميم المسيو ن . (تذكر هنا الجنسية) جاء الى املاكنا ليزور المعاهد الاثرية وغيرها من الاماكن المفيدة له فى أبحاثه . وقد قدمه الينا جناب قنصله . وبناء عليه قد سلمناه فرماننا هذا لينتفع ويستظهر به اثناء رحلته فى طول أملاكنا وعرضها .

فعلى المديرين والمأمورين وأرباب الحل والعقد ملكيين وعسكريين وبالجملة كل من يقدم اليهم هذا الفرمان أن يعنوا بامره ويهتموا بأداء الخدم التى يلزم منهم قضاءها حتى لا ترفع الينا منه شكوى فيما بعد .

ونوصيكم بعمل ما يلزم كيلا يلحقه حيف أو يوجه اليه شتم من الفلاحين أو غيرهم وأن تبادروا بموافاته بكل ما يحتاج اليه وان لا يدفع ثمنا عنه الا ما يطابق السعر الجارى فى البلاد وذلك فيما يختص بأجر ركوب الدواب أو المراكب وثمن الاغذية الخ وانى اعتبر أن الخدمات التى ستؤدونها اليه كانها أديت الينا بالذات .

الراحة والهناءة والمزايا المادية التى هى ثمرة الحضارة والآثار القديمة الغريبة ، عادات وأخلاقاً تبعث على الدهشة والاستغراب فكانوا يعللون أنفسهم بالسرور الشديد أثناء ملاحظتهم اياها وبحثهم فيها ولكنهم متى استقر فى أخلادهم أن بلد الاهرام وأبا الهول والمسلات ليس فيها من تلك الوسائل ما يسهل السفر ويذهب بمشقاته كما هو فى أوربا ، بل متى علموا أنهم لا يستطيعون الذهاب الى الاهرام فى السكة الحديدية وأن ليس هناك طريق سلطانى أو اقليمى أو زراعى يصل الاسكندرية أو القاهرة بأطلال الكرنك والاقصر الضخمة الفخمة ، لا تلبث هذه الخيبة أن تتحول عندهم الى شكوى مرة أو كراهة بالغة أو غيرهما مما يجعلهم يرون الاشخاص والاشياء فى غير مظهرها الحقيقى ، فيؤدى خطأ الحس حتما الى خطأ الحكم والمبنى على الفاسد فاسد بطبيعته .

ولا يهمهم من الامر أن يكون الجو معتدلا ، والسماء صافية الاديم ، ما داموا يشعرون بأن الشمس محرقة وأن حرارتها لا تطاق . ومن أين لهم ، وهذه حالتهم النفسية ، التمتع بسكون الليل وصفائه اللذين يبثان فى الجسم والنفس نشوة السرور والفرح ، بل اذا كانت أنظارهم تقع على ما تثيره الرياح من الاعصار فيكفى هذا لان يتأهبوا للقاء يوم عبوس قمطرير . ومع اعترافهم بخصوبة الارض ، تراهم يقولون ان مناظر البلاد وما يحيط بها من المزروعات تبث اليأس والقنوط فى النفوس لتجانسها وسذاجتها ، دع أنهم لا تهمهم خصوبة أرض مصر مادام أن هذه الارض لا تعدو كونها شريطا ممتدا وسط الصحراء القاحلة . ويضيفون الى ما تقدم قولهم ان الآثار القديمة ضخمة جليلة وأن ما تثيره من جليل الذكرى يتجه الى خاطر الرائى ويناجى فؤاده ، غير أن المدن الحالية قبيحة المنظر زرية الشكل وسكانها رجالا ونساء لا يستر أجسادهم من الثياب البالية سوى قميص واحد . أما الاطفال فمجردون من الثياب بالمرة ،

تبدو على وجوههم وأجسامهم أعراض الامراض المختلفة، وأن كل كل شيء تنبو عنه الانظار لقبحه وبشاعته . يضاف الى ما تقدم كله ما يستشعر الغريب به من القلق والانزعاج وسط قوم يتكلمون بلغة غريبة صعبة ، ينشأ عن عدم العلم بها من الصعوبات والمواقع ما يبعث على الضجر والملل فى كل آن .

لهذه الاسباب ترى أولئك السياح الذين خابت آمالهم واضطربت أمزجتهم حتى رأوا كل شيء سوادا ، لا يتنفسون الصعداء الا اذا توارت أرض مصر خلف مؤخر السفينة التى تنزح بهم عنها وتوقيهم بابتعادها رؤية تلك البلاد البغيضة اللعينة فاذا ما عادوا الى مواطنهم واستقر بهم النوى ، وكبر تأثر نفوسهم بما أصابهم من الفشل والخيبة فى رحلتهم ، أطلقوا لالسنتهم العنان فى ميدان ذم مصر والطعن فى أهلها ، كلما سنحت لهم فرصة . واذا عمدوا الى تدوين رحلتهم أبرزوها فى ثوب مبرقش بأوان لا تطابق الحق والعدل فى شيء .

وهناك فريق آخر من السياح يذهبون مذهب الغلو فى عكس ما شرحناه من الشعور والتأثر . فانهم لاعجابهم بكل جيد وتحمسهم له وشرههم الى استطلاع ما يدعوهم الى العجب والدهش ، لا يستثنون من اعجابهم ودهشهم شيئا مما تقع عليه أبصارهم . ففى نظر هذا الفريق ، ينبغى أن يشمل اعجابهم واستحسانهم المرئيات التى تلفت أنظارهم سواء فى ذلك المنظر الخاص للقطر أو الشكل الغريب لمدنه أو أحوال سكانه الخ .

لهذا السبب تراهم يتسارعون الى تقليد طرائق المسلمين فى المعيشة فيلبسون مثل ثيابهم ، حتى لقد صار من التقيد الشائع بين الذين يصلون حديثا من الافرنج ، أن يكتسوا فى أقرب وقت بالثياب الشرقية . ومع أن الذين يلبسون الملابس الاوربية لاينقص

احترامهم فى نظر الناس بسبب لبسهم اياها بل يزيد ، فان أولئك المقلدين يبررون فعلهم بأن الباعث عليه مجاملة أهل الوسط الذى نزلوا فيه ، بينما هم لا يقصدون فى الحقيقة الاقضاء حاجة فى نفس يعقوب . فيكون من اشهى الاشياء اليهم أن رأوا أنفسهم وقد لبسوا الثياب العريضة وتعمموا بالعمائم وحملوا الى جانبهم سيفا محدودبا . والذين يزعمون أنهم من الفنانين والعارفين بأسرار الثياب ، يفرطون من التشيع للثياب الاسلامية القديمة بما يدعو الناس الى انتقادهم والتهكم عليهم . فانهم يتعملون الرفق بالشرقيين فيرثون لحال الذين منهم هجروا عاداتهم المحمودة ليستبدلوا منها بعاداتنا . ومع أن استعمال العمة بمثابة لباس للرأس قد أخذ نطاقه يضيق شيئا فشيئا بحيث أصبح استعمالها لا يتعدى أهل الطبقة الدنيا الا قليلا ، فلا يزالون يتعممون بها . كما أنهم يفضلون الآن القيطان الحريرى الذى كان الشرقيون يحملون به السيف قديما على المناطق الجلدية المستعملة عندهم الآن لهذا الغرض .

وهناك فريق يطوح بهم حب التقليد الى حد السير على الارض حفاة الاقدام فيخيل للناظر اليهم أنهم أصبحوا بحيث لا يعرفون كيف يجلسون على الكراسى ، وأنهم لكى يوقوا أنفسهم ضرر الجلوس متربعين على الدواوين ، لا مناص لهم من معاناة بعض الالم . ولكن الطرائق الشرقية لاتخاذ الاوضاع وحمل الثياب تستدعى ، بالرغم من مزاعم أولئك الزاعمين ، الاختبار والدربة . وانه ليكفى أن يتنبه الانسان لما هنالك من التصنع والكلفة فى اختيار الثياب الشرقية وتسوية بعض أجزائها ، وفى خطأ الحركات والاوضاع فى الجلوس والمشى ، للتمييز بين الذين اعتادوا ذلك كله بالمران والذين لم يعتادوه ومعرفة المقلدين الاوربيين المتنكرين بالثياب الشرقية بعد اطراحهم الثياب الافرنجية .

على أن هذا لاينفى وجود لفيف من السياح ذوى عقول راجحة ينصفون فى الحكم ويتحامون التحيز والمتحاشين للغلو من يدركون حقيقة مركز الشعوب الشرقية ويقدرون البلاد وسكانها والاشخاص والاشياء حق قدرها ، فلا يأنفون من الرضوخ لمطالب الوسط وحكم العادات، بل يستطيعون الحكم حكما صائبا على مصر التى أتاح لهم استعدادهم العقلى البحث فى شئونها بحثا تنتظر منه الفوائد الشاملة والمنافع الجزيلة .

٤٧ ـ أصحاب المشروعات

ان أصحاب المشروعات الذين يصلون أفواجا الى مصر ، يزودون عادة برسائل التوصية . والمشتغلون منهم بالفنون العسكرية يقترحون على الحكومة المصرية الاساليب المستحدثة لتدبير القتال ، أو المبتكر من الطرائق لتعبئة الجيوش وترتيب أوضاعها فى ميدان الحرب . ومنهم خبيرون فى الشئون المدفعية يقدمون اليها قذائف يقولون عنها انها أصلح ما يكون لاحراق المواقع الحصينة وأفتك ما شوهد بالدونئمات . ومنهم من يكاشفها بسر تركيب السفن الغواصة أو يقترحون عليها الوسائل المختلفة لرفع الماء مؤكدين بأنها اذا روعيت تجىء بالمعجزات المدهشات، أو يرفعون اليها مشروعا بصنع آلات يعزون الى قوة عجيبة منها وبمناسبة أساليب رفع الماء نذكر هنا على وجه خاص ، انها جربت مئات المرات وآلاتها فأدى الامتحان الى اصابة أصحابها بالفشل والامتهان .

ولقد رأينا فيما شهدناه بمصر أطباء من الدجالين يزينون للناس أنهم يملكون من أسرار طرق العلاج ما يمتدحون لهم تأثيره الفعال ونتيجته المحققة النفع . وقد جاء أحدهم ، وهو من أهل مذهب الاوميوباتيا فى العلاج ، بدواء خاص أطرى فوائده وقال

بصدق تأثيره فى الامراض الثلاثة الكبرى المتفشية بمصر وهى : الدوسنطاريا والرمد الصديدى والطاعون . واقترح ، تحبيذا لهذا الدواء ، الغاء النقالات العلاجية اذ قال انه يكفى الطبيب أن يكون فى جيبه علبة صغيرة من الادوية لمعالجة جميع المرضى فى احدى فرق الجيش أو فى أحد المستشفيات . حقا انه لم يقل بفائدة طريقته العلاجية فى الامراض التى تستدعى العمليات الجراحية ، بل جهر بأن علاج الجراح المتسببة من الرصاص والسلاح الابيض تخرج من اختصاصه وأنه يكل العناية بأمرها الى الطب العادى . وشهدت دجالا آخر ذا شهرة واسعة ومزاعم أكثر من مزاعم زميله المتقدم ، اذ جعل اختصاصه ادعاء القدرة على انقاذ مصر كلها من فتكات الرمد الصديدى . ولقد كان هذا الرجل أسعد الافاكين الذى وجد من ديباجته حظا وأشدهم دهاء ومكرا اذ استطاع ، زمنا ما ، التغرير بالناس وادخال الغش عليهم فسهل له ابتزاز أموالهم على وجه فاضح جدا .

ومما ينبغى الاعتراف به سرعة انخداع الاوربيين بتغريرات من لا ذمة لهم من المتشردين والافاقين على أثر ما يظهرونه من المجاملة والتسامح ، بغير روية نحو أفراد هذه الطبقة . فانهم يسارعون الى تزويدهم بكتب التوصية على جهل منهم بحقيقة أمرهم وجلية خبرهم . وهو ما جعلهم يلقون من مظاهر الاجلال والتكريم ، لدى وصولهم الى مصر ، ما لا يستقبل بمثله الا الكبراء والعظماء . وما هم فى الحقيقة الا لصوصا يتبرأ الرجل الشريف من معرفته بهم .

وفى استطاعتى أن أورد هنا حوادث عديدة ليس منها الا ما يدعو الى العجب والدهشة . ولكننى أجتزىء منها بحادثة البارون (دى ولفنجن) الشهير الذى استقبل استقبالا باهرا من أهل الاسكندرية اجلالا للقبه الدال على علو القدر ونباهة الذكر

وتقديرا لكتب التوصيه العديده التى زود بها . ممد بدا هذا الافاقى الحاذق بالنزول فى دار جليلة تبدو عليها مظاهر الابهة والبذخ ، وانفاق المال عن سعة وبذل ، واستقبال الزائرين من أهل البيوتات الكبيرة والاسر الكريمة . وكان لا يدون حديثه معهم الا عن قصوره الشامخة وأمواله الزاخرة وخيراته الوافرة فكانوا يتسابقون اليه جميعا رجاء أن يتفضل عليهم باصدار أمر أو الاعراب عن أمنية ليتباروا فى تحقيقهما على الفور وما من أحد منهم الا وتقدم اليه بماله يسأله التعطف عليه بقوله ، وما من حفلة ليلية شائقة الا وأقيمت عنده أو جمعية صفاء وهناء الا وأخذت مجلسها فى بهوه . واندرع جميع الناس يتفاخرون بأنهم ممن فازوا بحظوة المثول بين يدى البارون الذى كان ، والحق يقال ، من أعرف الناس بأساليب اللطف والايناس وأوسعهم الماما بطرق مقابلتهم ومجاملتهم على ما تقتضيه مراسم الادب . وماكانت تقع الانظار على ذى حيثية سائرا فى الطريق الا ويجاوبك على سؤالك اياه : الى أين أنت ذاهب ؟ اننى أقصد البارون . يقول ذلك بصوت ينم على شعور الكبرياء والصلف الذى دب فى نفسه، ولا يحس عادة به سوى من يدعى الى لقاء ملك جليل الشأن .

وما كان أعظم يأس اولئك المغرورين وأشد شعورهمبالفشل حينما حامت الشكوك حول ذلك السرى العظيم وأصبحتيده صفرا من المال ولم تنفعه الحيل الجديدة فى تحصيله . فانه لم يتمالك أن جبه أولئك الحمقى ذات يوم بحقيقة أمره اذ قال : ان أمواله الطائلة وقصوره المشيدة فى المانيا ، لم توجد قط الا فى مخيلته أثناء حديثه عنها وفى حماقة الذين سلموا اعتباطا بمبالغاته فيها . وقد خسر هؤلاء من جراء سذاجتهم وحسن اعتقادهم فى هذا اللص ما لا يقل عن خمسين ألف فرنك الى ستين ألفا . ولقد كانت هذه الغلة وافرة بالنظر الى المدة القصيرة التى أقامها ذلك المحتال بالاسكندرية وهى نحو خمسة عشر شهرا الى ثمانيةعشر .

٤٨ — لوم يستحقه السياح

كثيرون من السياح الذين يزورون مصر يستحقون اللوم العنيف والتقريع الشديد ، لانهم متى وصلوا الى هذا القطر ووطأت أقدامهم ثراه أعاروا أسماعهم الى الترهات والاقاويل التى تحملهم على اساءة الظن بالنزلاء الاوربيين والتسليم ، من غير بحث ، بأنهم في حالة يرثى لها من التأخر ، وأنهم هم الذين يحملون اليه وحدهم أنوار العلم والعرفان . وترى البعض منهم يصدرون الاحكام الجازمة فى المسائل الادارية ويرون فيها رأيهم البات قبل ان يلموا بشيء من أحوال الوسط وساكنيه بل ويجرأون على موافاة الوالى بنصائحهم ومشوراتهم عن أعمال حكومته وسيرها ونظامها .وربما بلغ الطيش بهم أحيانا الى اتهام الاوروبيين الموظفين فى حكومته بقلة الكفاءة وشدة الجهل ، لان بعض ما تم على أيديهم من الاصلاح يبرق فى نظرهم اما لانه لا يفيد البلاد فائدة مؤكدة واما لان حقيقته قد يعترضه من الموانع ما لا قبل لاحد على دفعه .

وخطأ ذلك الفرق أنهم ، قبل رحيلهم الى مصر ، تجهزوا بمعلومات عنها اقتطفوها من مطالعة الكتب .فتوهموا أنهم يعرفون من أمرها ما لم يعرفه غيرهم من الاوروبيين الذين يقيمون فيها منذ سنوات طويلة .

وثمة فريق آخر منهم يستهجنون عادات البلاد وأخلاق أهلها استهجانا غير لائق بآداب المجاملة ، ويرون أن من بواعث السرور ودواعى الشرف والهمة أن ينتهكوا حرمة تلك العادات والاخلاق وأن يعبثوا بالحرية التى منحها سمو الوالى للاوروبيين من فيوض مكارمه . فلقد شهدت بعضهم يحاول مخالفة الاوامر العسكرية حين أيقن أن فيها ما يناقض آراءهم ويزعجهم فيما اعتمدوه من قول أو فعل .

ويتبع هذا الفريق فريق آخر يسلكون مع المصريين مسلك الشدة والقسوة ويعاملونهم معاملة لا تليق بالمدنية التى ينتسبون اليها . وذلك لانهم يعتبرونهم ككائنات حقيرة مرذولة خارجة عن نطاق النوع البشرى ويقولون ، جهارا نهارا ، أن ليس من الواجب مخاطبتهم بغير لسان الكرباج . ولاجل هذا تراهم يتزودون عند وصولهم الى مصر بالكرابيج يضربون بها ، من غير رحمة ولا سبب معقول ، الحمالين المكلفين منهم بحمل أمتعتهم وأشيائهم باعتبار أنهم دواب يسامون سوء العذاب،وكذا يفعلون مع الحمارين والمراكبية الذين ينقلون هذه الامتعة برسمهم من مكان الى مكان .

وقد عرفنا صرامة العقوبة التى يعاقب بها المسيحيون الذين يقوم الدليل ، فى جميع أنحاء المملكة العثمانية ، على اتصالهم بالنساء المسلمات اتصالا ينافى العفة والصيانة ، وأن المسلمين يعتبرون هذه الجريمة فى الدرجة القصوى من الخطورة . وأن الامتيازات الاجنبية تقضى على مرتكبيها بالاخراج من نطاق حمايتها ثم ذكرنا ما فى مصر من انحلال عرى الاخلاق انحلالا أفضى ببعضهم الى الترخص فى العرض . وقلنا ان ذلك لا يوجد له مثيل فى بقية الممالك العثمانية ، بمعنى أنه اذا ضبطت رجال الشرطة فى مصر بعض الاوربيين متلبسين بجريمة انتهاك حرمة مسلمة وسلب عفتها، فان سوادهم الاعظم يطلق صراحهم بناء على ما ذكر من الاسباب، ولم تطبق تلك العقوبة عليهم . ولكننى شهدت فريقا من الافرنج لم يقدروا هذا التسامح حق قدره بل عدوه الى ما يصح أن يوصف بالعبث الذى لا مسوغ له .

٤٩ — نصائح الى الرحالة والمسافرين

يجب على الرحالة والمسافرين الذين يصلون الى الاسكندرية أن يقصدوا ، بعد نزولهم من السفن مباشرة ، الى دور القناصل

الذين ينتمون الى دولهم كى يحصلوا لهم على الفرمان المذن بتنقلهم فى البلاد وطوافهم فى انحائها وجوبهم اطرافها . فاذا لم يكونوا مزودين بتوصية خاصة الى واحد من أبناء وطنهم المستعدين لايوائهم واكرام مثواهم ، مدة اقامتهم بذلك الثغر ، فانهم يجدون فى هذه المدينة من الفنادق والمطاعم ما يليق بنزولهم فيها وأصحابها من جميع الملل والنحل .

ويجب عليهم ، اذا هموا بالسفر الى القاهرة ، استئجار قارب أو زورق يصلون به الى النيل عن طريق ترعة المحمودية ؛ وهذه المسافة تقطع عادة فى نحو اثنى عشرة ساعة أو أربع عشرة. وفى نهاية الترعة ، أى عند مأخذها من النيل بجوار بلدة العطف القريبة من فوة ، ينزل الركاب من ذلك الزورق الى قارب آخر يصعد بهم فى النيل الى مدينة القاهرة ، وهذه الرحلة الثانية يطيلها انعطاف النيل والتواء مجراه . فاذا كانت الرياح موافقة ظلت من يومين الى ثلاثة أيام ، أما اذا لم تكن موافقة فربما استغرقت ثمانية أيام وأحيانا خمسة عشر يوما ومهما يكن من مشاق هذه الرحلة الناشئة عن شدة بطئها ، فخير للمسافر التذرع بالصبر لاحتمال مشاقها من اتباع طريق البر ابتغاء الوصول الى القاهرة، لان هذا الطريق متعب للغاية لا سيما وأن نظام النقل بين الاسكندرية والقاهرة لم يستتب حتى الآن .

وأجرة القوارب للذهاب من الاسكندرية الى القاهرة تختلف من خمسين فرنكا الى ستين للقوارب العادية وتزيد على ذلك بحسب سعة المركب الذى يختاره المسافر واستيفائه وسائل الراحة وحسن منظره . واذا كان المسافرون عديدين فان الاجرة توزع عليهم فيصيب كلا منهم ما لا يكاد يذكر من المال .

والنزول من المراكب ، عند وصولها الى القاهرة ، يكون فى بولاق ، مرفأ هذه العاصمة وموردتها .

ويحسن بالمسافر أن يقضى بالقاهرة من ثمانية أيام الى خمسة عشر يوما . والحقيقة أن خمسة أيام منها أو ستة تكفى لزيارة ما يهم الاجانب الاطلاع عليه كالاسواق والمستشفيات ودور الصناعة (الترسانات) والفاوريقات والمدارس والمقابر واهرام الجيزة وصقارة .

وبعد ذلك يعد معداته للصعود فى الوجه القبلى حيث الآثار التى تلفت انظار الرحالين . والواجب قبل كل شىء ، فى هذه الحالة ، الحصول على قارب جيد واستئجاره بأجرة تختلف من الف قرش الى الف وثمانمائة شهريا وتتضمن هذه الاجرة النفقات الخاصة بالنوتية من طعام وغيره . والافضل أن يحرر مع الريس صاحب المركب أو ربانها عقد لابرازه عند الحاجة لدى السلطة المحلية ، خصوصا اذا لم يف صاحب القارب بوعوده ولم يقم بعهوده . ومما يفيد المسافرين كثيرا ، أن يكون استئجاره القارب بالشهر لا باليوم ، ويحسن به الاحتياط ، فيأخذ معه بعض مايلزمه من المؤن كالبن والسكر وغيرهما من الاشياء التى يتعذر الحصول عليها داخل البلاد . أما اللحم والبقول والخضر والفواكه والبيض واللبن الخ . فالحصول عليه ميسور على طول الطريق بأبخس الاثمان .

ولا بد ، قبل مبارحة القاهرة ، من استخدام ترجمان من أهل البلاد ليقوم بالترجمة ، ويشترط معه فى ذلك أن يكون ملما باللغتين التركية والعربية . ومن الممكن الحصول على ترجمان جيد بمرتب مئة وخمستين قرشا شهريا . وغنى عن البيان أن التراجمة المصريين لا تتوافر فيهم الشروط المتوافرة فى التراجمة

والادلاء الايطاليين حذقا والماما بالشئون العامة . فانه اذا كان التراجمة لا يدرون فتيلا من تاريخ الآثار التى اعتزم الرحالة زيارتها، فلا مناص لهم من محاولة التفاهم بشأنها مع أهل البلاد ، وربما اضطرتهم الضرورة الى مواجهة السلطة المحلية لسؤالها عما يجب الوقوف عليه والالمام به .

واذا كانت الريح موافقة عند السفر من القاهرة . فمن الانسب الصعود فى النيل الى أقصى نقطة منه فى القطر المصرى ومن ثم يسهل عليهم ، فى أى وقت شاءوا العودة من هذه النقطة متجهين نحو الشمال والرسو بحسب الارادة فى الاماكن والبقاع التى يودون زيارتها على الضفتين ، لان المركب يكون فى هذه الحالة مسوقا بقوة التيار .

٥٠ ـ صفات أقوام الافرنج وطباعهم

الاوربيون الموجودون بالقطر المصرى ، سواء أكانوا رحالين و مقيمين به ، تابعون لجميع الملل والجنسيات . فمنهم الفرنسيون والانكليز والالمان ، وعلى الخصوص الايطاليون الذين اضطرتهم حوادث الثورات فى مقاطعتى (بييمونت) و (نابولى) الى التغرب . وجميعهم يحتفظون فى أرض مصر الكريمة بالعلامات المميزة لصفاتهم وسماتهم الجنسية .

أما الانجليزى ، فمن أشد الجاليات الاوربية حرصا على عاداته ، اذ تراه فى القاهرة كما فى لوندرة لا يستطيع الاستغناء عن أكل البيفتيك أو الوزبيف أو جبنة شستر أو المشروبات القوية . ولا أنس له الا بأبناء جنسه اذ لا يختلط بغيرهم الا قليلا . وبالنظر الى صلابة أخلاق الانكليز والتزامهم الوقار فى

أساليبهم والجد فى معاملتهم ، تراهم يؤلفون فى الشرق أسمى طبقات الجاليات الاجنبية وأشرفها وأصونها لكرامتها .

أما الفرنسيون الذين يناقضون الانكليز فى طباعهم وميولهم . فانهم يسلكون فى مصر كما فى غيرها من البلدان مسلك الطيرورة وسرعة التحمس للشيء ثم التضجر والملال منه . ومع هذه النقائص فالشرقيون يؤثرونهم بمحبتهم لما جبلوا عليه من الادب الغض والذكاء الحاد وحضور الذهن والبشاشة والكياسة .وهذه الطباع ، اذا أضيفت الى ما تركوه بأرض مصر من ذكرى وجودهم بها تحمل الوطنيين على ايثارهم بميلهم ومحبتهم.

أما الالمان فيمتازون بمعروفهم ودماثة أخلاقهم وحسن سريرتهم . والمقيمون منهم بالقطر المصرى قليلو العدد وهم على الغاية من كرامة النفس وشرف الخصال .

أما الايطاليون من ذوى الحيثيات ، وعلى الخصوص الذين أصلهم من المقاطعات الشمالية ، فجوامع الشبه بينهم وبين الفرنسيين كثيرة . وفى القطر المصرى ايطاليون كثيرون من أهل الطبقة الوسطى كانت أخلاقهم وعاداتهم سببا فى القاء كثير من التهم الجائرة على أكتاف أمة بأسرها تعد بين بنيها ، كغيرها من الامم الاخرى ، رجالا جديرين بالاحترام التام لاقتدارهم وسعة معلوماتهم وطهارة أخلاقهم وسمو آدابهم .

الباب الثامن

الحكومة والانظمة والسياسة

١

أسباب ظهور الحركة المدنية فى الشرق

منــذ هــذا القــرن

١ ــ لو لم تظهر آيات الحضارة بالقطر المصرى فى هــذا الزمن وتتجل للانظار آثار قوة انبعــاثها ، لمــا عرت المســألة الشرقية التى يعتبرها رجال الصحف وأســاطين السياسة كافة سنوات عديدة ، تلك الوجفة التى زلزلت أركان العالم السياسى
سنوات عديدة ، تلك الوجفة التى زلزلت أركان العالم الســياسى
فى هــذه الايام .

ولو لم يستعر الباب العالى من جهة أخرى شيئا ما من مظاهر حضارتنا ، لمــا تحرك لاوربا نبض أو اشرأب لها عنق اهتماما بأمره بل لمــا شك أحد فى سقوط تركيا من علوة مجدها السامق.

فبدهى اذا أن يتساءل الناس عن الحضارة التى ظهرت فى الشرق آيات حركتها منذ أوائل هذا الجيل .

فاذا كان ما نشهده فى الشرق من آثار المدنية ثمرة أنضجتها حرارة الزمن والحد الاقصى لشوط التقدم المستمر ، فليس بمستطاع الجواب ، فى بضع كلمات ، على هذا السؤال الذى يتطلب موضوعه درسا خاصا وبحثا عميقا يتناول الدولة التركية فى شئونها الداخلية كافة .

وانما الحركة الحاضرة احدى الحركات الطرآنية التى لا يتأتى انبعاثها من جماعات الناس ، بل انبعثت من رجل واحد أو رجلين . فلا بد أن يكون هنا اذا باعث كبير طرأ ، هو الفعل أو رد الفعل الناجمان عن حادث خطير لن يتعذر على أحد استكشافه.
وللحوادث العظمى دواما ، على ما هو مقرر ومفهوم ، نتائج لا ينتظر الذين سببوها أو شهدوها رأى العين وقوعها فى الحين الذى تقعفيه . ففى سلسلة الحوادث التى لا يعدو المرء أن يكون فيها مسوقا بقوة الى غاية يجهلها ، تتجلى القوة الالهية المهيمنة على شئون البشر جميعا . ولقد فطر الانسان على حب استكشاف الصلة السرية التى تربط الحوادث بعضها ببعض ، وعلى قدر المقدمة يتوقف عادة قدر النتيجة .

فمقدمة حركة الحضارة التى بدت آثارها الآن فى الشرق هى الحملة الفرنسية فى مصر .

لم يوفق نابليون بونابرت فقط لتحديد مجرى الاحوال فى أوربا والاشاعة باسمه فى طول هذه القارة وعرضها ، بل هزت يده القوية الاساطين التى ظن الشرق القديم انها دعامة بنائه التى لا يزلزلها الحدثان . ولما رأيت الآثار الجليلة التى خلفها من ورائه لم استطع الجزم فى هل كان اثره فى آسيا أقل من أثره فى بلاد الغرب .

أما الحملة الفرنسية التى ساقت الى مصر اشجع فرق الحرب الايطالية أى الجنود الذين عادوا مكللين بأكاليل المجد والغلبة فى وقائع (لورى) و (أركول) فقد كانت أشبه شىء بصاعقة هوت من السماء على الشرق فأيقظته منزعجا من سباته الطويل . وكانت الاساليب القديمة فيه قد بقيت الى ذلك العهد على حالها لم يتناولها تغيير ولا تعديل . وكانت الدولة العثمانية قائمة بحروب طويلة ضد الروسيا والنمسا ففازت بالنصر تارة وباءت بالخذلان أخرى . لكن هذه الحروب لم تغير شيئا من أفكارها العتيقة ولا من عقائدها الى اكل الدهر عليها وشرب . ومع هذا فان الروسيين والنمسويين لم تقتفى المدنية اثر جيوشهم لانهم لم تكن لهم مصلحة فى نشر انوار العلوم والمعارف بين الاتراك. وكانت الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية تعتقد أنها بعيدة المنال على من يرومها بفتح أو قهر ، وأنه لا يمكن أن يوجد على سطح الارض دولة تبلغ مبلغها عزا ومنعة . ذلك لان ذكرى فتوحاتها القديمة كانت لا تزال عالقة باذهانهم ولان الدول الاوربية لم تنتزع هذا الوهم من نفوسهم ولم ترشدهم الى الصواب من أمرهم ؛ بل كانت تزيد تلك الذكرى استقرارا فى نفوسهم بعجزها البين عن القضاء على قرصان المغاربة الذين كانوا ، فى ذلك الوقت ؛ يقاتلون أوربا ويجبهون الدول جمعاء بجرائهم ويفرضون عليها صنوف الفدى وأنواع الاتاوات .

ومن جهة أخرى ، كان المماليك القابضون على زمام الحكم والسيادة فى مصر يعتقدون أنهم فى طليعة جيوش العالم منعة وعزة جانب ، كما تثبته تلك النادرة التالية التى تشير من جهة أخرى الى ما بلغ اليه أولئك البكوات من الضعف المزوج بالحمق المضحك والجهل المزرى بهم :

لما استولى بونابرت على جزيرة مالطة اراد المسيو (روسيتى)

قنصل النمسا وبعض الدول الاخرى فى القاهرة وقتئذ وأحد أكابر تجار القاهرة ومعتبريها وصاحب الحول والطول والكلمة المسموعة لدى المماليك ، اذ كان القيم على تدبير شئونهم والمتعهد بتوريدها يلزم من حاجياتهم ، أن يوافيهم بهذا الخبر ويحذرهم من عاقبته . فبادر بمقابلة مراد بك زعيمهم ، وكاشفه بهواجسه وما وقع فى نفسه من عزم الفرنسيين على النزول الى بر مصر ، وألح عليه فى اتخاذ وسائل الحيطة للذود عن حياضها ، فكان جواب مراد بك على هذا التحذير أن قهقه ضحكا حتى كاد يستلقى على قدماه وقال : ما مرادك من اخافتنا بالفرنسيين ؟ الم يكونوا أشباه الخواجات — التجار — الذين نراهـم بيننا ؟ انه ليكفينى ، اذا نزلوا الى بر مصر فى مائـة الف من رجالهم ، ان أبعث للقائهم بعض التلاميذ من المماليك ليقطعوا رؤوسهم بحد الركاب (١) . فحاول المسيو روسيتى جهـده عندئذ لاقناعه بأن الفرنسيين قد فازوا بالنصر المبين فى ايطاليا وأنهم غير التجار المساكين الذين اعتاد أن يراهم فى أسواق القاهرة . ثم أعاد كرة الالحاح بتحصين الاسـكندرية ، فلـم يأت تحذيره اياه بفائدة لانه لم يشأ أن يعمل به وأراد أن يجامله ، فأرسل الى هذا الثغر قنطارين من البارود فقط ذخيرة لمدافعها .

وحدث بعد ذلك بقليل أن وصل الفرنسيون الى الاسكندرية ونزلوا الى البر واستولوا عليها ، وانتهى هذا النبأ الى علم مراد بك فاستدعى المسيو (روسيتى) على الفور ، وقال له بصوت المغضب : ان أولئك الفرنسيين الوقحاء اجترأوا على وطء ثرى بر مصر ، وطلب منه أن يكتب اليهم على لسانه بالمسارعة الى الجلاء فى أقرب وقت . فلاحظ المسيو (روسيتى) قائلا : « ولكنهم يامولاى لـم يأتوا الى

---

(١) كان المماليك يتخذون فى استوائهـم على خيلهم ركابا عريضا قاطعـا من ضلعيه الامامى والخلفى وكانوا يستعملونه كسلاح قاطع ضد المشاة والفرسان من العدو بل ضد خيل هؤلاء فيصيبونها بالجراح البالغة .

هنا ليعودوا كما جاءوا عند أول اشارة تصدر اليهـم منك » فقال مراد بك وقد تولاه الجزع الشديد : « وماذا يريد هؤلاء الكفار اذا ؟ ماذا يبغى هؤلاء المتشردون الذين يموتون جوعا ؟ ان كانوا طامعين فى مال فأرسل اليهـم بكذا الفا من البطاق (أى خمسين الف فرنك تقريبا) وليزايلوا مكانهم . فرد عليه المسيو(روسيتى) قائلا « ولكن هذا المبلغ يا مولاى لا يعدل أجرة شحن أصغر سفينة نقلتهم الى مصر . والاحرى بكم والاولى من هذا كله أن تأخذوا عدتكم للدفاع » .

لـم يستطع مراد بك أن يدرك بأكثر ممـا تقدم معنى جرأة الفرنسيين واقدامهم على الحضور الى مصر لمنازلته . ذلك لانه كان مزدهيا بقوته ومغرورا بعلوه الى حد انه لم يعبأ بهم ولم يرسل للقائهم بادىء الامر سوى شرذمة من الجند . ولم يرجع عن غروره وصلفه وفرط اعتداده بنفسه الا حينما فتك الفرنسيون بهذه الشرذمة فى أول لقاء لهم بها ، وعاد من بقى من رجالها يخبرون مولاهم بأن الفرنسويين لم يكونوا كما توهمه أول وهلة ، ففطن عندئذ لامره وأدرك حقيقة الخطر المحدق به . وكان أول جرح أصابه فى كبريائه وعزته ، اندحار جيوشه فى معركة (شبراريس) التى لم تنته حتى أعقبها اندحارها فى معركة الاهرام المعروفة .

وفى هذه الرواية الصحيحة من كل وجه ما يدل على مبلغ ازدهاء المماليك بأنفسهم ، وجهل الذين كانوا فى عهدهم يقبضون على دفة ادارة الحكومة فى الدولة العثمانية . لانه اذا كان ذاك شأن الزعماء والحكام ، فماذا يكون شأن عامة الناس الذين لم يكن لديهـم من الوسائل ما يستطيعون به أن يعرفوا شيئا عن أوربا وحقيقة أمرها ومحض كيانها ؟ فمن الميسور والحالة هذه تقدير الانقلاب الكبير الذى احدثته فى نفوس الشرقيين ما أحرزته فرنسـا من الانتصـارات الباهرة ، على مشتهد منهم فكان علمهم بهـا أشبه المرائى بالتجلى الذى يؤتاه المرء على غرة منه . ولاشك انهم أدركوا أهمية الوقوف

على الوسائل الجليلة التى كان من آثار تنفيذها ما افضت اليه معركة عين شمس مثلا من استطاعة جيش لم يتجاوز عدده تسعة آلاف أوربى التغلب على جيش مؤلف من ثمانين الف تركى وأن يمزق شمله ويقضى عليه قضاء مبرما .

ولما بهر فوز نابليون أنظار المسلمين وفتن عقولهم انتهى الامر بهؤلاء ، وقد أيقنوا بالاختبار والعيان أن الغربيين يسمون عليهم سموا كبيرا فى الشئون العسكرية ، الى أن يتمنوا عن طيب نفس لو تمت عندهم الاصلاحات فى هذا الباب وأن يكون رائدها التجربة التى أظهرت فوائدها المدنية الاوروبية .

ومن رجال الحرب الذين جاءوا الى مصر لقتال الفرنسيين بطل مقدونى ساقته المصادفة الحسناء اليها ، وهو الرجل التى شاءت القدرة الازلية ن يستفيد من أعمال حملةبونابرت بما تركه من الاثر فى أحوال الشرق . ومن محاسن الاتفاق أنه تلقى من فرنسى يدعى المسيو (ليون) من مدينة مرسيليا أول عبارات التشجيع التى نبهت فى نفسه الآمال وأيقظت المطامع فيها من نومتها .

بلغ محمد على الى أسمى المراتب فى الحكومة المصرية مجتازا من الصعوبات مالا حصر له فتغلب عليها ، تارة ببسالته واقدامه وطورا بدهائهوصائب برأيه . والحقيقة التى لا مراء فيها أننابليون أو بعبارة أخرى فرنسا ، هى التى أخذت بيده فى الطريق وفتحت له مغاليق الابواب ، فنابليون وفرنسا كانا يعدلان فيما أصاب من النجاح نصف طالعه السعيد ، لانهما بفوزهما على المماليك ، أصحاب السيادة الحقيقية على مصر فى ذلك الوقت ، وانتصارهما عليهم فى ثلاث معارك كبيرة ، مهدا له طريق الوصول الى الغاية البعيدة التى كان يرنو اليها .

ولا يزال محمد على ، وهو القابض الآن على زمام الحكم ، مؤيد الجانب من الفرنسيين . فلكأن لفظة الفرنسى أصبحت حرزه الحريز وطلسمه الجالب للخير والدافع للشر. وكان فى القطر المصرى للحكومة الفرنسية قنصل اسمه (دلسبس) كان أول من وافاه بنصائحه ومشوراته . وجاء من بعده المسيو (دروفتى) الذى أحرز عنده نفوذا كبيرا ومكانة عالية ، ليس فقط باعتبار كونه وكيلا لامتنا بل أيضا باعتبار أنه من البارعين الماهرين فى الفنون العسكرية . وبالجملة ففى عهد قناصلنا الجنراليين الذين تعاقبوا على كرسى القنصلية الفرنسية ، ما برحت الروابط بين فرنسا وسمو الوالى وثيقة العرى قائمة على أساس المجاملة وحسن التفاهم .

وكان مما يهم محمد على ، بعد اذ تسلم أزمة الحكم ، الاحتفاظ بها حتى النهاية . فلكى يصل الى هذه الغاية استهدى بخطط نابليون وسياسته مستفيدا من عظات القتال مع الفرنسيين وعبره . وكان يرى أنه لابد له فى الاحتفاظ بسلطاته ، من جيش قوى منظم لا على الاساليب التركية ، فيكون جيشا نزوعا الى الفتن والاضطرابات متهددا على الدوام حياة الذين يجرون عليه الارزاق والاعطيات ، بل جيشا خاضعا للقوانين والنظام ، قادرا على اعتياد التدابير العسكرية ليكون الفوز مكفولا له فى ميادين القتال . فالغرض الاول الذى قرطس محمد على سهمه فيه ، انما هو احتياز زمام السلطة والحكم . فلما تم له ذلك رمق غرضا ثانيا ألا وهو ضمان بقاء ذلك الزمام بيده . ولقد ظهرت كفاءته واضحة فى أجلى مظاهرها باختياره أنجع الوسائل لاصابع الغرض الآنف الذكر ألا وهو تنظيم جيوشه طبقا للاساليب الحديثة .

ولست أدعو أحدا الى اعتبار والى مصر واحدا من رسل الحضارة والمدنية ، بل أدعو الى وجوب اعتباره من فحول الرجال

والعبقريين وأنه ، مع كونه لم يعلم شيئا من شئون الامة التى ظهر بينها امره ولم يجد منها تشجيعا ولا مؤازرة على العمـل ، قد سلك مسلكا مبنيا على الحذق وحسن التدبير ورام به الاستيلاء على زمام الحكم أولا ثم الاحتفاظ به بعد ذلك .

وعـلى أثر تنظيم الجيش والدونـنمـة بمعاونة جماعـة من الفرنسيين من ضباط الجيش السابقين والمهندسـين ، وبأنوار عرفانهم وسعة مداركهم وقوة عارضتهم اقيمت معاهد التعليم العام والمدارس العالية وشيدت المستشفيات وسلم زمام ادارتها والخدمة فيها الى فريق من الفرنسيين . ومن ثم يرى أن الجيش وما يرتبط به من الفروع العديدة هما اللذان دفعا بمصر فى تيار حركة المدنية التى ما برحت تسوقها الى الامام حتى اليوم .

غير انه لا ينبغى أن يخطىء القارىء فى الامر أو يعسر عليه ادراك سره ، فان الذى اثار تلك الحركة ونبهها من خمودها انما هو ذلك الرجل العظيم ، بما فطر عليه من كـرم الشمائل ونبالة المقاصد وأصالة الرأى وبعد النظر . أما الشعب المصرى فلـم يساهمه قط فى شىء ما من التصميمات التى أقرها ، ولا فى اختيار الوسائل التى استحسنها لتنفيذها . بل ألقى فى طريقه كل مـا استطاع أن ينثره فيه من الصعوبات والمعاثر لتعطيلها ، وأقام فى وجهه الاعتراضات الجمة عليه . ولقد رأى محمـد على عندئذ أنه ، لأيلاف ذلك الشعب وتعويده الانس بتلك الانظمة الجديدة ينبغى العمل لازالة ما ران على قلبه من الشكوك ومكافحة ميله الى التشبث والعناد .

ولا يأخذن المصريين أحد بجريرة هذه النزعات، فان الروسيين لم يشدوا ازر بطرس الاكبر فيما تصدى لاجرائه من جلائل الاعمال وادخاله على شئونهم من نافع الاصلاحات وتلك شنشنة معروفة

عن الامم فى أدوار ارتكاسها وتنكسها كلمـا ظهر من بينها مصلح يريد الاخذ بيدها والنهوض بأمرها والسمو بها الى الغايات العالية فى الحضارة والرفاهية ، تعرضت له بالعمل على احباط مساعيه والقت فى طريقه العقبات والمصاعب .

لم يذكر التارخ مثلا لامة نهضت بدافع من نفسها ،لبناء صرح المدنية واقامةمعالمه . وانما الذين تعرضوا لذلك أفراد امتـازوا بذاتية متينة وعبقرية عالية ، فدعوا الى مشاركتهم فى عملهـم أبناء وطنهم . وكثيرا ما لجأوا فى تنفيذ مقاصدهم ، اذا أرهقتهممن هؤلاء نزعة الجمود على القديم ، الى وسائل العنف والشـدة . وتعليل هذه الحالة ليس بعازب على الفطن اللبيب لامكان تطبيق المنطق عليه فقد جبل الانسان على أن لايهتم الا بمـا يشعر بضرورة قضائه من الحاجات لنفسه ، وأن لايتحرى المزايا والفوائد الا بنسبة أهميتها وضرورتها لشخصه . ولما كانت الشعوب التى على فطرة التوحش والهمجية لاتشعر بشىء من الحاجات عادة ، فانها تجهل طبعا فوائد المدنية ومزاياها ، ولايتاح لها تقدير أهميتهـا الا اذا رضخت لارادة رجل تأججت فى صدره نار المطامع الشريفة وجمع عزيمته على نيلها مستعينا فى ذلك بتلك الشعوب ذاتها . وانمـا عبقريةالرجل العظيمفىتقديره أهمية ما يراه منالوسائلمحققا لمراده، ولقد كان محمد على ذلك الرجل فيما يتعلق بمصر .

هذا ولم يبدأ بتطبيق الاصلاحات الحديثة ، على الطراز الاوربى بالاستانة الا من باب المجاراةوالمنافسةلمحمد على . ولعلالسلطان محمودا تذكر وقتئذ ما كان من انصراف سلفه السلطان سليم الثالث الى فرنسا فى أن توافيه ببعض البيانات اللازمـة لادخال النظام والترتيب على جيشه .

يؤخذ مما تقدم أن الاصلاحات فى تركيا لم يبدأ بهـــا الا بعد أن تم فى مصر تنفيذها ، ولم يقصد بهـــا فى الحقيقة سوى مناظرة محمد على كيلا يقال ان المتبوع أصبح ، بالنسبة الى تابعه ،فى طريق التقدم من المتخلفين . واذا جاء تطبيق الاصلاحات فى مصر مقرونا بالنجاح مكفول الثمرات ، فأنما الفضل فى ذلك يرجع الى تأثير الحملة الفرنسية فى شئون مصر وأحوالها . وهو ما يستخلص منه أن فرنسا ونابوليون كانا سبب حركة الحضارة التى ظهرت فى الشرق ، وتولى محمد على غراسها فى مصر وتعهدها بعنايته حتى أينعت ثمارها على ما هو مشاهد اليوم .

٢

الحكومة فى مصر

ادارة الاقاليم فى عهد باشوات الباب العالى — آراء محمد على فى الادارة — تشكيل المجالس الخصوصية والدواوين فى مصر .

٢ — لقد كان المفهوم أن تدار حكومة مصر ، بالنظر الى كونها اقليما تابعا للسلطنة العثمانية اسما لا فعلا ، بحسب قوانين هذه السلطنة وانظمتها الادارية ، اذا صح أن لها قوانين تسير عـــلى منهاجها . ولكنا نعرف كيف تشكلت الدولة العثمانية وأن خلفاء عثمان لم يخطر قط ببالهم ، عندما دوخوا الممالك وفتحوا الاقاليم وأخضعوها لسلطانهم ، أن ينظروا فيما اذا كانت هذه الاقطار تتكون منهـــا ، باجتماعها بعضها الى بعض ، حكومة متجانسة العناصر داخلة فى نطاق حدودها الطبيعية .

كلا ! لم يفكروا فى شيء من ذلك ولم ينظروا فيه ،بل جعلوا مقصدهم الوحيد ، بلا روية ولاتبصر ، ضم بلاد الى بلادهم والحاق

أرض بأرضهم على طريق الجزاف والمصادفة . وكأننا بهم وقد استدرجهم الزهو والغرور ، فبدلا من أن ينشئوا ضمن دائرة محدودة ، وان تكن كافية ، حكومة منتظمة كان المرجو أن يساعد انتظامها على تنمية قوتها ، بددوا سيادتهم الاسمية فى اقاليم وأقطار سحيقة عن عاصمتهم بطول الشقة وانفراج مابين الاخلاق والعادات والاجناس واللغات،منفصلة عنها بذلك أكثر من انفصالها بالمسافات الطويلة والحواجز الطبيعية ، فأضعفوا لهذا السبب أعصاب سلطتهم الحقيقية بقدر ما أعطوا من السعة والامتداد لمظهرها الخيالى . وكانوا غلاظا فى السياسة فلم يهتموا الا يسيرا بتفاصيل ادارة الاقاليم التى أرضخوها لحكمهم . وكانت أهمية الولايات (الباشلكيات) تقدر فى نظرهم بما يرد من محصولها وأموالها على الخزانة العامة . وهو ما دعاهم الى أن يعهدوا بادارة الولايات الى أقدر الباشوات على تقديم أعظم ما يمكن من أموال الجبابة . وكانوا يعطون الاقاليم التى يربو نفوذهم وسلطانهم فيها عليها فى غيرها ، بطريق الالتزام لمن يقدم أوفر عطاء . بل كانوا يعمدون الى المساومة فى اعطاء هذه الالتزامات كما لو كانت تجارة أو احتكارا ، وكانوا يطلبون من الملتزمين ، اذا شبت الحرب ، امدادهم بالجنود والسفن ليس الا . فلم تتعد الروابط السياسية بينهم والولايات التى فتحوها بسلاحهم هذا الحد .

وكان أرفع الباشاوات مقاما وأجلهم شأنا فى نظر الباب العالى أكثرهم توريدا للاموال . وكان الواجب أن تكون الحالة غير ذلك بالنسبة لتلك الاقاليم ، فأنه بقدر ما كان يناله الوالى من الحظوة والزلفى لدى الديوان بموافاته اياه بأكثر ما يكون من المال ، كان يتذرع بسلطته للضغط على الاهلين والسلوك معهم مسلك الجور ، ويبتز ما بأيديهم من المال . ومن أين كان له أن يعمل لمحض خير الولاية الموكول أمرها اليه ؟ نعم ان هناك مستثنيات لكل قاعدة ،

ولكنني لا أفرض وجودها هنا الا من باب التجوز والتسامح ، تكريما للفطرة البشرية وحسن ظن بها . والا فهل كان مما يسلم به اتفاق مصلحة الولاية والاحوال فيها على مارأيت من الظلم والاستبداد ، مع مصلحة الوالى الخاصة ؟ بل هل كان من المستطاع أن يتفق مستقبله مع مستقبل محكومين ويمتزج به ؟ كلا ! لانه اذا ترك الجرح الذى أصابهم به ليمتص منه دماءهم ويستلب أموالهم يملأ بها صناديقه ويسدد ديونه ويعمر خزائن حماته والذادة عنه فى الاستانة ، لايلبث أن يصل اليه فرمان الخلع فى الحال أو أنشوطة ينصرم بها مع حبل ادارته حبل عمره أيضا . فمن غير الممكن للوالى فى مناصب الولاية توافر الضمانات الكفيلة له بالترقى والاستمرار على العمل ، ما لم يبهظ عواتق محكوميه بمختلف الفرضى والجبايات . ثم لا ينسى أن له مصلحة كبرى فى الضغط على محكوميه ليس فقط بدافع الطمع ، وهو الشعور العام فى بلد يرتفع المرء فيه بالدسائس من أحط الدركات الى أعلى الدركات ، بل أيضا بسائق قوى من غريزة حفظ الذات ، وهى صوت الطبيعة الآمر ونداؤها الذى لست أظن أن من بين الرجال من يقدر على مقاومته .

يفهم مما تقدم أن علائق الولاة مع الديوان كان لامناص من أن تلقى الامة فى حمأة الهمجية ، وتحول بينها والوثوب فى طريق التقدم والنجاح . دع أنهم كانوا يجعلون استبداد القوة من مظاهر منصب الولاية ، حتى بلغ من أمر هذا الاستبداد أن جميع الحقوق ، الا ما كان متعلقا منها بالدين ، لم يستطع أحد الجهر بها . وتلك ارادة الولاة وسلطتهم المطلقة وسيرهم بين الناس بالحيف والعسف . ومما لاريب فيه أن هناك أنظمة كثيرة ركنها الاستبداد وقمتها التحكم ومطلق التصرف ، ولكن هذا الاستبداد كان شائعا فى كل أرجاء الدولة العلية اذ كان ينبعث من المركز متشعا فيما حوله كما تتشعع أنصاف أقطار الدائرة الى جميع نقط محيطها .

أما محمد على فقد عرف كيف يوطد دعائم شوكته ويرسيها على القرار المكين فهو أول عثمانى استطاع ادراك الافكار النافعة فيما يتعلق بالحكومة والادارة . وهو أيضا اول من ابرزها من حيز العدم الى عالم الوجود .

نعم ان سلطته مطلقة ، ولكنه أحكم التدبير بتحاشيه عن الحكم الاستبدادى الذى كان لمثله ، فى شوكته وقدرته ، أن يجرى على خطته اذ شكل لنفسه مجلسا خاصا اعتاد المداولة مع أعضائه فى جميع الاعمال المتعلقة بالحكومة قبل الشروع فى تنفيذها . وألف لكل فرع من فروع الادارة مجلســا من الاخصائيين ، فكان هناك مجلس للحرب ومجلس للبحرية ومجلس للزراعة وآخر للتعليم وغيره للصحة الخ . وكان هناك مجلس عام فوق هذه المجالس جميعــا يدعى بمجلس الحكومة ، من اختصاصه النظر فى جميع أقســام الحكومة . وكان اذا عنت الحاجة الى وضع قرارات مهمة فى الزراعة أو الاشغال العامة الخطيرة ، يعقد مجلسا لذلك يجتمع فيه حكام الاقاليم ومديروها .

ولقد أدرك ، أول وهلة ، أنه لاجل تسيير الادارة فى المنهج القويم ، لابد من العناية بتقسيم الحكومة الى فروع مختلفة . وقد شكل فعلا هذه الفروع وجعل على رياستها الوزراء والنظار فأنشئت على التتابع وزارات الداخلية فالحربية فالبحرية فالمعارف العمومية فالمــالية فالخارجية فالتجارة .

ومن المؤكد ان هذه المعاهد الحكومية لم تبلغ درجة الاتقان والنظام المرجــوة من اول أمرهــا . الا أن هذا لايخلينا من تبعة الاعتراف بالجهود التى بذلها سمو الوالى فى هذا السبيل ، وبمثابة من النظام وحسن الاساليب فى ادارة الاعمال ، بل بما أظهره من

صدق الارادة بأدخال النظام الادارى فى بلاده على وجه يثبت تقديره لاهميته .

ومما لامشاحة فيه أنه اذا توافر عنده الوقت الكافى وانتهى من الاعمال التى يعنى الآن بانجازها وخرجت المدارس العدد الكافى من الاكفاء ، ستتحلى مصر بحلية نظام دستورى ثابت يكون قد قتله ، من قبل ، فحصا ودرسا ونظر فى وسائل تنفيذه من الوجهة العملية .

وعلى كل حال ينبغى لاوربا أن تعلم اليقين أنه اذا اغتصبت من مصر السلطة التى أقام محمد على صرحها لتعطى الى الباب العالى ، فان ذلك القطر لابد له أن يهوى فى مهواة من التأخر لاقرار لها . واللازم لمصر الآن أن تكون لها حكومة خاصة منظمة تنظيما متينا ، فقد قال نابليون أن للحكومة فيها من التأثير أكثر مما للحكومات الاخرى فى بلادها ، خصوصا اذا كان الغرض المقصود تعزيز ثروتها العامة . وسمو محمد على جدير ، ولاشك ، بالمكافأة لانه أول من أرسى فى مصر قواعد ادارة حكيمة تعتبر وحدتها وقوتها من أهم الشروط الحيوية للمحافظة على كيانها .

٣

الوظائف الادارية الكبرى

التى استحدثها سمو الوالى

الموظفون الجدد : المديرون والمأمورون والنظار ومشائخ البلاد والخولية والصيارفة والشهود ـ شرطة القاهرة .

٣ ـ الموظفون الجـدد

رأينا فيما تقدم أن محمد على غير تقسيمات القطر المصرى وبدل منها بتقسيمات ادارة تكفل للسلطة حصر الموارد ووحدة العمل . وكيفية ذلك أنه قسم مصر الى سبع حكومات أصلية جعل عليها قومة يسمون بالمديرين ، ومن تلك الحكومات اثنتان يتألف الوجه البحرى منهما وواحدة تتألف منها مصر الوسطى وأربع يتألف منها الوجه القبلى . وكل حكومة او مديرية تنقسم الى مراكز والمراكز الى أخطاط .

أما المراكز فرؤساؤهـا يدعون بالمأمورين ، وأما الاخطـاط فرؤساؤها يدعون بالنظار والخط يشمل فى دائرته جملة قرى لكل قرية رئيس يدعى بشيخ البلد .

٤ ـ اختصاصات هؤلاء الموظفين

يتصل شيخ البلد مباشرة بالفلاحين الذين يلجأون الى قراره وحكمه فيما يشجر بينهم من المنازعات . وهو الكفيل للحكومة بدفع الضرائب وأموال الجباية .

أما رئيس الخط فيطلب منه الاشراف على العمال المعهود اليه أمرهم فهو الذى يقوم بتوقيع العقوبة عليهم، اذا أنس منهم اهمالا فى تنفيذ أوامر الحكومة أو اعراضاً عنها .
أما المأمور فوظيفته تحديد الاعمال الزراعية ، ويشترك مع المدير فى تقدير عدد الفـدادين المخصصة فى كل قرية للزراعات المختلفة بحسب ما تقتضيه طبيعة الارض . وعليه أيضا مطالبة الفلاحين بالضرائب ، اما اصنافا من الحاصلات واما مالا نقدا وأن يجمع فى الشون بعد الحصاد الحاصلات التى تؤول الى الحكومة .

والى المأمور يرجع الامر فى جمع الانفار للخدمة العسكرية والاشغال العمومية . وعليه أيضا مراقبة المعامل والفاوريقات .

أما المدير فمن واجباته تفقد الاقسام والمراكز الداخلة فى نطاق اختصاصه والسهر على تنفيذ أوامر الوالى وقرارات المجلس والعناية بترميم الترع والقناطر والجسور .

وعلى المآمير والمديرين أن يبعثوا فى نهاية كل اسبوع الى وزارة الداخلية جريدة ببيان تفصيل أعمالهم اليومية والاعمال التى سيقومون بها . وما من مسألة الا وتدور المناقشة عليها ولا يتقرر شيء فيها الا بعد امعان النظر فيها وتدقيق البحث وبعد أن يبدى سمو الوالى رأيه بشأنها .

وجميع المآمير الآن من المصريين الوطنيين ، الا النزر اليسير منهم . والسبب الذى دعا سمو الوالى الى أن يعهد اليهم هذه الوظيفة اعتقاده بدرايتهم التامة بأحوال البلاد وخبرتهم الوافية بزراعتها وأنهم أقدر من غيرهم على الالمام بمراكز مواطنيهم واحتياجاتهم ومواردهم وأنهم أولى بالقيام على شئون الادارة من الاجانب الذين لا يخلون من نزعات التشعيع الجنسى . على أن هذا التسامح لم يأت بكل ما كان ينتظره محمد على من النتائج الحسنة . لان هؤلاء الموظفين المصريين كانوا يعاملون الاهلين بأقل مما كان يعاملهم به الاتراك من الرفق والرحمة .

ولقد أقام الوالى الحجة البالغة على حسن نياته وعظيم تسامحه باختياره بعض المآمير من نصارى البلاد . ومفهوم أنه لم يسبق لمن حكموا مصر من المسلمين أن قلدوا أحد المسيحيين مثل هذا الشرف أو منحوهم مثل هذه الثقة .

أما المديرون فهم جميعا من الجنسية التركية .

وفيما عدا مشائخ البلد يوجد بكل قرية رئيس للزراعة ومساح يدعى الخولى وصراف لجباية الاموال وحساب المبالغ التى يسلمها الى المأمور ليتولى تسليمها الى خزينة المدير . وفى كل قرية شاهد ينتدبه القاضى للحكم وتحرير العقــود العمومية باعتبار كونه من المأذونين .

يفهم مما تقدم مقدار ما هنالك من التباين بين اختصاصات الموظفين المصريين وصفاتهم فى مصر وبينها فى موظفى البلاد الاخرى. فليس للموظفين المصريين فى القطر المصرى تأثير سياسى ما ، فهم حكام اداريون لاأكثر تنحصر سلطتهــم فى تقدير حاصلات الارض وتعهد ادارة المصانع والقيام ببيان مــوارد البلاد المعهــودة الى ادارتهم .

ولأؤلئك الموظفين مرتبات تختلف باختلاف درجاتهم . وقــد جعل لهــم منذ زمن قليل شــوار أى لباس خاص وشارات معينة لتمييزهم بعضهم عن بعض . فمشائخ البلد يعــرفون بوساماتهم الفضية والنظار بها ذهبية والمأمورون بها ماسية . ويشغل وظائف المديرين اما البكوات برتبة الميرالاى أو الفريق واما الباشوات .

٥ ــ البوليس أو الشرطــة

لا يعد ثغرا دمياط ورشيد ولا مدينة القاهرة من البلدان الداخلة فى اختصاص المديرين . فان ادارة هذه المدن الثلاث موكولــة الى حكام خصوصيين ، ولما كانت العاصمة أكثر سكانا من غيرها فالحاجة الى حفظ النظام وصون الامن فيها تستدعى دوام اليقظة والتعهد، فقد عنى بهذا الفرع من فروع الحكومة واتقن تنظيمه فيها . ومنذ

سنوات قليلة كان يتولى أمره موظفان كبيران يسمى أحدهما بالوالى والآخر بالضابط . أما الآن فلا يوجد على ادارته غير موظف واحد هو ثانى الاثنين المذكورين وتحت امرته ضباط تميزهم شارة خاصة . وهم منتشرون فى أنحاء المدينة تميزهم عن غيرهم علامة خاصـــة ويصونون ، بمراقبتهم الفعالة ويقظتهـــم المستمرة، النظام العام والامن الخاص بأفراد الناس . ويقومون أثناء الليل بالنوبة ، فاذا مضت ساعة ونصـــف من غروب الشمس ألقوا القبض فى الطريق عـــلى كل شخص لايحمل بيده مصباحا . وبهذا لاتمر ساعتان أو ثلاث ساعات بعد الغروب حتى تكون الشوارع خالية من السابلة . وفىيقينىأن الامر القاضى علىالذينيخرجونفى ظلام الليلمنبيوتهم ، وعددهم قليل جدا ، بأن يحملوا المصابيح المنيرة لمن الاوامر الحكيمة فى مدينة كالقاهرة لم ينشأ بها الاستصباح العام . وعادة الشرطة ، فى قيامهم بالنوبة ، أن يوجهوا الى المارة السؤال الآتى باللغة التركية « كيم دورو » ومعناه « من هذا » فيجاوبونبقولهم : «ابن البلد» فيصيح العسس عندئذ قائلا له : « وحد الله » فيجاوبه بقوله : « لا اله إلا الله » .

والمسيحيون ملزمون بالنطق بهذه العبارة كالمسلمين سواء . وسبب ذلك ما وقر فى نفوسأهل الملة الاسلاميةمن أنمرتكبالجريمة أو المعول عـــلى ارتكابها بقصد ، لايجرأ بوجه مـــا على مجاوبة العسس بالقول المتقدم . ولقد اشتهر الاغاوات بالمهارة والتفنن فى استكشاف اللصوص ، ونقلت عنهم فى ذلك حوادث كثيرة وحكايات نادرة تدل على براعتهم فى اصطياد اللصوص بنفس المكائد التى يحاولون أن يكيدوها للآمنين .

٤

الموارد المالية لوالى مصر

٦ ــ أشرح هنا القواعد التى أقام محمد على عليها بناء شوكته وقدرته ومنها يتبين أن الضرورة القاهرة التى ألجأت سمو الوالى الى انشاء الحصون والمعاقل للامتناع بها ، قد أرشدته الى الوسائل التى لا يتسنى له تحقيق غرضه بدونها . ولسوف يقتنع المكابرون أنه برضوخ محمد على لقوة الحوادث ومضيه فى تيارها ولبسه لكل حال لبوسها وضمانته لوجوده السياسى بما وضعته ظروف الزمان والمكان فى يده من وسائل العمل ومقوماته ، قد صنع القالب الذى أراد أن يفرغ لمصر فيه دستورا موافقا لعبقريتهــا وموفيا بمطالبها وحاجتها ، بحيث لا يكون أثرا زائلا لسياسة لا حياة ولا أفق لها . الدستور لا يكون فى هذه الحالة الا نتيجة طبيعيــة ترمى اليها مقدمات لا تعدو كونها ماضى أمة قضت ضرورة الحاضر بتعديله عــلى ما يطابق مقتضيات هذا الظرف وبث عنصر الحياة فيه ، تلك الحياة الضمينة بمستقبل ساطع النور لن يقبل الا فى هيئــة وحشــد عظيم من آثار التقدمات الفــكرية والاصطلاحات التى أولدتهــا طبيعة الاشياء والتى ســيقوم على تنميتها التدبير والاعتدال .

ومما لايختلف فيه اثنان أن ما أنجزه محمد على من الاعمال حتى الآن لم يبلغ درجة الكمال المطلق . ولكن سمو الوالى وصل به فى الظروف الراهنة الى أسمى مافى قدرة انسان أن يبلغه من غايات الكمال . وعــلى كل حال فأنه لن يتركه بعده عملا مبتورا لاأمل فى بقائه واستقراره . كلا ! لانه لقح أعماله كلها بلقاح البقاء

والاستمرار ، وحسبه هذا فخرا ومجدا . وفطاحل الرجال لايموتون، اذا غيبت أجسامهم فى الاجداث ، بل تعيش ذكراهم مؤيدة بما شادوه من الآثار وقاموا به من جلائل الاعمال . فاذا اتسع نطاق المستقبل الذى مهدوا له الطريق فى حياتهم وترامت آفاقه الى أبعد مدى ، تيسرت تنمية التراث الذى تركوه فتنمو بنمائه سيرتهم العطرة وتتسع الاشاعة بها حتى يطبق الخافقين ذكرها ، وقدم الناس الى عبقريتهم الممثلة فى آثارهم ومآثرهم اتاوة الاعظام التى تزداد باطراد نمو ذلك التراث وتحسنه على توالى الايام وتعاقب الاعوام .

وفى شوكة محمد على وقدرته أمران جديران بامعان النظر فيهما لتبين حقيقتهما الا وهما : ماهية هذه القدرة فى ذاتها والشروط التى يترتب عليها بقاؤها أو بعبارة أخرى العناصر المكونة لها وقوام هذه العناصر . وسأقدم الكلام على ثانى الامرين وهو الموارد المالية كى أتطرق منه فيما بعد الى الكلام على الامر الاول وهو القوة العسكرية . لان القوة العسكرية فى المال كالنتيجة للمقدمة فى القياس المنطقى .

ولنجمل القول فى ذلك الموضوع فنقول : ان الموارد المالية التى يعتمد الوالى عليها هى : أولا تشكيل الملكية فى القطر المصرى . وثانيا احتكار الحاصلات الزراعية . وثالثا الضرائب والرسوم .

١

الملكية

تشكيل الملكية فى الشرق — حالتها فى مصر منذ الفتح الاسلامى على يد عمرو بن العاص الى الفتح العثمانى على يد السلطان سليم — حالتها على عهد المماليك . الاوقاف ، الارزاق ، الالتزام —

أراضى الفلاحين والاوسية — التغيير العظيم الذى أحدثه محمد على — آراء وخواطر فى النظام الحالى للملكية .

٧ — تشكيل الملكية فى الشرق

مسئلة الملكية من أهم ما يرتبط بمصر من المسائل العامة لسببين : أحدهما أن الملكية فيها قائمة على قواعد وأساس تغاير ما تقوم عليها منها فى مختلف البلاد الاروبية . والثانى أن الاسلوب الذى كانت الملكية قائمة عليه لمحمد على السبيل لجمع الموارد التى استعان بها على تشييد صرح شوكته .

ولم تعين طبيعة الملكية فى المدنيات الشرقية بمثل الصراحة التى عينت بها فى الحضارة الغربية . لان الحضارة الشرقية مغايرة للحضارة الغربية ببقائها واستمرارها . واذا جعلت بيانى بشأنها قاصرا على مصر ، فأنى مثبت هنا أن الاراضى المصرية كانت منذ عهد الفراعنة الاقدمين ملكا لولى الامر .

٨ — حالتها فى مصر منذ الفتح الاسلامى الى الفتح العثمانى

قرر الاسلام مبدأ عاما فى ملكية الارض تلخصه الآية الآتية من القرآن : « ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

فبمقتضى هذا المبدأ العام كل حق للملكية الفردية مستمد من ولى الامر . ولما استولى عمرو بن العاص على مصر أقر الخليفة عمر بن الخطاب سندات الملك التى كانت موجودة ابان الفتح ، وتم انتقال الملكية بعد ذلك بطريق الوراثة مقابل دفع فرضة من

المال الى الامير . وظلت الاحوال سائرة على هذا المنوال فى عهد سائر الخلفاء والسلاطين الجراكسة . ولم يطرأ عليهـــا تعديل الا عقب الفتح العثمانى على يد السلطان سليم الاول . فقد قرر هذا السلطان أن الاراضى التى أعطيت فى الاصل من الامراء تحول منذ الآن فصاعدا الى ملكيـــة ولى الامر . وبهذه الكيفية أصبح صاحب الارض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها ، فاذا مات آلت أملاكه الى الحكومة . غير أنه كان لورثته ردها الى حوزتهم بدفع مبلغ معين ، على طريق العسف والاستبداد ، لاتقبل فيه مساومة .

وقد أخذ السلاطين ، من خلفاء السلطان ســليم الاول ، يعهــدون ادارة البلاد المصريـــة الى دفتردار عنده سجل بجميع أراضيها . وكان قصدهم من ذلك تأييد الحقوق التى انتحلها ذلك السلطان لنفسه عليها . غير أن هذه الحقوق لم تلبث أن تلاشت بشوكة المماليك وامتداد نفوذهم ، لانهم كانوا أصحاب السيادة الفعلية على البلاد . وكانوا يتصرفون فى الارض على مـــا تشاء أهواؤهم ويضعون أيديهم على مايروق فى نظرهـــم منها بلا أدنى التفات الى الحقوق التى انتحلها الباب العالى على الوجه السالف .

٩ ــ حالتها على عهد المماليك

فى عهد المماليك وابان وجود الحملة الفرنسية بمصر ، كانت الملكية منظمة على الوجه الآتى :

كان الشطر الاوفى من الاراضى ملكا للمماليك والحكومة وكان الشطر الباقى فى حوزة نحو ستة آلاف مالك يعرفون بالملتزمين . اما مابقى من الاراضى ، فكان موقوفا على المساجد ويعرف بالاوقاف أو الرزقة .

وكانت أملاك الملتزمين من الارض على نوعين : نوع يسمونه بأطيان الفلاحين اذ كان الفلاحون يزاولون العمل فيها لاستدرار خيراتها ابنا عن أب وأبا عن جد . وكانوا يدفعون الضريبة عنها والايجار المستحق عليها ، فكانوا لها بمثابة المزارعين . أما النوع الثانى فكان يعرف بأطيان الاوسية أى أن الاطيان التى اشتراها الملتزمون بأموالهم وأخذوا يزرعونها على حسابهم . وكانت أطيان القرى مقسمة الى أربعة وعشرين قيراطا يملكها ملتزم واحد أو جملة من الملتزمين . وكانت الرابطة بين نوعى الاطيان السالفى الذكر وثيقة الى حد أن الملتزمين كانوا لا يستطيعون أبدا أن يبيعوا شيئا من أطيانهم المعروفة بأطيان الفلاحين الا اذا باعوا فى الآن نفسه جزءا من أطيانهم المسماة بأطيان الاوسية . وكان الملتزم لا تنتقل ملكية أطيانه بعد وفاته الا الى أبنائه أو من يوصى بهم أن يكونوا ورثة له . وعلى كل حال فقد كان من المفروض على الورثة أو الذين احتازوا الارض بمبيعها اليهم ، كلها أو جزءا منها، أن يحصلوا على تقليد الوالى بذلك لكى يجوز لهم الحلول محل المورث فى الحقوق المخلفة عنه . وكان ثمن التقليد مبلغا من المال يعدل القيمة التى اشتريت الارض بها ، فاذا لم يدفع ذلك الثمن آلت الارض الى الحكومة . وكان هذا ما يحصل غالبا ، اذا لم يوص الملتزم المتوفى بدون أن يعقب بأملاكه لاحد . ذلك لانه كان لا يعترف شرعا الا بأبنائه كورثة طبيعيين له .

وقد قلت انهم كانوا يطلقون كلمة الوقف اطلاقا عاما على الاملاك الخاصة بالمساجد ومعاهد البر والاحسان . فاذا كانت هذه الاملاك أطيانا سميت بالرزقة . وكان لها شأن عظيم أيام حكم الدولة العلية والمماليك ، لانها الدلالة الواضحة على أن حقوق الملكية لم تكن مأمونة فى عهدهما . ولما كانت الاوقاف مما لايجوز التصرف فيه بوجه ما ، فقد نشأ عن ذلك أن عددا عظيما من الملاك عمدوا الى

تخويل من يوصون بهم من أفراد أسرتهم حق الانتفاع بأطيانهم بعد وفاتهم فأوقفوها على المساجد . وكان يدفع اليهم جانب من ريعها ليكون لهم بمثابة ايراد ثابت لا يجوز تقاضى الضرائب عنه ولاتمتد اليه مطامع البكوات . وقد بلغت فوائد هذه الاوقاف ومزاياها من قوة التأثير الجاذب للملكية الى حظيرة الوقف ، ما استفز الحكومة الى اصدار أمرها بمنعه ، الا بموافقة منها . فقد خشيت أن ينتهى الامر الى اندراج جميع الاراضى فى سلك الاملاك الموقوفة ووقوع الارزاق الكبيرة بعد ذلك فى ملكية أصحاب النفـوذ والوجاهة من المشايخ ، وأن يتمتـع هؤلاء بها آمنين فى ظل القانون الذى خص الاملاك الدينية بالرعاية والحماية .

تلك كانت حالـة الملكية فى القطر المصرى حينمـا استولى الفرنسيون عليه . ولقد انتقلت اليهم حقوق الحكومة السابقة فى ملكية الاطيان ، غير أنهم لم يستطيعوا جعل الفلاحين ملاكا بالنظر الى انحطاط أحوالهم العقلية والنفسية وقتئذ .

١٠ — التغيير العظيم الذى تم على يد محمد على

فى سنة ١٨٠٨ تم على يد محمد عـلى التغيير العظيم الذى أصبح بمقتضاه مالكا لجميع أراضى القطر المصرى الا القليل منها .

فقـد طلب فى ذلك الوقت من الملتزمين أن يطلعوه على سـندات ملكيتهم ، فلما قدموها اليه قرر بطلانها جميعا معتمدا فى ذلك على حق ملكية ولى الامر أى حق المعترف به للحكومة من قديم الزمان . ومع هذا فقد أراد التعويض على الملتزمين ، فقدر ريع كل منهم من ايراده ودفعه اليهم سنويا من الخزانة. ثم ترك لهم حق الانتفاع ، مدة حياتهم بأراضى الاوسية بعد أن فحص سنداتها فحصا جيدا، وقرر مبدئيا ، لمدارة الاعتقادات الدينية ، احترام الاطيان الارزاقيـة . ولكنه لم يلبث أن ألغاها آخذا على عهدته الانفاق على المساجد وضمانة شعائر الدين ، ثم أجرى على الشيوخ الذين كانوا واضعى الايدى على تلك الاطيان معاشات سنوية . ولم يحتفظ بصفة الوقف الا للاملاك المبنية والحدائق .

وكان يبغى بهـذا التغيير العظيم الذى ملك بمقتضاه أراضى القطر المصرى انماء موارده المالية لسد نفقات الاصلاحات العامة، ولكنه لم يكن يريد القضاء على الملكية الفردية بدليل تنازله منذ بضع سنوات عن أكثر من مائتى ألف فدان ، فضلا عن ابقائه على الاملاك المبنية كما ذكرناه .

وبعد أن حل محمد على محل الملتزمين توثقت عرى الاتصال بينه والفلاحين . فمهدت هذه الخطوة الاولى له تنظيم الزراعـة وتقرير أساليبها واستأجر الفلاحين للعمل فى الارض بالمياومة ، اذ عين للواحد منهم قرشا واحدا يوميا كان يدفع اما نقدا واما أصنافا من الحاصلات . ثم وزع عليهم الاطيان على أن يبقوا مالكين لها دواما الا اذا عجزوا عن سداد ضرائبها . وقرر فى الحالـة الاخيرة أن يحل غيرهم ، من القادرين عـلى السداد ، محلهم فى ملكيتها . وقدم اليهم آلات الحرث وأدوات الزراعة والماشـية اللازمة للرى . وكان على مأمور المركز ان يعين للفلاح مساحة

الارض التى تعطى له ليقوم بحرثها وزرعها . فاذا زرعها وحصد غلتها اشترتها الحكومة منه بأثمان معلومة على أن يكون له التصرف كما يشاء فى الحبوب منها . فاذا باع هذه الحبوب بالمدن دفع عنها من الرسوم النسبية ما يدفعه عما يستنفده أو يبيعه منها فى مكان الزراعة والحصد»

١١ — افكار وخواطر فى النظام الحالى للملكية

كان من تنظيم الملكية على الوجه السالف وما نشأ عنه من الارتباط بين الوالى والفلاحين ، أن انبرى بعضهم لانتقاد هذه الحالة انتقادا مرا يرومون به الحكم على مصروسكانها بمقتضى مذاهب أوربا فى الملكية ، من غير نظر الى ما هناك من الفارق بين أمة شرقية والامم الاوربية . ومما هو أوجب للدهش أن أرى ذلك الانتقاد فيما يكتبه الانكليز الذين يظهر أنهم نسوا الاسلوب الذى تخيروه لتنظيم الملكية فى الهند ، وهو المعروف باسم « زمندار » الشديد الشبه بما تتمشى الملكية على قواعده الآن فى القطر المصرى . على أن التجربة التى قام الفرنسيون بها أيام الحملة والخبرة التى اكتسبها الاوربيون الذين تطاولت اقامتهم بمصر منذ ذلك العهد ، دلتا صراحة على أن النظام الذى سنه محمد على للملكية هو أحسن مايكون من الانظمة وأوفقها لحالة البلاد . اذ لولا هذا النظام لما تقدمت الزراعة بخطوات واسعة فى سبيل الاتساع والاتقان ولا أدخلت الى مصر زراعة النباتات المجهولة بها الى ذلك الوقت مع أن تربتها موافقة لها كل الموافقة ، بل ولا زادت الحاصلات زيادة هائلة فى زمن يسير .

والفلاح المصرى نزوع بطبيعته الى الدعة والسكون لضيق دائرة حاجته ولانها أقل مما يخطر ببال الاوربى أن فيه الكفاية للمرء . فلو ترك وشأنه ، وهو على ما فطر عليه من تلك النزعة ، لادى

تركه الى سقوط الزراعة المصرية . فالنظام الذى سنه محمد على للملكية هو خير الانظمة ، لاسيما وقد تيسر بتطبيقه زيادة ايراد مصر الذى بلغ الى ٦٠ مليون فرنك بعد أن كان لا يزيد علـى ٣٥ مليون فرنك فى سنة ١٧٩٩ أيام الحملة الفرنسية .

ولست أنكر أن هناك اصلاحات جمة تقضى الحاجة بادخالها ، الا أننى أجاوب الذين يأخذون على سمو الوالى انه السبب فى عيوب الحالة الحاضرة بما يأتى .

اولا — أن الحالة الحاضرة افضل بكثير من الحالة السابقة .

ثانيا — انها من الحالات المؤقتة التى تبشر الامة المصرية بمستقبل سعيد محفوف بالخيرات والبركات ، وتمهد السبيل شيئا فشيئا ، بحسب سرعة تقدمها فى طريق المدنية، لتملكها حاصلات الارض .

وأضيف الى ما تقدم أن الحيف سيظل ملازما لتلك الحالة ، اذا لم يصادق فى القريب العاجل على المركز السياسى الذى آل الى محمد على واسرته ، ويزول بلا شك اذا سويت هذه المسألة التى يرتبط بها اما البقاء واما الموت . وانه لمن الجور الفادح والظلم الغاشم أن تلقى على عواهن سمو الوالى نتائج صراع أثير ثائره لغرض هو حرمانه ، بغير حق ، من ثمرات جهوده العديدة الطويلة .

٢

الاحتــــــكار

الغرض من الاحتكار ــ قدمه فى القطـــــر المصرى ــ سبب ضرورته فيه .

١٢ ــ الغرض من الاحتكار

الاحتكار فى مصر ، على عهد محمد على ، هو الحق الذى احتفظت الحكومة به لنفسها فى أن تكون المشترية الوحيدة للشطر الاوفى من حاصلات الارض . ومما انساق الناس اليه عـــلى طريق الوهم ، الاعتقاد بأن هذا الاحتكار سار على حاصـــلات مصر كافة من غير استثناء . وهذا خطأ محض فان هناك أصنافا عديدة من الحاصلات ومن بينها أغلب الحبوب لا تسرى عليها قواعد الاحتكار ، بل ترك للفلاحين حرية التصرف فيها . وانما الاحتكار يتناول القطن والارز والصـــمغ والنيلة والسكر والافيـــون الخ ولا يتعداها الى غيرها .

١٣ ــ قدمه فى مصر

اتخذ خصوم محمد على مسألة الاحتكار تكأة لتوجيـــه التهم البالغة اليه والنيل من شوكته والخفض من كرامتـــه والحط من شـــهرته .

ومما لا مراء فيه أن نظام الاحتكار نظام معيب من عدة وجوه. وانما كان من الواجب ، قبل اعتباره جريمة واسناد هذه الجريمة الى محمد على ، الاقرار بأنه لم يكن ثمرة من ثمار اختراعه . بل

أنه كان معروفا فى سائر انحاء الممالك العثمانية ومعمـولا به ، وأن الخط الشريف لم يصدر بالغائه منها الا من عهد قريب مـع أن هذا الالغاء لا تزال الشكوك تحوم حول صحته أو الدقة فى تنفيذه ، دع أنه بعد هذا وذاك من الانظمة اللاصقة بمصر منـذ قديم الزمان اذ من المقرر المعروف أنه كان معمولا به فى كل زمان، واستمراره ينهض دليلا على ضرورته والحاجة اليه .

الم يعهد الى يوسف (عليه السلام) بعد اذ قام بتأويل الرؤيا لفرعون بجمع حاصلات مصر واختزانها لتـوزع ، فى سنى القحط والمجاعة ، على الاهلين ؟ وهل فى هذا الامر الا الاحتكار بعينه ؟ ولقد أجمع المؤرخون على تمجيد (سيزوستريس) والاشادة بذكره لانه خول رعيته حق الملكية . افليس هذا دليلا ناصعا على أنهم كانوا ، من قبله ، لا يملكون هذا الحق ؟ ومع هذا فقد توافرت الادلة على أن حق الملكية لم يرتكز قط فى مصر على اساس وطيد. وقال أحد مؤلفى مصنف الحملة الفرنسية الموسوم : « تخطيـط مصر » (المجلد السابع عشر ، الطبعة الثانية ـ الحـكومة الحديثة ـ) ما يأتى :

« منذ حدثت أول غارة على مصر ، قام نظام حكومتها على حق الفتح . وقد تمسك بهذا الحق كل من الفرس واليـونان والرومان والعرب والمماليك ، بدون أن يسنوا قانونا لتحـديده وتعيين شرائط التمتع به . واذا كان الشعب المغلوب عـلى أمره قد منح أحيانا حق الانتفاع ببعض قطع من الارض فانه كان يكفى ، لاسترداد هذا الحق غير الثابت ، صدور الامر به بمحض ارادة الفاتح . وتلك لا تزال الحال التى عليها الاملاك المسـماه هنا بالاملاك الخاصة . فانها تبقى مستقرة فى الاسرة ، لا كحـق ناشىء عن الوراثة ، بل كآية من آيات عطف الحكومة التى يبقى

لها دائما محض التصرف فيها طبق مشيئتها . فليست تلك الاملاك اذا ، كما شهدناه الآن ، الا أحد ضروب الالتزام التى تنقلهـا الحكومة من يد الى يد ، بدون أن يكون للمنتفع بها حق التصرف فيهـــا » .

ولقـــد أحست الادارة الفرنســية ، اذا لم يكن بضرورة الاحتكار ، بصعوبة استبداله بحالة أخرى منافية له . على أن الجنرال (ديزه) كثيرا ما فكر فى توزيع قسم من أراضى الوجه القبلى على الفلاحين ، ولكنه لم يستطع وضع هذه الفكرة موضع الاجراء (راجع فى كتاب تخطيط مصر السالف الذكر ، الطبعـة الثانية ، المجلد السابع عشر ، موضوع ـ الحكومة الحديثة ـ) .

١٤ ـ سبب ضرورته

يسهل بمقتضى ما تقدم تعليل الاحتكار واقامة الدليل على قدمه واثبات أن محمد على لم يكن الواضع له من عنـــدياته . ومن الحقائق الثابتة أن النيل ، بفيضانه المنتظم ، أوجد بالقطر المصرى حالة خاصة به . فان هذا النهر ، اذا ترك وشـــأنه ، لا يروى الا القليل من الاراضى اذ تضيع مياهه كلها فى البحر . فاقتضت هذه الحالة احتفار الترع العديدة واقامة الجسور واتخاذ التدابير التى لا يمكن لاحد غير الحكومة أن يقوم بها . وهــــذه الترع والجسور كان من غير الميسور للاهلين ، ما لم يكونوا على ارث من الحضارة والعلم أن يتعهدوها بالعناية لانصرافهم الى شــئونهم الذاتية ، ولا أن يفقهوا لمـــا وراء هذا التعهد من الفائدة العـــامة للبلاد . وهذا فضلا عن أن ادارة تلك الاعمال والحاجة الى من ينجزها من العمال وما يقتضيه اتمامها من وفـــير المـــال ، أمور تستدعى وجود شركات تتعاون على أدائها ، وهو أمر لم يـــكن

ميسورا بالمرة ، عنـــد أمة كالامة المصرية ، بل كان من رابع المستحيلات .

وكان من الواجب على الحكومة ، بعد أن تضــع نظاما لرى الاراضى ، أن تزرع بواسطة الفلاحين الاطيان التى ساقت اليها بذلك مواد الخصب والنماء ، لاستحداث موارد جديدة للمــــال وتوسيع نطاق الزراعة طلبا للمزيد من الحاصلات . ولقد ادركت هذه الضرورة فأعطت الفلاحين ما يلزم من البذور والمواشى وآلات الحراثة لاستثمار الارض محتفظة لنفسها ، فى مقابل ذلك ،بحصة من الحاصلات غير ناظرة الى ما قد يحيط بالسوق من اختــــلاف الاسعار وتذبذبها . ذلك هو بيان اصل الاحتكار فى مصر على عهد محمد على وضرورته .

ومفهوم أنه اذا كانت الادارة قويمة حكيمة رحيمة ، فانهـــا لا تتطلب من المزارع الا ما يلزم لتحصيل ما أنفقته من النفقـــات ومداركة حاجيات الحكومة ، ولكنها اذا كانت طموعة شرهة كما هى فى كل مكان ، فلا تلبث أن ترى نفسها مسوقة الى الاجحاف والظلم . أما اذا اتسع نطاق حاجياتها ، فلا مناص لها من ابهاظ عاتق رعيتها بالكلف الفادحة والفرض الباهظة .

ولمعترض أن يقول انه كان من الاولى ترك الخيار للفــلاحين فى مبيع حاصلاتهم على أن تجبى الحكومة منهم الضرائب نقـــدا عينا ، لمـــا يستتبعه ذلك من تزاحم التجار على الشراء وتنافسهم التنافس الذى تنجم عنه مضاعفة الفائدة للبائع . وجوابى على هذا الاعتراض أن المصريين لم يعتادوا ادخار المـــال لوقت الحاجة اليه، فهم مضطرون بحكم هذه الغفلة الى بيع حاصلاتهم وهى عـــلى سوقها ، أى قبل أن تنضج وتحصد . وهو ما يتأتى منه تحـــكم

المشترى فيهم بفرض الشروط المجحفة عليهم ، وأخذه المحصول الذى اشتراه بثمن بخس دراهم معدودة ، فى اليوم المعلوم ، فيصبح الفلاح المسكين وليس فى يده ما يسد به الرمق . فى حين أن نظام الاحتكار يقضى بتموينه بكل ما يحتاج اليه من الزاد، وقد ترى نفسها بعد ذلك عاجزة عن جباية المستحق لها من الاموال فى ذمته . وشتان بين الحالين .

ولا يخامرن القارىء أننى ممن يذهبون مبدئيا الى تبرئة الاحتكار من العيوب والموانع ، أو يقولون انه غير قابل للتحسين والتعديل . وكل ما أراه أن تفكر الحكومة فى قلب النظام الحالى رأسا على عقب ، بل أدعوها الى التريث حتى يبلغ الغاية القصوى من التحسن والارتقاء . والامثل لمصلحة الجمهور وهو أمر تقره البداهة ويستدعيه الطبع السليم ، اقتضاء أقل ما يمكن من المال من المولين المصريين . غير أن السر كل السر هو فى أن المطالبة بالقليل ينبغى معها أن تكون دائرة الاحتياجات ووجوه الانفاق ضيقة وقليلة معا . فعليكم أن تخفضوا اليوم من غلواء احتياجات الحكومة المصرية ، فان شكواكم من وجود الاحتكار تقل ، اذا لم تنمح برمتها . ويكون محمد على فى طليعة من يهمون باصلاح الفاسد وتقويم المعوج .

٣

الضرائب أو الاموال

الضريبة العقارية أى الميرى — الضريبة الشخصية أو فرضة النفوس والخراج — الضرائب المختلفة والجمارك — آراء فى جباية الاموال .

ايرادات الحكومة من الضرائب ثلاثة أنواع : ايرادات ضريبة الاطيان وايرادات الضريبة الشخصية او فرضة النفوس وايرادات الجمـــارك .

١٥ ـ الضريبة العقارية او الميرى

لمـــا استولى السلطان سليم على مصر اجرى التاريع لشطر كبير من أطيانها ، وقرر بناء على ما ظهر من نتيجة هـــذا العمل مقدار ما كان يجمعه كل ملتزم من الضرائب العقارية . وكانت تتألف هذه الضرائب من ثلاثة أجزاء : الاول وهو أوفاها قدرا كان مخصصا لسداد أموال الميرى والثانى كان مخصصا للكشـــــوفية والثالث لفائض الالتزام .

أما الميرى فكان يؤول الى السلطان ، وأما الكشوفية فالى البك أو الكاشف حاكم الاقليم ، وأما فائض الالتزام فكان يزيد وينقص وكان يعطى للملتزمين كالميرى والكشوفية . وكان لا حق للملتزمين فى فائض الالتزام ، الا اذا أدوا ما عليهم للســـــلطان والكشاف . ثم أنهم فرضوا لانفسهم على الفلاحين رسوما كانوا يدققون فى مطالبتهم بها وكانت تسمى بالبرانى .

ولم تكن الاراضى كلها ، خاضعة على السواء لفرض الضرائب عليها . فان الاراضى التى كانت معروفة منها باسم الرزقة والاثر كانت معفاة منها فكان شأنها فى ذلك شأن الاراضى البور غـــير الصالحة للزراعة . أما الاراضى الرديئة التى كانت للملتـــزمين والفلاحين فكان لها ضريبة معتدلة أقل من الضريبة المفروضة على الاراضى الجيدة أما أراضى الاثر والاوسية فكانت الضريبة تدفـــع عنها بحسب جودتها وكثرة ما تعطى من المحصول وكانت الاثرية منها تدفع عنها الضريبة المعروفة بالبرانى .

أما الآن فلا تمييز بين الاراضى ، لانها أصبحت لا تدفع الا صنفا واحدا من الضرائب وهو الميرى . ومتوسط ضريبة الاطيان مقدرة بما يعدل عشرة فرنكات تقريبا للفدان الواحد ، أما الاراضى الممتازة بالخصوبة ووفرة الحاصلات ، فالضريبة التى تدفع عنها لا تزيد على ما يعدل ١٤ الى ١٦ فرنكا . والاراضى الاقل منهـا درجة فى تلك المزايا تدفع عنها ضريبة تختلف من ستة فرنكات الى ثمانية . ومنذ عهد قريب أعطى الوالى فريقا من المزارعين القادرين على تعهد الاراضى بالحرث والرى لاستثمارها ، ما مساحته ٢٠٠٠٠٠ فدان تقريبا من الاراضى البور ليتولوا اصلاحها وزرعها ، واعفاها من مال الميرى . وهذا المال يعدل نصف ايرادات الحكومة على وجه التقريب .

١٦ ـ الضريبة الشخصية او فرضة الرؤوس

الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس فرع لا يستهان به من موارد ايراد الميزانية المصرية . ويباشر تحصيلها باعتبار كونهـا جزءا من اثنى عشر جزءا من المال الذى يفرض أنه يعدل دخل الممول . والذكور المراهقون كافة ، مسلمين كانوا أو رعيـة ، ملزمون بدفع هذه الفرضة متى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم . وتختلف ، تبعا لتفاوت الناس فى الثروة ، من ١٥ قرشا الى ٥٠٠ قرش . وفى المدن تحصل الضريبة الشخصية عن النفوس ، وفى القرى عن المنازل . ويبلغ ما يحصل من هذه الفرضة عـادة السدس من ايراد الخزانة المصرية .

ويدفع الرعية من الاهلين ضريبة خاصة بهم تسمى الخراج . وقد فرضت فى الاصل بحسب المبادىء المستمدة من القرآن والقاضية على غير المؤمنين بدفع الجزية . وتقدر بوجه عام من

ثمانية قروش الى عشرة . ولا يتجاوز المتحصل منها ١٠٠٠٠ فرنك (١) .

١٧ — الضرائب المختلفة والجمارك

وهناك ضرائب مفروضة على الماشية . فالبقر والجاموس يدفع عنها عشرون قرشا للرأس الواحد وسبعون اذا كانت مخصصة للذبح على أن تبقى الجلود المسلوخة ملكا للحكومة .أما الجمال والنعاج فيدفع عن الرأس الواحد منها أربعة قروش .وأما قوارب النيل فيدفع عن كل قارب ضريبة قدرها مائتا قرش وكذا النخل فانه خاضع لضريبة تختلف بحسب أصناف محصوله ولكن متوسطها قرش ونصف عن كل نخلة .

ورسوم الجمارك المتفق عليها فى الامتيازات الدوليةوالمعاهدات التجارية ، تحصل على البضائع المجلوبة من أوربا الىمصر، وهذا فيما عدا الضرائب التى تعينها الحكومة لتحصل من القوافل الآتية من بلاد العرب وسنار ودارفور الخ .

ولقد رأينا فيما سبق أن بعض الحاصلات تدفع عنها مكوس عند دخولها فى مدن معلومة.

أما الجمارك فمعطاة بالالتزام . ووجه الحكومة فى تفضيل هذه الطريقة أنها تخليها من مشاغل ادارتها والقيام على ضبط

---

(١) أبطل الخراج فى الممالك العثمانية بمقتضى خط كلخانةلانه أفضى فيها الى العبث بحقوق الرعية ولكن نصوص هذا القانون لم يتناولها التنفيذ بعد ولم توضع حتى الآن موضع الاجزاء .

أعمالها . والحاصلون على هذا الامتياز ، وكلهم من التجار الاتراك والارمن ، تتألف منهم شركة أو ما يشبهها لتحصيل الرسوم الجمركية . وهذه الطريقة ، وان تكن حسنة من بعض الوجوه ، رديئة من وجوه غيرها . فاذا كان فى نية الحكومة ابقاؤها ، فقد حق عليها وضع تسعيرة ثابتة للرسوم المراد تحصيلها واتخاذ الاحتياطات الكفيلة باحترام اللوائح والقوانين والعمل بها فى جميع الاحوال والظروف .»

١٨ — أفكار وخواطر فى جباية الضرائب

لسكان مصر ، اذا شاءوا ، أن يدفعوا الضرائب المفروضة عليهم أصنافا من حاصلات أرضهم . وقد وضع لذلك نظام دقيق كفيل بتحصيل الضرائب المفروضة ووصولها الى الخزينة ، ومن شأنه ان يجعل سكان القرية الواحدة متضامنين فى السداد تتوسع دائرة هذا التضامن فتتناول القرى الموجودة فى مركز واحد ، فالمراكز التى تتألف منها مديرية واحدة . ولا شك أن هذا النظام يلجىء العامل الذكى الذى يكد ويكدح ليضاعف ثمرات عمله ، الى سد العجز الناشىء عما لم يكن مسئولا عنه من غباوة زملائه وجيرانه وخمولهم . وفى هذا من الحيف بحقوقه وهضم جانبه ما تأباه أخلاقنا ومذاهبنا فى تصريف العدل بين الناس .

الا ان هذا لا ينبغى أن يحول دون اعتبار طريقة التضامن الآنفة الذكر مطابقة من كل وجه لروح الحضارة الشرقية . فقد عمل بها عمرو بن العاص منذ الفتح الاسلامى اذ تبينت ضرورته فى استفزاز الكسالى والعاطلين من سكان القطر الى ممارسة الاعمال والانصباب عليها . ومع هذا ففى نية سمو الوالى ، متى صرف عنايته الى اتمام التنسيقات والاصلاحات الداخلية التى

اعتزم اجراءها للسمو ببلاده وامته الى الدرجات العليـــا ، وهى العناية ما برح فى حاجة الى صرفها بالخارج ، أن يقضى على كل أثر للحيف والظلم فى الانظمة الحالية ، فيتعهد بنفسه وقتئذ رم الجراح الذى أثخن بها جسم مصر فى السنوات الاخيرة العديدة . وهو يرى أن من بواعث الفخر تخليد اسمه برفع هذا الاثر الجليل الذى يود من صميم فؤاده أن يتولى اقامته لمصلحة مصر ومنفعــة بنيها ، اذا ماانتهى من ارساء قواعد أسرته واعطاء مصر كيانها السياسى الذى لا قوام لها الا به .

٤

ايرادات مصر ومصروفاتها

لكى أزجى الى ذهن القارىء فكرة عن ايرادات مصر ومواردها المــالية الاساسية التى تعتمد عليها فى تدبير أحــوالها وتصــريف شئونها ، سأطرح على نظره جدولا ملخصا من الميزانية السنوية لحكومة الوالى فى سنة ١٨٣٣ الميلادية الموافقة لســـنة ١٢٤٩ الهجرية . واذا تخيرت هذه السنة دون غيرها من السنوات ، فما هو الا لان ميزانية الايراد من هذا التاريخ حتى الآن لم تتغير تغيرا محسوسا .

١٩ — ايرادات مصر فى سنة ١٨٣٣

الميرى أي الضريبة العقارية	٢٨١٢٥٠٠٠ فرنك
الرسوم الشخصية أى ضريبة النفوس	٨٧٥٠٠٠٠ فرنك
الخــــراج	٨٠٠٠٠ فرنك
عوائد التركات (بيت المــال)	١٥٠٠٠٠ فرنك
عوائد المواشى المخصصة للذبيح	٢٥٠٠٠٠ فرنك

عوائد الوكائل والاسواق فى الوجه القبلى	٤٨٠٠٠	فرنك
عوائد الراقصات والموسيقيين والحواة	٦٠٠٠٠	فرنك
عوائد صب الفضة والمقصب	٥٦٢٥٠	فرنك
عوائد (عشور) النخل	٥٠٠٠٠٠	فرنك
عوائد الصيد فى بحيرة المنزلة	٢٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد الملح والقوارب والاسماك	٤٣٧٠٠٠	فرنك
عوائد الحبوب	٤٥٠٠٠٠٠	فرنك
رسوم الجمارك والمكوس	٤٥٠٠٠٠٠	فرنك
عوائد السوائل	٣٠٧٠٥٠٠	فرنك
عوائد السنا (مكى)	٣٤٦٠٠٠	فرنك
عوائد الصيد فى بحيرة قارون والمكوس بالفيوم	٣٢٥٠٠	فرنك
الارباح الناشئة من الاشياء الآتية : القطن والنيلة والافيون والسكر والنبيذ والارز والعسل وجمع العسل والحناء وماء الورد وبذر الكتان والسمسم وبذر الخس القرطم والحرير والزعفران والنتر والجير والمصيص والاحجار والنطرون والصودا وملح النوشادر	١٣٠٠٠٠٠٠	فرنك
الارباح من دار الضرب (الضربخانة)	٣٧٥٠٠٠	فرنك
الارباح من الاقمشة	١٥٠٠٠٠٠	فرنك
الارباح من فاوريقة أقمشة الحرير	١٢٠٠٠٠٠	فرنك
الارباح من الجلود الخام والمجهزة	٨٧٥٠٠٠	فرنك
الارباح من مبيع الحصر	٩٢٧٧٨٧٥٠	فرنك
المجموع	١٦٠٨٥١٥٠٠	فرنك

٢٠ — المصروفات فى سنة ١٨٣٣

أموال مرسلة الى الاستانة	١٥٠٠٠٠٠٠	فرنك

ميزانية الجيش (وكان مؤلفا من ١٥٠٠٠٠ جندى)	١٥٥٠٠٠٠٠ فرنك
مرتبات كبار الضباط ورؤساء المصالح	٥٠٠٠٠٠ فرنك
جمكيات الخيالة الاتراك غير النظاميين	٨١٢٠٠٠ فرنك
أجور العربان	٦٥٠٠٠٠ فرنك
ثمن أدوات حربية	١٧٥٠٠٠٠ فرنك
المعينات للعلف والجمال والبغال	٣١٢٠٠٠ فرنك
المدرسة الحربية	٢٠٠٠٠٠ فرنك
ميزانية موظفى البحرية ورجالها	٧٥٠٠٠٠٠ فرنك
انشاء مبانى حربية	١٨٧٥٠٠٠٠ فرنك
نفقات ترسانة (دار صناعة) انشاء القوارب فى بولاق	٤١٢٥٠٠ فرنك
نفقات الفاوريقات وأجور العمال	٧٥٠٠٠٠ فرنك
مرتبات موظفى الادارة	٢٠٠٠٠٠٠ فرنك
معينات غذائية للموظفين	٦٢٥٠٠٠ فرنك
معاشات الملتزمين السابقين	٤٤٠٠٠٠ فرنك
معاشات ممنوحة لبعض العربان	٧٥٠٠٠٠ فرنك
مصروفات لانشاء القصور والفاوريقات والقناطر والجسور	٢٢٥٠٠٠٠ فرنك
أشياء مجلوبة من أوربا برسم الفاوريقات	١٨٧٥٠٠٠ فرنك
مخصصات لصيانة قصور سمو الوالى	١٢٥٠٠٠٠ فرنك
مخصصات غذائية لسمو الوالى	٥٠٠٠٠٠ فرنك
مخصصات لادارة مشتريات الكشامير والاثواب الحريرية والجواهر الخ	١٧٥٠٠٠٠ فرنك
نفقات قوافل الحجاج	٢٥٠٠٠٠ فرنك
المجموع	٤٩٩٥١٥٠٠ فرنك

٥

الوســـــائل الســـــياسية

١

تشكيل الجيش المصرى وحسن تأثيره فى الحضارة ـ المسيو سيف (سليمان باشا) ـ تنظيم الجيوش النظامية ـ المشـــاة المصرية ـ الفرسان ـ مدرسة الخيالة ـ المدفعية أو الطوبجية ـ مدرسة الطوبجية ـ الادارة العسكرية ـ شوار العساكر (ملابسهم الرسمية) ـ الرتب .

٢١ ـ تشكيل الجيش المصرى وحسن تأثيره فى الحضارة

كانت الحروب ولا تزال حتى الآن ، بالرغم مما تجره وراءها من المصائب والمحن ، أقوى عوامل الحضارة وبواعث الرفاهية . فانه ما انتقل بلد من التعس والشقاء الى السعادة والهناء ، الا وكانت الحروب رائد هذا التحول الذى كثيرا ما يبقى مقرونا باسم فاتح أو رجل عظيم . ومن فحول الرجال الذين يشار اليهم بالبنـــان اسكندر الاكبر وقيصر وشارلمان ونابليون الذين كانوا ، قبل كل شىء ، من رجال الحرب .

وليس بمستطاع لباحث أن يشهد تأثير الحرب ، محســوسا ملموسا فى سائر فروع الحضارة ، كما يشهده فى حالة مصر الآن .

فقد كان كل شىء فى هذا القطر ناقصا بل معدوما ، وكان يجب لايجاده من العدم البدء فى خلقه وتكوينه . وهو ما حـــدث فى مصر على أثر تنسيق النظام العسكرى .

ناصب محمد على الفرنسيين العداء واشتبك معهم فى معارك عدة فأدرك مزايا العمل فى الحرب بمقتضى فنونه وسياسته .وكان همه قبل كل شيء اتخاذ التدابير لصيانة المركز الذى بلغ اليه من الولاية على شئون مصر ، فرأى أن هذه البغية لن تنال الا بقوة السلاح ، فاتجهت جهوده منذ هذا الحين الى تشكيل الجيش . فالجيش الذى شكله بيده هو الذى كفل له الامن فى الداخل والقدرة والشوكة فى الخارج .

ولقد كان من وراء تشكيل جيش منتظم لمصر على المثال الذى حبذه وتوخاه ، نتائج عامة جزيلة النفع ، أولا لان هذا التشكيل كان من شأنه تعويد الامة المصرية النظام ، بعد اذ لم تألف سوى الاختلال والفوضى ، حتى ذلك العهد ، ولم تعامل بغير الضراوة والافتراس من جنود الاتراك والارنؤود الذين اشتهروا بالعصيان والخروج على النظام والسير بالعنف والشدة بين الناس والنزوع الى الفتن فى كل آن .

وكان من نتائج ذلك التنسيق أيضا ، أنها أحلت وحدة العمل وترتيب الدرجات من المرؤوس الى الرئيس وسير الاحوال على النهج القويم وهيبة السلطة ، محل الانحلال والاختلال والضعف وغيرها من العيوب التى كانت فاشية فى كل مكان . ولقد رفع من شأن الشعب المصرى بأن جعل له روحا وطنية استرد بها ما فقده من الثقة والاعتزاز بنفسه وغيرهما من العواطف التى لا بد منها لكل أمة تلتمس الحياة فى ظل الاستقلال . أما النتائج العملية لذلك التنسيق فكانت اكثر عددا وأعظم أهمية ، اذ من المستطاع القول بأنه هو الذى كان الباعث على ما شهدته مصر من أطوار التقدم خلال السنوات الاخيرة .

وكان لا بد فى تنظيم الجيش بحسب الأساليب والانظمة الجديدة ، من معلمين يتولون تدريب الجنود على فنون الحرب . وكان لا مناص ، لاصابة هذه الغاية ، من الالتجاء الى المسيحيين لاختيارهم من بينهم ، وتعويد العساكر الخضوع بالرغم مما هنالك من الاختلاف فى العادات ، وأخذ الفنون العسكرية عنهم منزحف واستعمال أسلحة وتعبئة جيوش وطاعة للرؤساء والنظام المسنون ودقة فى جميع الاجرياء الحربية . وبدىء التنسيق بتدريب العساكر ثم بدت الحاجة الى الضباط اللازمين لتولى قيادتهم فأدت الى نشر تعليم الرياضيات والرسم والجغرافيا وفن تدبير القتال الخ .

ولما تم تشكيل الجيش ، قضت الضرورة طبعا بالنظر فى مداركة حاجاته وتدبير شئونه والعناية بأمره ، من لبس واقامة فى ثكنات تبنى خصيصا له وتخصيص أطباء لمعالجة المرضى منه . واستلزمت مسألة التسليح واعداد المعدات العسكرية انشاء دور الصناعة (الترسانات) والفاوريقات . وتعد الجيوش عادة، ضمن أسلحتها ، المدفعية والفرسان وفرقة الهندسة الحربية . فللقيام على تدبير هذه الاسلحة التى يرجع أمرها الى العلم ، عنى بتوسيع نطاق التعليم ، فأرسل الشبان من الاتراك والمصريين الى أوربا لتلقى علم الحرب فى مدارسها ، وغيره من العلوم والحرف التى لها مساس بعيد أو قريب بالحرب وشئونها .

٢٢ ــ المسيو سيف (سليمان باشا)

الذين عهد اليهم تشكيل جيش الوالى بمقتضى النظام الجديد كانوا جميعا من ضباط عهد الامبراطورية الفرنسيين والايطاليين الذين حالت حوادث السياسة دون مواصلتهم العمل فى وظائفهم فنزحوا من بلادهم قاصدين الى الشرق . وكان من أعظمهم كفاءة

وأوسعهم علما وأحسنهم استعدادا المسيو (سيف) ملازم الركاب سابقا لكل من الماريشال (نى) والماريشال (جروشى) .

ومع رغبتنا الصادقة فى أن لا نغمط حـق أحـد ما من أولئك الضباط الابطال الذين كانوا خير معوان له على أداء المهمة التى عهدت الى كفاءته ، لا يسعنا الا الاعتراف برجوع الفضل اليه فى انجاز تنسيق الجيش المصرى بمقتضى النظام الجديد عـلى أتم ما يرام .

ولد المسيو (سيف) موفقا للقتال . فقد دخل مبكرا فى الخدمة العسكرية عام ١٨٠٤ ومر على التعاقب بالاسلحة المختلفة فكان له من ذلك خير نهزة لتوسيع نطاق معلوماته ، وتنمية كفـاءته وحذقه وللدربة على أنواع الرياضات البدنية التي كان يسـاعده على أدائها قوة بدنه ومتانة أساطينه . وكان من سلامة الطبـع ودماثة الخلق وسعة الصدر بحيث اقترنت جهـوده بالنجاح فى القيام بأعباء المهمة الكبيرة ، مهمة تشكيل الجيش على النظـام الجديد . وقد كان هذا الفوز مما وجه اليه الانظار وجعل كلا من الوالى وابراهيم باشا يقدران كفاءته وينزلانه المنزلة اللائقـة به اذ رقى بالتعاقب الى رتبة بكبـاشى ثم الى رتبة أميرالاى وكان حائزا عليها حينما قام بالحرب فى شبه جزيرة (موره) بعد أن منح لقب البكوية . ولـما انتهت الحملة المصرية ببلاد اليـونان وعاد معها الى مصر ، رقى الى رتبة امير لواء ، ثم الى رتبـة أمير ميران بعد انتهاء حملة الشام مع لقب الباشوية بعد انتهـاء حملة الشـام .

وقد كان ما أبداه من الصفات العالية أثناء خدمته باعثا من بواعث اعجاب الدوق دى راجوز به . لهذا لا أجد باسا من ايراد

رأي هذا الماريشال الشهير فيه منقولا بالحرف الواحد عما كتبه .
قـــال :

« كان سليمان باشا نافذ البصـــيرة فى رأيه طويل الروية فى عمله ، وكان كلما ارتفع درجات فى سلم الترقى ازداد استشعارا بثقل مسئوليته تبعا لانفساح أفق سلطته . وإذ كان من أصـــحاب النظر فى الكتب والاطلاع على ما تحويه من نفائس العلوم والفنون، وسنحت الفرص له مرارا لتطبيق العلم على العمل فاغتنمهـــا ، فقد أصبح بحق فى طليعة ذوى الفضل الكبير والكفاءة العالية . بل أنه وصل فى هذا الميدان الى حد يجيز لى أن أقرر هنـــا أن ما لم تسمح له ظروف الحياة بتعلمه ، قد أدركه وعلمه بطـــريق الحزر والتخمين . ذلك لانه قام بخدمته فى فرنسا وحارب معنـــا حينما كان فى الرتب الصغيرة . فاستظهر أسرار الحروب الكبرى على طريق التخمين كما قلنا ، وكللت الحروب التى اشترك فيها لاجل مصر بالنجاح والفوز الباهر . وهو يحدث عن هذه الحروب حديثا عجيبا ، وله فيها من الآراء ما يطابق الصـــواب دائما ، سواء فيما يختص بتنظيم الجيوش وحركاتها أو بالمبادىء التى ينبغى أن تكون قاعدة هذا التنظيم وهذه الحركات . وصفوة القول أنه قائد مدرب سيحرز ما هو أهل له من الالتفات والاعجاب لدى أركان حرب البلدان الاخرى » .

٢٣ — مبادىء تشكيل الجيوش النظامية

اذكر فيما يلى بيان مبادىء تنظيم الجيوش النظامية فى مصر فاقـــول :

قدم محمد على الى المسيو (سيف) خمسمائة من مماليكه كيما يعلمهم استعمال السلاح ويدربهم على فنون الحرب . وما من عظيم

من عظماء القطر الا وقدم عددا من مماليكه لهذا الغرض ، حتى بلغ عدد أولئك الشبان الفا . وكان المقصـــود أن يكونوا نواة للجيش المصرى ، غير انه لم يكن ميسورا حملهم على رعاية النظام وتلقينهم تلك الفنون فقرر الوالى ارسالهم الى أسوان ، لا ليطيعوا أمره اياهم بذلك فقط بل ايضا ليحول بينهم وأسباب اللهو ويمنع ظنون ذوى التعصب والاوهام الباطلة من التحويم حولهم . وكان الوالى قد انشأ بتلك الجهة اربع ثكنات فسيحة وضع فيها أولئك الالف من التلاميذ وأخذ يعلمهم قواعد فنون الحرب .

وكان تعليمهم مبادىء هذه الفنون يستدعى قضـــاء ثلاث سنوات تقريبا ، فاعترضت هذا النظام موانع كثيرة ، لم تلبث أن ذللت وأزيلت من الطريق . وكان من اهم هذه العقبات ما فطر المسلمون عليه من الشمم واباء الضيم والصفات النفسـية التى تحول دون رضوخهم للمعلمين المسيحيين . وكان النظام والسكوت اللذان لا بد منهما اثناء المناورات العســكرية مما لا يروق لتلك الجماعة من شبان اعتادوا ، منذ نعومة الاظفار ، الالعـــاب والتمارين التى تتخللها الضـوضاء والحركة واختلال النظـام . فلقد دبروا المؤامرات مرارا ضد المسيو (سيف) لاغتياله ، وبلغ من أمرهم معه أنه كان ذات يوم يدير تمرينات ضرب النـار ، فاذا بأحدهم أطلق عليه رصاصة مرت بجوار أذنه وسمع صفيرها . فلم يفقد شيئا من ثبات جأشـه بل استأنف التمرين النارى نفسه وأمر التلاميذ باطلاق النار من جديد .

وحدث مرة أخرى أن نزع التلاميذ الى الفتنـــة وتهـددوه بالتنكيل به ، فاقترح عليهم أن يبارزوه بالسيف جميعا بعضهم تلو بعض قائلا انه يريد بذلك أن يقيهم معـرة الجبن ، اذا قتـلوه غيلة . فلم يسع الثـائرين أزاء هـذا التسامح الغريب والبسالة

النادرة الا أن كسروا من شرة حدتهم . وبعد اذ كانوا ناقمين عليه صاروا أولياء له يخصونه بالحب الشديد والاحترام . ولقد تمكن بفضل هذه العواطف من اتمام تعليمهم فى مدة ثلاث سنوات .

وبعد أن تكونت على المثال المتقدم الهيئات الاولى من الضباط، شرع فى حشد العساكر وتكوينهم . وكان الوالى لا يذهب الى اختيارهم من الاتراك أو الارنؤود ، لافضاء الجهود التى بذلت فى سبيل تنظيمهم الى الفشل والخيبة ، بسبب أنهم كانوا يجهلون النظام ويكرهون بفطرتهم الرضوخ لاحكامه . وكان من جهة أخرى لا يميل الى المجازفة بأخذهم من المصريين فلم يجد بابا للحيلة مفتوحا أمامه الا الاعتماد على تجنيد السودانيين من أهل كردفان وسنار . ولقد جند فعلا منهم ثلاثين ألفا ، وأرسلهم على الفور الى بنى عدى بالقرب من منفلوط فى الوجه القبلى على الضفة اليسرى للنيل . وفى الوقت الذى وصلوا فيه اليها ، أخذ شبان المماليك الذين تلقوا العلوم العسكرية بأسوان يبرحونها قاصدين الجهة الآنفة الذكر لتولى الرياسة على أولئك العساكر السودانيين وما أقبل شهر يناير سنة ١٨٢٣ حتى تألفت الاورط الستة الاولى وعين أولئك المماليك ضباطا لها وقضيت سنة ١٨٢٣ كلها ثم الاشهر التالية الى يونيو سنة ١٨٢٤ فى اتقان التعليم العسكرى وترقيته. ولما لاح للوالى نجاحه انفذ بالاورطة الاولى من تلك الاورط الست الى بلاد العرب الوسطى ، وبالاورطة الثانية الى سنار وبالاربع الباقية الى شبه جزيرة موره تحت امرة ابراهيمباشا .

على أن هذه التجارب الاولية لم تتوج كلها بالنجاح ، فان السواد الاعظم من السودانيين الذين جندوا من كردفان وسنار فشا بينهم الموت لعدم موافقة جو مصر لامزجتهم . دع أنهم كانوا لا يصلحون فى الحقيقة لتحمل اعباء الخدمة العسكرية كما ينبغى.

وكان لا يمر يوم الا ويزداد شعور الوالى فيه بالحاجة الى جيش منظم لتنفيذ مقاصده العالية وبلوغ مطامحه البعيدة فاعتزم حشد الجنود من المصريين . وكانت هذه المجازفة محفوفة بالاخطار الكبار ، كما يثبته تذمر الامة المصرية ونزوعها الى الهياج فى جهات متعددة حتى اضطرت الحكومة الى التداخل لاخمادها . ولكن لما رأى الفلاحون الذين انتظموا فى سلك الجيش مايعاملون به من الرعاية وحسن العناية بشئونهم ورأوا أنهم يتغذون ويلبسون أحسن مما كانوا فى بيوتهم ، انتهى الامر بهم الى اعتياد حالتهم الجديدة والاغتباط بها .

ولما عظم شأن التنسيق العسكرى بحسب النظام الجديد وظهرت أهميته للناظرين ، استدعت الحكومة من فرنسا الجنرال (بوابين) والكولونيل (جودان) وجملة من كبار الضباط الذين كان لهم الاثر الظاهر فى اتمام ذلك التنسيق على خير ما يرام .

٢٤ — المشاة او البيادة المصرية

كان تشكيل جنود المشاة المصرية أول ما استرعى انظار الحكومة واستدعى عنايتها . فلا عجب اذا ظل هذا التشكيل موضوع اهتمامها المستمر ، حتى انها انشأت بثغر دمياط مدرسة لتخريج الشبان اللازمين للاندراج فى سلك الجيش كصف ضباط أو ضباط . وبهذه المدرسة الآن أربعمائة تلميذ يدربون على المناورات الحربية والادارة العسكرية ويتلقون اللغات العربية والتركية والفارسية . وناظرها ضابط من مقاطعة (بييمونت) وهو المسيو (بولونيى) الذى كان ضابطا برتبة اليوزباشى فى عهد الامبراطورية . وقد ترقى فى مصر الى رتبة القائمقام مكافأة له على ما أداه من الخدمات الجليلة كمعلم لفنون الحرب واشعارا بما أحرزه من النجاح فى مهمته .

ولقد شهد الدوق دى راجوز فيلقا من المشاة المصرية اثناء قيامه بالمناورات فكتب مايأتى :

« كان لواء المشاة المؤلف من الاورطة التاسعة والاورطة العشرين متأهبا للرحيل الى السويس للابحار منها الى الحجاز لتعزيز الحملة المصرية فيه . فتوليت بنفسى عرضه فقام بالمناورات امامى مدة ثلاث ساعات فى سهل القبة القريب من قبور الخلفاء وقبر الملك العادل أخى السلطان صلاح الدين . فرأيت منه ما استوجب سرورى واعجابى . وكان عساكر اللواء المذكور فى مقتبل العمر ، فتيسر بذلك لى الحكم بما كان للقائد الاعلى للجيش من الاثر الجليل فى تشكيله . والحق يقال ، فان العساكر الذين عرضتهم جمعوا الى الدراية بالاساليب العسكرية حسن الهيئة ودقة المحافظة على النظام » .

٢٥ ــ الخيالة او الفرسان

لم يبدأ تشكيل الخيالة بحسب النظام الجديد الا عقب عودة الجيوش المصرية من حرب مورة . فان ابراهيم باشا كان قد رأى فى هذا البلد الخيالة الفرنسيين ، فادرك مايكون من الاهمية للفرسان الذين يعملون جماعات أو شرائم او اورطا والامتياز على الفرسان غير المنتظمين ، وان هذا الامتياز يشبه نظيره فى المشاة المنتظمة بالنسبة له فى المشاة غير المنتظمة . وبمجرد عودته الى مصر صرف همته بنشاط ومثابرة الى تشكيل الخيالة بحسب النظام الجديد واستدعى لهذا الغرض المعلمين الاوروبيين وشكل اورطا عديدة من الفرسان على اختلاف انواعها . من صيادة ومدرعة ورماحة الخ .

٢٦ ـــ مدرسة الخيالة

انشئت مدرسة الخيالة فى الجيزة بقصر مراد بك . وقد طبق عليها حديثا نفس النظام المعمول به فى مدرسة الخيالة بمدينة (سومور) بفرنسا مع رعاية ماإقتضاه المكان من اختلاف بعض التغيير والتبديل . ويتعلم بهذه المدرسة شبان من الاتراك والمصريين ، مختلطين بعضهم ببعض ، ضروب المناورات على الخيل والقدمين والرسم والمبارزة والادارة العسكرية .

قال الدوق دى راجوز : « وقد بلغت هذه المدرسة درجة الكمال وسيكون لها التأثير العظيم فى مستقبل الجيش المصرى ويتلقى العلم بها الآن ثلاثمائة وستون شابا منقسمين الى ثلاثثلل . والذى قام بانشائها ويتولى ادارتها الآن هو القائمقام (فارون) الذى كان فيما سبق ملازما لركاب الماريشال (جوفين سان ستير) .

وعلى أثر رحيل الدوق دى راجوز من مصر أنعم على المسيو (فاران) برتبة البكوية ورقى ميرالايا . وهى مكافأة عادلة على خدمه الجليلة لمصر ولسمو الوالى .

٢٧ ـــ المدفعية او الطوبجية

شكلت المدفعية النظامية فى الوقت نفسه الذىشكلتفيه المشاة النظامية . وغنى عن البيان أن الذين انشأوها طبقة من المعلمين الاوربيين وجماعة من الضباط السابقين فى عهد الامبراطورية . ومن الاتراك الذين تفرغوا لاتقان هذا السلاح جماعة فازوا فيه بالقدح المعلى ، وفى مقدمتهم الضابط القدير أدهم بك[١] . وهذا

---

(١) هو الان وزير المعارف العمومية .

الضابط الممتاز هو الذى أنشأ معامل صنع السلاح والمدافع الموجودة بقلعة القاهرة ويقوم الآن على ادارتها . ولقد أشار الماريشال (دى راجوز) الى تلك المعامل ، وهو ممن يوثق بحكمهم فى مثل هذه الموضوعات ، فقال : « انه لا يسع من شهدها الا الاطراء فيها » وانه ليسرنى بهذه المناسبة أن أثبت هنا رأى الماريشال فى كفاءة أدهم بك وحكمه على ذكائه واقتداره. قال : « لقد تعلم أدهم بك اللغة الفرنسية بقوة ارادته وعلى غير أستاذ ، وهو صحيح اللهجة فيها . وتعلم الرياضيات بفروعها فقبض على ناصيتها وأحاط بشتات المعلومات الخاصة بفن الطوبجية . وأرى أنه يناظر فيها أحسن ضباط المدفعية وامهر مديرى الادوات المتعلقة بها ، وأنه أقدر من عرفتهم من الناس فى الشئون الادارية . ولا شك أن محمد على كان صادق النظر حينما اختار مثل هذا العامل النشيط بل كان سعيد الطالع بعثوره على مثله .

٢٨ — مدرسة المدفعية أو الطوبجية

انشئت ببلدة طره ، منذ سنوات ، مدرسة للمدفعية تحتوى الآن من ثلاثمائة الى اربعمائة تلميذ يعلمون اللغتين العربية والتركية والحساب والجبر والهندسة والحيل (الميكانيكا) والرسم والاستحكامات ، وكل ما هو صالح من العلوم العالية للتطبيق على المدفعية . ولقد أدى البرتغالى الميرالاى (ساجرا) الذى تولى ادارة هذه المدرسة سنوات عديدة ورقى من فيض أنعم سمو الوالى الى رتبة امير لواء ، خدما جليلة لها . والحقت بالمدرسة اورطة للمدفعية المشاة واورطة اخرى للمدفعية الفرسان . وانشىء لها ميدان ضرب نار (بوليجون) يصلح فى آن واحد للجنود والتلاميذ .

وهاك ما نكره عن هذه الجنود الدوق دى راجــوز الذى لا يسعنى الا الاعتماد عليه والاستمداد بآرائه الصائبة وافــكاره العالية فى الموضوع . قال :

« تحركت أمامى أورطة المدفعية الراكبة للمنــاورات ، وكانت مؤلفة من ستة بلوكات ، فقامت بها على اتم ما يكون من الترتيب والدقة وبأقصى ما يراد من السرعة .

وكان رجالها على ما يرام من حسن الهيئة وســـعة العلم والدربة ونظام الحركات العسكرية ، كما كانت مركبات المدافــع مستوفية لشروط الاتقان ، وان تكن الخيل التى تجرها صــغيرة الجسم . وكل خيل القطر المصرى من هـــذا القبيل . ورجال المدفعية مجهزون بما يلزمهم تجهيزا حسنا ، وهم لايخطئون الهدف بل يصيبونه بدقة وسرعة . فالمدفعية المصرية جامعة لشروط الكمال والاتقان وتشبه من هذه الجهة مدفعيات الجيوش الاوروبيـــة . وأميرالايها من الرجال الاكفاء الممتلئين نشاطا وغيرة . أما أورطة المدفعية المشاة فتتألف من ثمانية عشر بلوكا وقد قامت بتمريناتها امامى فالفيت ان مدافعها كانت تصوب مقذوفاتهــا نحو الهــدف تصويبا حسنا . أما نار مدافع الهاون ، فكانت أقل ضبطا منها واحــكاما .

« ولا يسع الرائى لهذه المدفعية الا الاعجاب بالقوة التى حولت الفلاحين الذين ديدنهم الاستنامة الى الدعة والسكون ، الى جنود على جانب عظيم من البسالة والاقدام » .

واستميح الدوق دى راجوز الاذن لى بايراد آخر عبارة كتبها فى هذا الموضوع ، على سبيل الحكاية ، فقد قال :

« ومتى تخرج من المدارس نحو ألفـــين أو ثلاثة آلاف من تلاميذها ، وهو ما لا بد حاصل فى بضع سنوات ان شاء الله ، فان الجيش المصرى يكون قد تم تشكيله بحسب النظام الحـديث فيبارى أمثاله فى الديار الاوربية » .

٢٩ — الادارة العسكرية

نسقت الجيوش المصرية كلها من مشاة وفرسان ومدفعيـة على نمط الجيوش الفرنسية . وأتبع فيها ما هو متبع عنـــدنا من الاساليب والانماط فى أداء الحركات والسير ، وسلكتفى نظامها الموسيقات العسكرية . وتم التشاكل من كل وجه تقريبا فلم تبق مغايرة الا فى النداء بالاوامر التى يصدرها الضباط الى الجنـود فانه حاصل باللغة التركية لانها من أنسب اللغات لاداء هــذا الغرض . وطبقت على الجيش المصرى القـوانين والاوامر التى يدار بمقتضاها الجيش الفرنسى تطبيقا دقيقا محكما . وبلغ من المغالاة فى التقليد والاخذ عنا أن الرتب العسكرية فى ذلك الجيش مطابقة بالضبط لها فى هذا .

وقد أنشئت منذ البداية ، للقبض على زمام الجيش وادارة شئونه ، نظارة على نظام أبسط من نظامها عندنا ، مع توسـع فى اختصاصاتها . فنظارة الحربية المصرية هى المنوط بها جميـع ما يورد الى الجيش من سلاح ومعدات وثياب. وهى التىتستخرج من مخازن الحكومة ومستودعاتها ما يلزمها من الذخائر والمـؤن الغذائية والادوية الخ .

وادارة الفيالق فى الغاية القصوى من البساطة والخلو من التعقيد فانها لا تحرر عقودا بشراء ، ولا تساوم أحدا على ثمن ولا تطلب اعتمادا من احد ولا تحول اعتمادا من باب الى غيره. وفى اتباع هذا الاسلوب الساذج وقاية من الاختلاس والسرقة .

أما مصلحة الصحة ، فقد جعل النظام الفرنسى قاعدة لتنسيقها وترتيبها ، مع شيء من التعديل الذى يتطلبه اختلاف البيئات . ولكل أورطة من الموظفين والادوات العدد اللازم والمقدار الكافى لتشكيل المستشفيات الخاصة بالاورط كلما مست الحاجة . وسنفيض فى الكلام على هذا الموضوع بالفصل الذى سنشرح فيه حالة الطب فى القطر المصرى .

وأغذية العساكر عبارة عن معينات من الخبز واللحم والارز والعدس والسمن والزيت والصابون وكلها من الصنف الجيد وبالمقادير الكافية .

٣٠ ـ شوار الجنود

شوار الجنود أى ملابسهم الرسمية المتشابهة ، فى الغاية القصوى من البساطة . وهى ، على صلوحها وفائدتها ، حافظة للزى الوطنى الاصلى بقدر المستطاع لتألفها من طربَوش أحمر ، (والعقائد الدينية تحول دون اتخاذ قلنسوة تشبه قبعة المسيحيين) وصدرية كالشعار متشابكة على الصدر ومحشورة فى السروال . والسروال يثبت بتكة على الوسط ويذهب عريضا واسعا الى الركبة حيث يضبط برباط الساق (القلشين) ، ويدار على الجسم حزام . والملابس تكون من الجوخ لفصل الشتاء ومن قماش القطن السميك لفصل الصيف . ويلبس الفرسان ورجال المدفعية ورجال الحرس ، شتاء ، صدرية زرقاء اللون وغيرهم صدرية حمراء . وفى الصيف يرتدى رجال الجيش كله الملابس البيضاء ويحملون أحذية تركية من الجلد الاحمر . وأما مجموعة الادوات الجلدية الخاصة بالسلاح فبيضاء اللون للمشاة والفرسان وصفراء للمدفعية .

ولا يختلف شوار الضباط عن شوار العساكر الا فى نوع الجوخ وما هو مجمل منه من الوشى ، واللون الاحمر خاص بالضباط . أما الشارات التى تميـــزهم بعضهم عن بعض بحسب مراتبهم ودرجاتهم فهى : يحمل الاونباشى شريطا واحدا على الصــدر والجاويش شريطين والباشجاويش ثلاثة . أما الملازم الاول فيحمل على الصدر من ناحية اليمين نجمة فضية واليوزباشى نجمة وهلالا فضيين والصاغقول أغاسى هلالا من الذهب ونجمـــة فضــية والبكباشى هلالا ونجمة من الذهب والقائمقام هلالا من الذهب ونجمة من المــاس والميرالاى هلالا ونجمة كلاهما من الماس وأمير اللــواء نجمتين فى هلال وكلها من الماس والميرميران ثلاثة نجوم فى هلال وكلها من الماس .

٣١ — الرتب فى الجيش

الرتب فى الجيش كما يأتى :

الاونبــاشى

رئيس العشرة

الجــاويش

الباشــجاويش

الصول قول اغاسى

مساعد اليسار

الملازم الثانى

التالى الثانى للرئيس يساعده وينوب عنه

الملازم الاول

التالى الاول للرئيس يساعده وينوب عنه

اليوزباشى

رئيس المائة

الصاغقول أغاسى

مساعد اليمين

البكباشى

رئيس الالف

القائمقام

الذى ينوب مناب المير الاى

المير الاى

أمير الالاى

المير لواء

امير اللواء

المير ميران

أمير الامراء

السر عسكر

رئيس القواد

وأمراء الالايات وأمراء الالوية يحملون لقب البكوية أما الميرميرانات فيحملون لقب الباشوية ذات الذنبين .

٣٢ — المرتبات والماهيات

مرتب الجندى البسيط خمسة عشر قرشا فى الشهر أى ما يعدل صلديين ونصف صلدى فى اليوم . ومرتب الاونباشى خمسة وعشرون قرشا ، والجاويش ثلاثون ، والباشجاويش أربعون ،

والصولقول أغاسى ستون ، والملازم الثانى مائتان وخمســـون ، والملازم الاول ثلاثمائة وخمسون ، واليوزباشى خمسمائة، والقائمقام ثلاثة آلاف ، والمير الاى ثمانية آلاف والمير لواء أحد عشر الفـــا ، والمير ميران اثنا عشر ألفا وخمسمائة .

ومرتبات كبار الضباط جسيمة ، على ما يؤخذ مما تقدم وسبب ذلك أن سمو الوالى كان يريد استمالة الاتراك الى النظام الحديث فى الجيش على أثر ما أبدوه من النفور الشديد منـــه ، دع أن الرؤساء فى الجيش تدعوهم طبيعة مركزهم الى بسط اليد بالنفقة.

٣٣ ـ الطاعة للرؤساء

الطاعة للرؤســــــاء فى الجيش المصرى جارية على مثالها فى الجيش الفرنسى . فان القانون العسكرى الفرنسى ، الباحث فى هذا الموضوع ، قد ترجم من اللغة الفرنسية ليعمل بنصوصه . وفى بادىء الامر ، اضطر الى استعمال الجلد عقابا للمخالفين . ولكن سمو الوالى وابراهيم باشا حصرا استعماله فى دائرة ضيقة والهمة متجهة الآن الى الغائه بالمرة .

٣٤ ـ الروح العسكرية فى المصريين

ربما كان المصريون من أصلح أهل الارض لان يكونوا أفضل الجنود وأحسنهم . لانهم بوجه عام يمتازون ببدانة الاجســــام وتناسب الاعضاء والقناعة بالقليل والقدرة على العمل واحتمـــال المشاق والاتعاب . ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للاوامر والبسالة والثبات عند الخطر ومقابلة النـــوازل والمحن بالاتكال والصبر والانصراف نحو النار وتوسط معـــامع القتال ، بلا وجل ولا تردد . والحوادث للدلالة على ذلك كثيرة نكتفى منها بما يأتى :

حدث فى معركة حمص أن جنديا من الاورطة السابعة الفرسان يدعى منصورا انتزعت ذراعه من جسمه بقنبلة فأبى ، وهو فى هذه الحالة ، التراجع عن ميدان القتال بل تقدم رجال كتيبته حاملا على العدو بأشد ما يكون من البأس والبسالة . وظل يحارب الى أن مات .

وحدث فى معركة (قونيا) أن ترك جميع الجرحى الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح ، أسرتهم فى المستشفى قاصدين الى ميدان القتال لمساهمة اخوانهم مجد الانتصار أو شرف الموت.

وفى تلك المعركة سقط جندى من الاورطة الرابعة الفرسان عن ظهر جواده مصابا بجرح ، فلما شهده امير لوائه احمد المنكلى سارع بتقديم جواده اليه ، لكى يرجع به الى الساقة فأبى الجندى قائلا انه يفضل البقاء فى ميدان القتال ليشهد اخوانه منتصرين ، ولو لقى حتفه .

وفى احدى المعارك أصيب فتى من جنود الاورطةالخامسة عشرة بجرح ، ورأى رفاقه فى فصيلته يذهبون كل مذهب فرارا من العدو . فعلى الرغم من استنهار جرحه واحتدام نار القتال حوله لم يكف عن النفخ فى بوقه باشارة الاستمرار على الحملة ومتابعة الهجوم ، ولم يتراجع خطوة واحدة الى الوراء . ولما شهد زملاؤه الفارون فعله عراهم الحياء من رؤيته ، وهو فتى صغير جدا ، يضرب لهم أمثال الشجاعة والبطولة ببسالة فلموا فى الحال شعثهم وجمعوا فلولهم ثم عادوا الى القتال ليثأروا لشرفهم الذى ثلمه العدو برهة ما من الزمن .

ومن اهم الحوادث وأجدرها بالذكر ، لا سيما وأن فيهـــا ما يذكر بشهامة الفرنسيين وبسالتهم ، أن سليمان باشـــا كان ذات يوم يعرض أورطة وصلت اليه حديثاً . فوقع نظره على فتى نحيل ضئيل فى السادسة عشرة من عمره يدعى بالحاج على . فهم سليمان باشا برفضه معترضا على تجنيد مثله ، وهو فيما يشاهد من ضعفه وظهور علامات المرض على وجهه فأبى الحاج على الا أن يبقى تحت السلاح قائلا لسليمان باشا انه لسوف يكذب سوء ظنه فيه ويدحض خطأ حكمه عليه فى أول نهزة ينتهزها لذلك . وكان الجيش المصرى ضاربا الحصار على (عكا) فخــــرجت الحامية يوما وتغلبت على المشاة المصريين وألزمت جنود الاورطة الثامنة المقاتلة فى الجبهة ملازمة الهزيمة . فتقدمت الاورطة الثالثة من الفرسان التى كان الحاج على منتظما فى سلكها لتعزيز جانب أولئك الجنود وحملت حملة باهرة صدت فيها المحصــــورين الى مواقعهم . ولكن الحاج على لم يكفه أنه شاطر رفاقه فخــــار فوزهم بل أنقذ بيده يوزباشيا كان على وشك الوقوع فى أســـر العدو . ثم انقض على ضابط تركى فأسره وجاء بالضــــابطين المصرى والتركى الى سليمان باشا وقال له : « الا تزال تعتقـــد أننى جندى لا أصلح لشىء ؟ » .

وكان الاتراك ، لما يشـــعرون به من علوهم وكبريائهم يحتقرون المصريين ولا يكترثون بهم ويعتقدون بهم العجــــز عن مجاراتهم . ولكن حرب موره أثبتت لهم بالبرهان القاطع أن ذلك الشعب الخجول المنجمع ، الذى أذله الضغط والعسف ، قـــدير على استرداد مجده القديم وأهل لمنازعتهم على فخــــر النجاح والفوز فى القتال . ولقد أثبت لهم فتح الشام وانتصارات (حمص) و (بلان) و (قونيا) سموهم الذاتى عليهم باعتبار كونهم أفرادا كما

أثبت شوكتهم باعتبار انهم جموع مسوسة بقواعد علم خطط القتال وتدابيره .

على أن المصريين الذين يستحقون هذا الاطراء العظيم بوصف كونهم جنودا ، لا يستحقونه أبدا متى وصلوا فى مدارج الترقى الى مراتب القيادة ، لانهم فى المراتب العالية لا يشعرون بكرامة مراكزهم الجديدة ووجاهتها فهم يغايرون العثمانيين والمماليك فى الاهلية للقبض على زمام القيادة . وسرعان ما يتحولون الى عاداتهم القديمة بما اضطر سمو الوالى وابنه ابراهيم ، على الرغم منهما ، الى العدول عن ترقيتهم وترفيعهم الى المراتب السامية فى الجندية .

وتلقاء هذا النقص ، أسندت الى المماليك والاتراك فى الجيش المناصب العليا . وليس بمستبعد أن تكون قلة اهلية المصريين للقيادة من الظروف الملائمة لجريان الاحوال على مقتضى الواجب فان الشعب المصرى سريع التقلب عديم الثبات الى حد يخشى معه، فيما لو سلمت قيادة الجنود الى ضباط منه ، نزوعهم الى الهياج والثورة . أما وقد وضع النظام على الترتيب السابق فان العساكر يخضعون لضباطهم ويستطيع هؤلاء الزامهم بتنفيذ أوامرهم لما يتخذونه من وسائل الاحتياط والتحفظ لذلك لا سيما وانهم لا يستطيعون الاعتماد عليهم ، كما لو كانوا من أبناء جنسهم .

والشعور العائلى من أخص صفات المصريين ،فهم لايستغنون عن الانس بنسائهم . ولقد أذن لهم من أجل ذلك بأن يكون معهم بعض أقاربهم وبأن يتزوجوا ايضا . ولولا هذا الاحتياط لتعذر صدهم عن الاندفاع فى تيار العصيان والشغب ومنعهم من التشرد . على أنه لما يهم فى بلد قليل عدد السكان كالقطر المصرى ،

أن يساعد الخمسون أو الستون الفا من الجنـــود المصريين ، بزواجهم وهم فى الجيش ، على تكثير النسل . ومفهوم أنه اذا تحرك الجيش للقتال يفارق هؤلاء الجنود زوجـــاتهم واولادهم ويزحفون وحدهم الى ميدان القتال .

وتهتم الحكومة ، فى مثل هذه الحالة ، بأطفالهم وتتـــولى الانفاق عليهم فترتب من التعيينات الغذائية لكل منهم ما يعـدل نصف المرتب الذى يتقاضاه آباؤهم .

٣٥ ـ جدول القوات العسكرية المصرية وتوزيعها

نذكر فيما يلى بيان القوات العسكرية المصرية قبل الحــرب الاخـيرة :

حرس صاحب السمو الوالى وهو مؤلف من أورطة من المدفعية وثلاثة آلايات من المشاة وآلايين من الفرســـان اى من ١٢٠٠٠ عسـكرى .

حرس شرف السر عسكر وهو مؤلف من ٥٠٠ عسكرى .
أورطة أساس الضباط وهى مؤلفة من ٨٠٠ عسكرى .
خمسة آلايات من المدفعية منها ثلاثة من المشاة واثنـــان من المشاة الراكبة وعدد عساكرها ١١٦٠٠

ستة عشر بطرية كل بطرية مؤلفة من ستة مدافع وعـــدد عساكرها ١٨٠٠

الاى الحملة مؤلف من ١٢٠٠ عسكرى
أورطتان للهندسة وعدد رجالهما ١٦٠٠
ستة وثلاثون الايا من المشاة وعدد عساكرها ١١٥٠٠٠

- خمسة عشر الايا من الفرسان عدد عساكرها ١٢٠٠٠
- جيوش غير نظامية مؤلفة من الكريديين والارنؤود والعربان وعددهم ٢٦٠٠٠ مقاتل

المجمــوع ١٨٠٠٠٠ تقريبا .

وهاك عدد عساكر جيوش محمد على الآن وبيان الجهات التي يقيمون بها :

جيــوش نظــامية

بيان الجيوش	محل الاقامة	عدد العساكر
الآلاى الاول من طوبجية الحرس	حماه	١٣٧٢
الآلاى الثانى من طوبجية المشاة	الاسكندرية	٢٣٤٩
الآلاى الثالث من طوبجية المشاة	حلب	١٩٤٩
الآلاى الاول من طوبجية الراكبة	حمص	٩٨٢
الآلاى الثانى من طوبجية الراكبة	دمشق	١٠٠٧
اربع فصائل من طوبجية متفرقة	عكا	٣٣٧
الاورطة الاولى من المدفعية	الحجاز	٣٧٩
الآلاى الاول من مشاة الحرس	عينتاب	٣٠٤٨
الآلاى الثانى من مشاة الحرس	مرعش	٢٦٤٥
الآلاى الثالث من مشاة الحرس	حلب	٢٤٣٥
الآلاى الاول من المشاة (الاورطة الخامسة)	السودان	٤٥٤٧
الآلاى الثانى من المشاة	عينتاب	٢٢٥١
الآلاى الثالث من المشاة	اليمن	١٥٢٦
الآلاى الرابع من المشاة	مرعش	٢٥٩٣
الآلاى الخامس من المشاة	آطنبــه	٢٦٢٩
الآلاى السادس من المشاة	قليس	٢٣٦٢
الآلاى السابع من المشاة	الحجاز	٢١٩٢

الآلاى الثامن من المشاة	السودان	٣٣٩٦
الآلاى التاسع من المشاة	حلب	٢٣٠٤
الآلاى العاشر من المشاة	حلب	٢٠٥٤
الآلاى الحادى عشر من المشاة	أورفه	٢٣٣٨
الآلاى الثانى عشر من المشاة	عينتاب	٢٣٢٦
الآلاى الثالث عشر من المشاة	الحجاز	١٢٢٥
الآلاى الرابع عشر من المشاة	حلب	١٩٨٨
الآلاى الخامس عشر من المشاة	الدرعية	٢٥٥٥
الآلاى السادس عشر من المشاة	قنـديا	٣١٤٩
الآلاى السابع عشر من المشاة	أورفه	٢٣٦٩
الآلاى الثامن عشر من المشاة	عـكا	٢٠٤٩
الآلاى التاسع عشر من المشاة	الحجاز	٢٣٤٩
الآلات العشرون من المشاة	اليمـن	٢٦٧٧
الآلاى الحادى والعشرون من المشاة	الحجاز	٢٣٦٣
الآلاى الثانى والعشرون من المشاة	أورفه	٢٢١٢
الآلاى الثالث والعشرون من المشاة	ينبـع	٢٣٤٢
الآلاى الرابع والعشرون من المشاة	انطاكيه	٣١٣١
الآلاى الخامس والعشرون من المشاة	أورشليم	١٧٥٥
الآلاى السادس والعشرون من المشاة	القاهرة	٣٣١٨
الآلاى السابع والعشرون من المشاة	الحديدة	٢١٢٩
الآلاى الثامن والعشرون من المشاة	الحديدة	٢٤٤٦
الآلاى التاسع والعشرون من المشاة	آطنـه	٣١٧٢
الآلاى الثـلاثون من المشاة	حمـاه	٢٩٢٥
الآلاى الحادى والثلاثون من المشاة	حلب	٢٤٠١
الآلاى الثانى والثلاثون من المشاة	القاهرة	٣٣١٨
الآلاى الثالث والثلاثون من المشاة	الاسكندرية	٢٦٠٤

الآلاى الرابع والثلاثون من المشاة	قليس	٢٥٦٤
الآلاى الخامس والثلاثون من المشاة	القاهرة	٣٣١٨
الآلاى الاول من فرسان الحرس من المشاة	اللاذقية	٧٩٦
الآلاى الثانى من الحرس المدرعين	بيسان	٨٤٤
الآلاى الاول من الفرسان	أورفه	٨٢٥
الآلاى الثانى من الفرسان	زامبيا	٨٣٠
الآلاى الثالث من الفرسان		
فى الطريق الى الاسكندرية		٨٤٧
الآلاى الرابع من الفرسان	آطنه	٦٧٨
الآلاى الخامس من الفرسان		
فى الطريق الى الاسكندرية		٨٣٢
الآلاى السادس من الفرسان	دمشق	٧٧٠
الآلاى السابع من الفرسان	طرسوس	٧٤٢
الآلاى الثامن من الفرسان	دمشق	٧١٢
الآلاى التاسع من الفرسان		
فى الطريق الى الاسكندرية		٨١٦
الآلاى العاشر من الفرسان	عكا	٧٦٨
الآلاى الحادى عشر من الفرسان	قليس	٧٥٦
الآلاى الثانى عشر من الفرسان	طرسوس	٦٦٢
الآلاى الثالث عشر من الفرسان	أورفه	٨٠٦
أورطة المتقاعدين	القاهرة	٣٩٨٠
الآلاى الاول من البلطه جيه	عكا	٨١٢
الاورطة الاولى من المتقاعدين	اسكندرية	٧٩١
أورطتان من المتقاعدين	طرابلس	١٦٤١
أورطة من المتقاعدين	دنقله	٨٨٥
اورطة من فرقة المهندسين	أدليب	٧٥٨

أورطة من البلطة جيه	اسكندرية	٨٠٨
فصيلة من اللغامين	القاهرة	٩٤
الاســـــاس	القاهرة	٢٨٥
١٦ بلوكا من العساكر المتقاعدين	مراكز القطر	٩٦٧١
رجال الالعاب النارية والصواريخ	مصر العتيقة	١٨٥
آلاى من رجال القرابة لدى	السر عسكر	١١٥٢
فصيلة من رجال القرابة لدى	فى الحجاز	١٠٦
بلوكان من العساكر المتقاعدين	فى الحجاز	٢٠٠
	المجموع الكلى	١٣٠٣٠٠

الجيــوش غير النظامية

فى الحجـــاز :

	ضباط	عساكر
فرسان اتراك	٤	١٥٨٠
مشاة أتراك	١	٣٩٥
فرسان مصريون	٩	٩٤٥
مشاة مصريون	٥	٣٣٩
مدفعيـــة	—	٧٨٧
المجمــوع	١٩	٤٠٤٦

فى القطــر المصرى :

	ضباط	عساكر
فرسـان اتراك	١٠	٢٧٨٥
مشـــاة أتراك	٧	٢٧٧٥
فرسان مصريون	٧	١٦٦٠
مدفعيـــة	—	١٢٩٩
المجمــوع	٢٤	٨٥١٩

فى اليمـــن :

فرسان أتراك	٥	١٩٧٠
مشاة أتراك	٩	٧٦٠
مدفعية	—	٢٠٠
المجموع	١٤	٢٩٣٠

فى قنـــديا :

فرسان أتراك	٢	٤٥٠
مشاة أتراك	٦	٢٤٠٥
مدفعية	—	٢٨٠
المجموع	٨	٣١٣٥

فى المدينـــة :

فرسان أتراك	٣	٣٠٢٠
مشاة أتراك	١٠	٣٧٥٠
مدفعية	—	٢٢٥
مصريون	١٦	١٢٢٥
المجموع	٢٩	٨٢٢٠

فى الســـودان :

فرسان أتراك	١٧	١١٧٠
فرسان مصريون	٤	١٢٨٠
مشاة مصريون	١٠	٩٥٠
مدفعية	—	١٨٦
المجموع	٣١	٣٥٨٦

في الشـــام :

فرســـان أتراك	١٤	٤١٢٥
مشــاة أتراك	٥	١٩٣٠
فرسان مصريون	٦٣	٤٩٨٠
المجمــوع	٨٢	١١٠٣٥

فيكون مجموع الجيوش غير النظامية كما يأتى :

ضباط	٢٠٧
عساكر	٤١٤٧١
	٤١٦٧٨

وقبائل العربان فى القطر المصرى كقبائل أولاد على والجميعات والهنادى والجهلات وولد سليمان والزوفه وجهينه والهـــــواره والعبابده والمعازة وغيرهم مستعدة على الدوام لتوريد الكثيرين من الرجال والخيول والجمال ولوازم القتال لاول اشارة من ســمو الوالى .

الحـــرس الاهلى

الاســـكندرية	الايان	٦٨٠٠ جندى
البرلس ورشيد	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
دميـــاط	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
القـــاهرة	ثمانية آلايات	٢٧٤٠٠ جندى
مصر القـديمة	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
بـــولاق	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
المجمــوع		٤٧٨٠٠

وفى استطاعة مدارس الطوبجية والخيالة والمشاة والبحـرية والهندسة الحربية أن تتقدم للخدمة العاملة فى الجيش ١٢٠٠مقاتل.

وعدا ما تقدم فان جميع عمال الفاوريقات فى القاهرة وعددهم ١٥٠٠٠ عامل يقومون يوميا بالتدرب على المنـاورات الحـربية والاجراءات العسكرية وفى الامكان ابلاغ عدد من يحشد منهم الى ٥٠٠٠٠ اذا مست الحاجة لذلك .

مراجعـة عامة لمـا تقـدم

جيـوش نظـامية	١٣٠٣٠٢	عسكرى
جيوش غير نظامية	٤١٦٧٨	عسكرى
الحرس الاهلى	٤٧٨٠٠	عسكرى
عمال الفاوريقات المدربون	١٥٠٠٠	عسكرى
رجال مستعدون فى المدارس	١٢٠٠	عسكرى
الدوننمة ومن ضمنها الترسانة	٤٠٦٦٣	عسكرى
المجمـوع	٢٧٦٦٤٣	

٢

البحـرية المصـرية

انشاء البحرية المصرية ـ حالة البحرية المصرية ومنشـآتها قبل وصول المسيو سريزى بك الى مصر ـ انشاء دار صـناعة الاسكندرية ـ العقبات التى ذللها المسيو سريزى ـ الاعمال والمبانى والمنشآت فى الترسانة ـ السفن الحربية التى شرع فى بنـائها ـ عمال الترسانة من المصريين ـ أحواض السفن ـ نوتية الدوننمة ـ القوات البحرية لمصر وتركيا .

٣٦ ـ انشاء البحرية المصرية

جاء تنسيق البحرية المصرية بعد تنظيم الجيش البرى بزمن يسير . نعم انه كان لمصر أيام حرب موره دوننمة حربية ، غـير أن الشطر الاكبر من سفنها أنشىء أو اشترى فى (مرسـيليا) و (ليفورنة) و (تريستة) وقد قضى عليها بالدمار والفناء فى معركة (نافارين) البحرية الشهيرة .

ولم يرتفع للبحرية المصرية شأن عقب ذلك ، الا حينما نيط بالمسيو (دى سريزى) من مهندسى ثغر (نولون) المشـهورين بالخبرة والبراعة فى فنون البحرية ، لتشكيل ترسانة (دارصناعة) للاسكندرية والاشراف على انشاء السفن فيها . ولنا أن نقـول فى موضوع هذه الترسانة أن انشاءها كان ، كانشاء الشـعر ونظمه ، عفو الساعة لم يسبقه أقل استعداد . ولعل ايجادها من العدم كان المظهر الاول لعبقرية محمد على ، والدليل الساطع على عزيمة ماضية وارادة حاسمة لا ينثلم لها حد ولا يكبح لهـا جمـاح .

٣٧ ــ حالة البحرية قبل وصول سريزى بك

لما وصل المسيو دى (سريزى) الى مصر فى ابريل سنة ١٨٢٩ الفى البحرية المصرية مؤلفة من وحدات قليلة من السفن ، هى التى نجت من كارثة (نافارين) ، نذكر منها فرقاطة ذات ٦٠ مدفعا أنشئت بثغر (البندقية) وأخرى أنشئت فى (ليفورنة) وجملة سفن من طراز الكورفيت والبريك . وكانت هذه السفن ينقصها لوازم القتال ومعداته ، لانها انشئت فى ثغور تجارية لا حربية . فاضطر (دى سريزى بك) الى انشاء مخازن للبارود فيها وادخال تعديلات عليها تتفق مع احتياجات المدفعية وضروراتها .

ولم يكن فى الاسكندرية ترسانة لبناية السفن . وغاية الامر أنه كان بسيف البحر مكان قريب من الماء تبنى فيه سفينة من طراز الكورفيت وأخرى من طراز البريك وثالثة ذات حجم عظيم حولت فيما بعد الى فرقاطة . وكانت ورش الصناعة عبارة عن ظلات بسيطة من الخشب ، وكانت المواد والخامات الضرورية للبحرية يوردها تجار من الاوربيين يجلبونها من أوربا .

وكان يرأس أشغال بناء الاساطيل وترميمها مصرى طاعن فى السن يدعى الحاج عمر ، وهو رجل شهم واسع الحيلة . وقد صار فيما بعد الساعد الايمن للمسيو (سريزى) وموضع ثقته . وكان معه رجل تركى الجنس يزعم العلم بالهندسة ، ولكنه كان فى الحقيقة عنوان الغباوة والجهل ، فاستغنى (سريزى) عنه وفصله من وظيفته . وكان العمل قائما على قدم وساق لبناء سفن حربية اخرى برسم سمو الوالى بعضها فى (ليفورنة) والبعض الآخر فى (مرسيليا) و (لوندرة) .

٣٨ ـ تشكيل ترسانة الاسكندرية

كان محمد على يدرك ما للبحرية من الاهمية وخطر الشأن فى حرب الشام وصد غارات الاستانة وحملاتها . فكان إذا وقـع ابطاء فى بناية السفن بالثغور الاجنبية أو اعترض انجازها عارض ناله من ذلك غم شديد . فعقد النية لهذا السبب على انشاء ترسانة وكان يقدر كفاءة المسيو (دى سريزى) وهمته بما ظهر له منهما فى انجاز الاشغال البحرية التى انجزت بثغر مرسيليا لحساب مصر فرجا من الحكومة الفرنسية أن تأذن له بالحضور الى الاسكندرية لتولى ادارة الاعمال البحرية فى ثغرها .

وكان كل ماالقى فى وهم محمد على من استحالة دخول السفن الحربية الى ميناء الاسكندرية وتحققـه من نقص الادوات الحربية والعمال اللازمين لمباشرة الاعمال المختلفة بها ، مما شجعه عـلى التمسك بانشاء الفرقاطات الكبيرة . وكانت طلباته الاولى للسفن قائمة على اساس هذه الفكرة . فلما نظر سموه فى الرسوم التى قدمت اليه ، واطلع على رأى المسيو (دى سريزى) فيها ووقف على دقائق ملحوظاته بشأنها وأيقن مطابقتها للصواب، اعتزم أن لا يقتنى من السفن الحربية الا ما كان منها كبير الحجم . ومن ثم وردعـلى خاطره انشاء ترسانة كبيرة .

وبينما كانت تجهز الادوات اللازمة ، بالديار الاوربية ، لاخراج هذا المشروع الى حيز الفعل ، كان المسيو (دى سريزى) يعد فى الاسـكندرية المعدات ويهيء المقدمات اذ تفرغ لاخذ أعماق الميناء لاختيار أوفق موقع منها لانشاء الترسانة الجديدة . ولقد تبين لـه أن عمق الماء فى بعض السواحل من ناحية مريوط لايعوق اقامة البناء المطلوب . ولكن هذه السواحل ، فضلا عن بعدها عن المدينة ، كانت

امواج البحر فى هياجه ترتطم بها ارتطاما شديدا وتحول دون اصابة الغرض المطلوب من الدفاع عن ثغر الاسكندرية . وكان العساكر يشتغلون فى امالة الساحل ، وهو متكون من مادة حجرية رخـوة بالقدر اللازم لبناء القاعدة المنحدرة التى تنشأ السفن عليها ،بينما كان يعمل غيرهم فى استخراج الاحجار التى ستبنى بها من الابنية الاخرى . وصفوة القول فقد كانت بوادر العمل بما تخللها من آيات النشاط والهمة أصدق دليل على شدة الحاجة الى سفن للقتال فى اقرب ما يمكن من الزمن . وعلى الرغم من هذا فقد كان المسـيو (دى سريزى) غير مرتاح لذلك الموقع ، فصرف عنايته الى البحث عن موقع آخر تتوافر فيه الشروط الملائمة لانشاء الترسانة . وكان مما لاحظه أن الشاطىء الذى تنشأ فيه الزوارق فى وقايـة من هبوب الرياح واضطراب الامواج وأن الهجوم عليه مواجهة متعذر ان لم يكن مستحيلا ، وانما كان عيبه قلة عمق الماء به . فمر بخاطره أن يعمـل للتغلب على طبيعـة الارض فيه . وكان يعلم أن المواد الصخرية موجودة على عمق ثلاثين قدما ، وأن من الميسـور رفع الرمال بالآلات دون أن يطرأ تعطيل ما على اقامـة المبانى المطلوبة فعدل نهائيا على انشاء الترسانة فيه .

وما اختمرت هذه الفكرة فى ذهنه ، حتى انصب على العمل ليل نهار لوضع رسوم الورش والمبانى التى تنفذ بمقتضاها مشروعات الوالى العظيمة . وما وافى اليوم التاسع من شهر يونيو سنة١٨٢٩ حتى رفع الى أعتاب سموه مجموعـة من عمله الابتدائى ، فاجال فيها نظره وتروى مليا ثم وافق عليها . وما هى الا ساعة واحـدة حتى شوهد بضعة آلاف من العساكر يحفرون الآساس للمبانى التى كانت الحاجة الى البدء بها أشد ما يكون . وناط بالقيمين على الآلات وضع الاوتاد (الخوازيق) للارصفة وحفر الاحواض .

دليل تفصيلى

لتصميم ترسانة الاسكندرية

قبل المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩

١ الجمرك

٢ قهوة عمومية

٣ دكان

٤ مسبجد

٥ ورشـــة بالبناء

٦ ارضية مستعملة لانشاء السفن

٧ ظلة من الخشب لآلات الحدادة

٨ ظلة من الخشب لصناعة البراميل

٩ مســـجد

١٠ مخازن ومكان الزجاج .

١١ الرصيف القديم وقد تلف جزء منه

١٢ رصيف من الخشب للنزول فى السفن

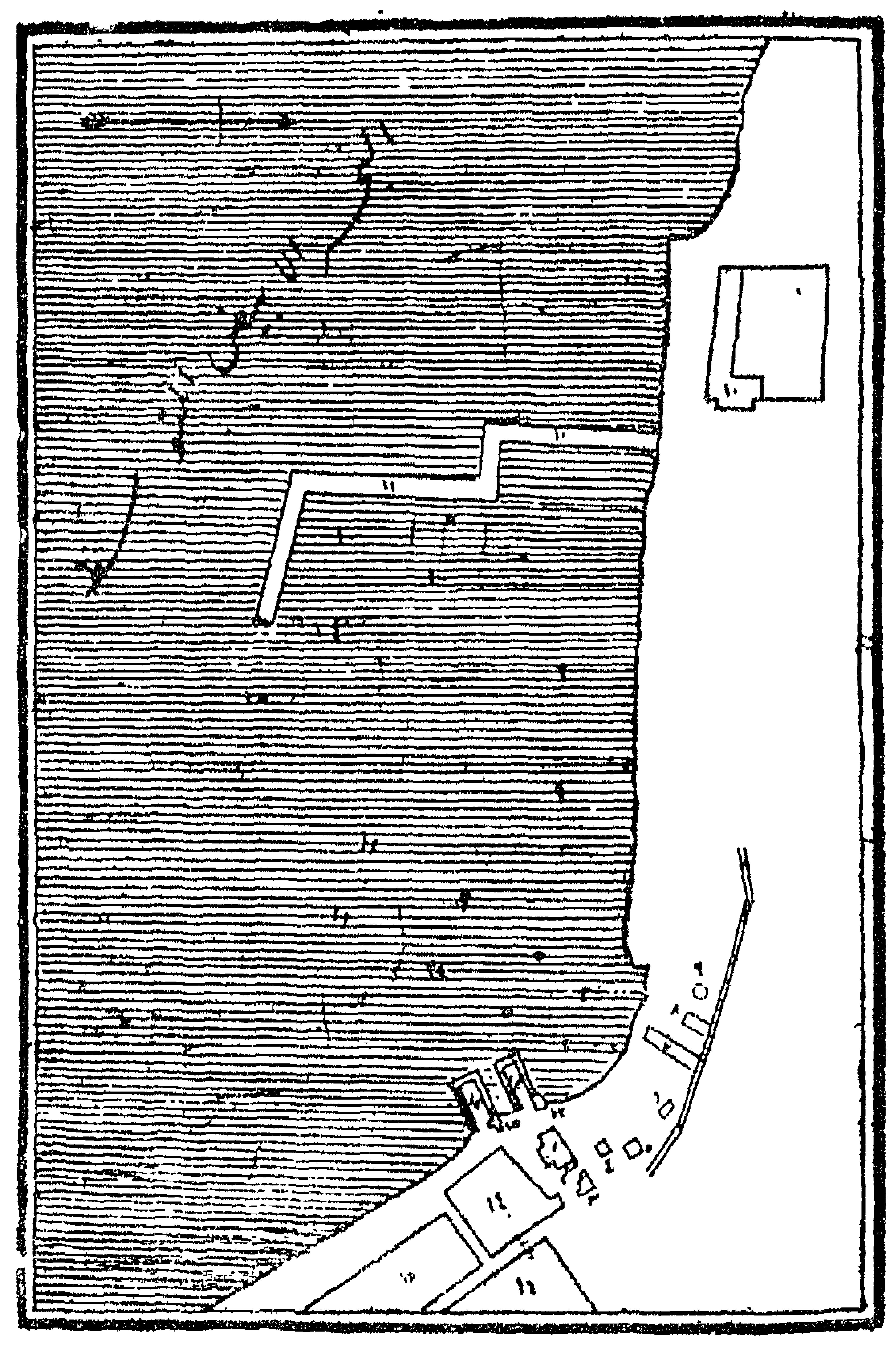
١٣ مكاتب مستخدمى الجمارك

١٤ مخازن الحكومة

١٥ مخازن خصوصية

١٦ جزء من مدينة الاسكندرية

ملحوظة ــ سبر عمق الماء بالاقدام الفرنســية



(ترتيب أقسام ترسانة الاسكندرية)

بحسب تصميم سنة ١٨٢٩

وكان سمو الوالى ، أثناء ذلك ، يستدعى من أقاليم القطر المصرى الشبان الذين توجهت ارادته الى تنشئتهم التنشئة التى تتطلبها أعمال السفن . فلما اجتمعوا لديه أخذ يرتبهــم بحسب النظام العسكرى ، اذ قسمهم فرقا كل فرقة لمزاولة عمل . فكان منهم النجارون والحدادون والجلافطة والسباكون والميكانيكيــون الخ ؛ وقد تألفت هذه الفرق بالتدريج . وكان كلما اتســع نطاق تعليم العساكر على هذا المثال ، اختير الاونباشية والجاويشــية والضباط بين الممتازين منهم بالهمة والنشاط والذكاء .

واجل خدمة قام بها المسيو (دى سريزى) لســمو الوالى تشكيله هيئة عمال الترسانة على النسق المتقدم . ونظرا الى ولعه الذاتى بالصناعات المختلفة ودرايته التامة باسرارها عــلى اختلاف مناحيها ، كان يتولى بنفسه تدريب العمال على مباشرة الاعمال كل فى الصناعة التى اختير لمزاولتها . وعلى هذا النمط سار العمل فى تشييد المبانى وتعليم الرجال مختلف الصناعات سيرا مطردا منتظما. ولم تشرق شمس يوم ٣ يناير سنة ١٨٣١ حتى كانت سفينة ذات مائة مدفع تنزلج من البر الى البحر .

ومنذ هذه الآونة وضح وضوح الشمس فى رائعة النهار ان مسئلة « البحرية المصرية » حلت على أحسن ما يرام . ولكن كانت لاتزال الحاجة ماسة الى اقامة الدليل على خطأ الاوربيين الذين زعموا أن السفن ذات الاربعة والسبعين مدفعــا لاتستطيع اجتياز بوغاز الاسكندرية فى مأمن من الاخطار . فلما تصدى (دى سريزى) لاثبات فساد هذا الزعم اثباتا عمليا بانشــائه تلك الســفينة ، استهدف نفسه لصنوف الملاوم والانتقادات . وتمادى اللائمون والمنتقدون فى غلواء اللوم والانتقاد الى حد اتهامهم اياه بأنه خدع سمو الوالى وغشه وقابل بالاساءة احسانه . ولكن لم تلبث هذه الحملــة أن

انتهت بسلام ، اذ تقرر أن بالامكان اجتياز البوغاز بلا خوف من خطر ما ، اذا اتخذت احتياطات معينة وتدابير معلومة . وكانت الهمة أثناء هذه الحوادث منصرفة الى تسليح السفينة التى تم بناؤها فلم يمض زمن حتى نشرت أشرعتها وأبحرت من الميناء للايغال فى خضمات البحر الابيض المتوسط .

ومنذ هذا الحين احرز المسيو (دى سريزى) ثقة الوالى الذى شرحت هذه النتيجة الباهرة صدره ، وملأت بالسرور والابتهاج قلبه ، فخوله السلطة المطلقة وحرية التصرف فى شؤون الترسانة . وكان مما اشرأبت اليه عنق (دى سريزى)، أن يقوم بعمل جليل يكسب به ثقة محمد على كلها ومودته ، فتفرغ لهذا العمل ووهب لاجله وقته وحياته وهمته .

٣٩ ــ العقبات التى تغلب عليها المسيو دى سريزى

وبالرغم من الهمة العالية التى امتاز بها المسيو (دىسريزى) وثقته فيه ، تكاثرت العقبات والمعاثر فى طريقه وأصبح فرضا عليه تذليلها بحكمته وقوة ارادته وصبره . وبيان ذلك أن مجيئه الى الاسكندرية لانشاء الترسانة وتشكيل البحرية المصرية ، أزعج البيوت التجارية التى كانت تربح الاموال البالغة من التوصية فى الخارج لديها على بناء السفن الحربية بلا مراقبة عليها ، وألقى الخلل والاضطراب فى أعمالها . فأخذت تذيع عنه من الاحاديث المفتراة مالا حصر له ، وترميه بما يروق لها اختراعه من صنوف التهم الشائنة . بل بلغ من أمرها أن حاولت استفزاز العمال الاوربيين الذين يتولون رياسة الاقسام الصناعية فى الترسانة ويقومون على تعليم المصريين وتدريبهم ، الى الشغب والعصيان . وكثيرا ما وقعت الورش والمعامل بالترسانة فى الالتباك والخلل من

جراء هذه الفتن ، حتى لقد حدث عند الشروع فى دفع السفينه الثانية من منشآت الترسانة الى البحر ، أن انقطعت أمراسها المثبتة لها فى مكانها قبل الاجل المعين ، وكان ذلك بفعل فاعل بقصد اتلافها . وكان العمال المالطيون والليفورنيون يحضون على الشغب والثورة عمال ترسانة (تولون) الذين كانوا يعملون معهم فى ترسانة الاسكندرية . وكان المسيو (دى سريزى) قد جاء بهم من ذلك الثغر فى السنة التالية لتعيينه ليتولوا رياسة الاقسام المختلفة فلم يتحرك للمسيو (دى سريزى) نبض ولم تختلج عين ولم ينزعج فؤاد . بل قابل دسائسهم وافاعيلهم بجنان ثبت وارادة قوية ، فلم تقو عند الارتطام بهذه الصفات العالية على البقاء . أما الوالى ، وهو صاحب العبقرية العالية فى كل شأن ، فقد اغلق صيوان أذنيه دون تلك الوشايات فمهد له بذلك سبيل التفرغ لاعماله والاهتمام بانجازها من غير توان ولا امهال .

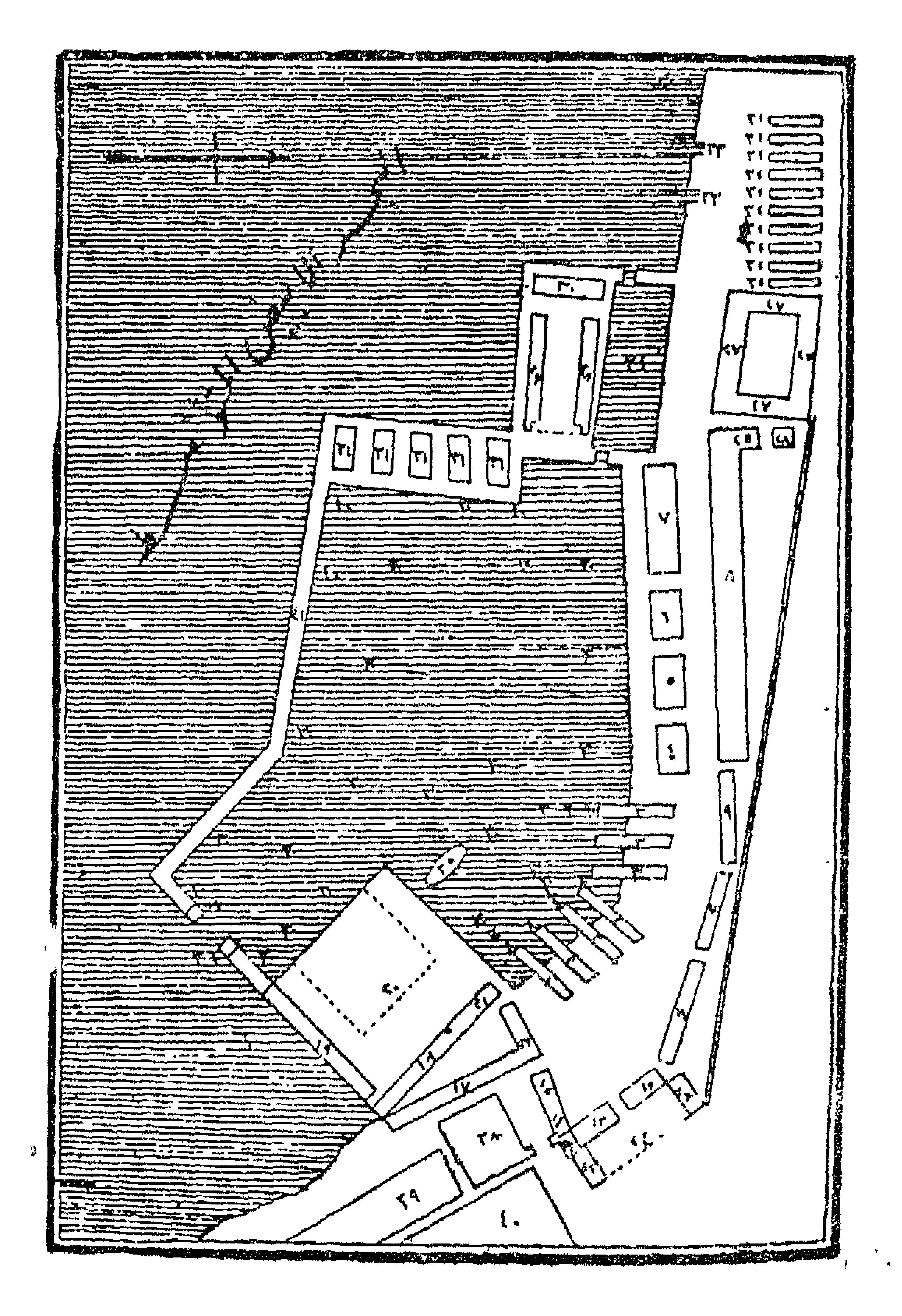
على أنه يتعذر تصوير فكرة كاملة عن العقبات الجزئية التى اضطر ذلك المهندس الخبير الى مكافحتها ليتمكن من انجاز ما عاهد نفسه على تنفيذه من المشروعات . وكانت ظروف الاحوال قد الجأته فى بادىء الامر الى استخدام الجم الغفير من الاوربيين لتسليح السفن التى كانت تبنى بسرعة مدهشة ، فأدت معالجته هذا الامر الى وقوع فتن واضطرابات لم يلبث أن تغلب عليها بفطنته . ولكنه ما انفك ، مع ذلك ، عن الاهتمام بمنع السرقات وحسم مايقع من الشقاق والنزاع بين العمال الوطنيين ، ومعاقبة المقصرين فى اداء أعمالهم ، سواء أكان هذا التقصير عن اهمال أم عن غلط ، أم عن سوء نية . وقد حمله تعليم المصريين تدريجيا تلك الصناعات التى حذقوها حتى ضارعوا الاوربيين فيها ، على الاستغناء عن فريق كبير من هؤلاء بحيث أن الاعمال فى العهد الاخير كان ينجز الشطر الاوفى منها بواسطة

دليل تفصيلى

لتصميم ترسانة الاسكندرية بحسب المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩

١ مدخل الترسانة وسيكون بعد انتهاء العمل فى نمرة ٢٤ .
٢ قواعد مائلة ومبنية بالحجر لانشاء السفن عليها .
٣ قواعد مائلة ومبنية بالحجر لانشاء الفرقاطات والسفن الصغيرة .
٤ ورشة مد الزوارق وغرف قوالب السفن ونماذجها .
٥ ورش الساريات والقلوع .
٦ ورش البكرات والخراطة .
٧ مكان أدوات السفن وأطقمها .
٨ محل ابرام الحبال وبالدور الاول مكاتب الادارة ومدارس مختلفة .
٩ ورشة البراميل ودفات السفن وآلات رفع وجذب الاثقال .
١٠ ورشة الالات البحرية والمعادن والصفيح والرصاص والنجارة .
١١ المخزن العمومى .
١٢ الادارة الهندسية .
١٣ ادارة الميناء .
١٤ ورش الحدادة الكبرى .
١٥ معمل المزاليج والبرادة .
١٦ المسبك .
١٧ ورشة حدادة الاحواض .
١٨ ورش اشغال ترميم السفن فى الاحواض .
١٩ — ورش نجارة العمارات والثقب الجلفطة .
٢٠ موضعا الحوضين .
٢١ مكان اذابة الزفت والقطران .
٢٢ ليمان .
٢٣ ثكنة .
٢٤ صحن المدخل الاصلى .
٢٥ آلات ابرام الحبال .
٢٦ المخازن .
٢٧ مساكن المديرين والضباطوموظفى الترسانة .
٢٨ ورش المعادن للمدفعية .
٢٩ ورش الخشب للمدفعية .
٣٠ مخزن وادارة المدفعية .
٣١ مخازن خاصة بالسفن التى ينزع سلاحها .
٣٢ مستودعات لاخشاب بناء السفن .
٣٣ آلات وسطوح مائلة لسحب أخشاب بناء السفن .
٣٤ ترسانة الزوارق والسفن .
٣٥ مكان ترميم الغائص من السفن .
٣٦ حراس الميناء .
٣٧ فرقة الحرس .
٣٨ مخازن الحكومة ومطبعتا الحجر والحروف والمكاتب .
٣٩ جزء من المدينة يسكنه بعض المستخدمين .
٤٠ جزء من المدينة وحوانيت .
٤١ الرصيف المحيط .

ملحوظة — السبر بالقدم الفرنسية



تصميم ترسانة الاسكندرية

قدمه المسيو ليفوبور دوسريزى يوم ٩ يونيو سنة ١٨٢٩

ووافق عليه سمو الوالى

عمال من أهل البلاد . ولم يحتفظ من هؤلاء الاوربيين الا بشرذمة صغيرة من المعلمين الفرنسيين ، قصد ببقائهم فى الخدمة الاشراف على كيفية استعمال المواد اللازمة لبناء السفن . ومما هو جدير بالذكر أن امتثال المصريين للاوامر وانكبابهم على العمل فضيلتان جليلتان عاونتا المسيو (دى سريزى) على أداء المهمة التى وكلت اليه على خير ما يرام .

٤٠ ــ اعمال الترسانة وبناياتها

بالنظر الى انشاء الترسانة على ساحل رملى لا بناية فيه من أى نوع ، قضت الحاجة ببناية ما يلزم لها من جديد . أما الاعمال الاصلية التى تم انجازها فأربع قواعد من الحجر لبناء السفن عليها مع ما يتبعها من الانحدار الممتد الى داخل البحر لتزلج سفن الدرجة الاولى ، وثلاث قواعد غيرها لبناية الفرقاطات والسفن الاقل من تلك حجما ، ومخزن عام لايداع الذخائر البحرية . ومصنع للحبال بآلاته ، وورش الحدادة والمزاليج ، وورشة النشر والخرط ، والمعامل الميكانيكية ومعامل السبك والصفيح والرصاص والزجاج والآلات البحرية والبكر والاشرعة والبراميل ، ومصانع الفلائك والزوارق وآلات رفع الاثقال وسحبها « الكابستان » ودفات السفن والمركبات ، وورشة النماذج لاجزاء السفن والمدافع ، وغرفة نماذج الاشياء التى يتألف منها سلاح السفن برسم تعليم الضباط ، وظلات لخزن الاخشاب اللازمة لبناية السفن وحفظها وآلات التنظيف والتطهير وأدوات ترميم القسم الغاطس من السفن الخ .

وقد أنشئت برشيد فاوريقة لنسج قماش الاشرعة ومعامل أخر للحدادة كى يستعان بها عند الضرورة . وكانت ورش القاهرة ومعاملها تشتغل أيضا لهذا الغرض ، وكان المسيو (دى سريزى)

لا يميل الى حصر الصنائع فى مكان واحد ، فدرب جماعة من المصريين على صناعة حبال السفن وأمراسها ثم أعادهم الى بلدانهم ليتفرغوا بها لصناعتها .

٤١ — السفن الحربية التى شرع فى بنائها

بينا كان الخشب والمواد اللازمة لبناء السفن تصدر من أوروبا الى الاسكندرية ، كان المسيو (دى سريزى) يحث العمال على اتمام بناية فرقاطة وسفينتين أخريين من طراز الكورفيت والبريك كان قد بدىء ببنايتها قبل وصوله الى الاسكندرية ، فتعذر تحويلها الى سفن حربية . ثم شرع فى بناية سفينـــة من طراز الجويليت لم يستطع اتمامها الا بتكبد العناء الشديد فى تعليم العمال بنفســـه وارشادهم مباشرة الى دقائق البناية البحرية وتفاصيلها الجزئية ، فكان فوق ما هو منوط به من عمله أستاذا يلقن العلوم والفنون فى مدرسة العمل والتجربة .

وما كادت تصل الى الاسكندرية الارسالية الاولى من الاخشاب التى وصى بها ، حتى بدأ ببناية سفينة حربية من ذات المائة مدفع، وما أشرف على اتمام بنائها حتى شرع فى بناية اثنتين أخريين من حجمها وطرازها .

وسنأتى بعد على بيان واف للمنشآت التى انجزت او رممت فى ترسانة الاسكندرية أثناء وجود المسيو (دى سريزي) بالقطر المصرى .

بنيت السفينتان (مصر) و(عكا) . وهما بحجــم الســـفن الفرنسية ذات الثلاثة السطوح ، الا أنها لم توضع بهما البطارية الرابعة بسبب أن السطح الاول منهما يحمل فيهما اثنين وثلاثين

مدفعا من عيار ٣٠ ، وهى مدافع طويلة ، والسطحان الآخران كلاهما ٦٨ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠ .

وأربع سفن من ذات المائة مدفع وهى المعروفـــة باسماء : (المحلةالكبرى) و (المنصورة) و (حمص) . وفى كل من هذه السفن اثنـــــان وثلاثون مدفعـــا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الاولى و٣٤ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠ فى البطارية الثانية و٣٤ مدفعا من الزهر (كاروناد) من عيار ٣٠ فى مقدم السفينة ومؤخرها .

والسفينة (أبو قير) ذات الثمانية والسبعين مدفعا منها ثمانية وعشرون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الاولى و ٣٠ مدفعا قصيرا فى البطارية الثانية وعشرون مدفعا من الزهر من عيار ٣٠ فى مقدمة السفينة ومؤخرها .

والكورفيت (طنطا) وفيها أربعة وعشرون مدفعا قصيرا من عيار ٣٢ انجليزى .

والجوبليت (عزيزية) وفيها عشرة مدافع من عيار ٤

وقوطر النزهة وفيه ٤ مدافع من عيار ٤

وسفينة لمدافع الهاون

وسفينة نقالة لاخشاب الساريات

وكانت السفينة (بيلان) ذات الستة والثمانين مدفعا تحت التسليح ، فوضع بها ثمانية وعشرون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الاولى و٣٠ مدفعـــا قصيرا فى البطارية الثانية وثمانية وعشرون مدفعا من الزهر فى المقدمة والمؤخرة .

وكان العمل جاريا فى سفينتين من السفن ذات المائة مدفع من عيار ٣٠ وهما (حلب)و (دمشق) .

وفرقاطة كبيرة ذات ستين مدفعا من عيار ٣٠ .

ومما تقدم يرى أن السفن الكبرى للبحرية المصرية قد عنى المسيو (دى سريزى) بالتوحيد بين عياراتها وهو الأمر الذى كثيرا ما طالب المصلحون البحريون به فى أوربا بلا جدوى .

أما السفن الدوننمة التى اقتضى ترميمها وتعهدها من الوقت والعمل أكثر مما كانت تقتضيه السفن المنشأة حديثا فهى :

(الجعفرية) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٣٢ انكليزى وكان انشاؤها بمدينة (ليفورنة) .

والفرقاطة (بحيرة) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ وكان انشاؤها فى ثغر (مرسيليا) .

و (رشيد) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٢٤ وثمانية وعشرين مدفعا من الزهر من عيار ٣٦ وكان انشاؤها بمدينة البندقية .

و (كفر الشيخ) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٣٢ انكليزى، واربعة وعشرين مدفعا من عيار ١٢ أنشئت فى ثغر (أرخانجل) بالروسيا للنقل ، ولكنها لم تتم فكمل انشاؤها فى (لوندرة) كفرقاطة للقتال .

و (سرجهاد) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ ، وكان انشاؤها فى ثغر (ليفورنه) ثم عدلت فى الاسكندرية تعديلا تناول جميع أجزائها .

و (الدمياطية) وهى ذات أربعة وعشرين مدفعا من عيار ٢٤ وثلاثين مدفعا من الزهر من عيار ١٨ ، وكانت كبيرة وحولت فى الاسكندرية الى فرقاطة حربية .

و(موستاجهاد) وهى ذات ثمانية وعشرين مدفعا من عيار ١٨ وثمانية وعشرين مدفعا من عيار ١٢ ، وكانت فرقاطة جزائرية اهدتها فرنسا الى مصر .

والسفن (جنه بحرى) وأصلها من ثغر (جنوة)، و(جهادبحر) وأصلها من (جنوة) أيضا و (فوه) وأصلها من الاسكندرية ، و(بلنك جهاد) وأصلها من (مرسيليا) . وكلهـا من طراز الكورفيت وذات ٢٢ مدفعا من عيار ٢٤ .

و(واشنطون) وأصلها من (بوردو)، و(فولينان) وأصلهـا من (ليفورنه)، و(الفشن) وأصلها من الاسكندرية ، و(شاهين داريا) وأصلهامن تركيا . وكلها سفن من طراز البريك الكبير وتحمل كل منها اثنين وعشرين مدفعا من الزهر .

و(سمند جهاد) وأصلهـا من (مرسيليا)، و(خبر جهاد) واصلها من (سيوتا)، و(التمساح) وأصلهـا من(مرسيليا)، (وبادىجهـاد) وأصلها من(الاسكندرية) ، و(الامريكانى) وأصلها من الولايات المتحدة ، وهى سفن من طراز البريك الصغير ، وتحمل كل منها أما ستة عشر مدفعا واما ثمانية عشر من مدافع الزهر .

وأربع سفن نقالة محمول كل منها ٤٠٠ طن .

وفرقاطة وبريك وقوطر من السفن العثمانية التى غنمت أثناء الحرب .

وكذا جملة سفن صغيرة وباخرة تسمى (النيل) أصلهـا من لوندرة .

وقد راعى المسيو (دى سريزى) فى بناية السفن الحربية الاصلاحات والتعديلات التى كان الضباط الفرنسيون يطالبون بادخالها على السفن الفرنسية ، وكذا الاصلاحات التى اهتدى اليها بخبرته أثناء قيامه بالعمل فى ثغور فرنسا ، والملحوظات التى لاحظها فى انجلترا ورأى من الافضل العمل بها لفائدة البحرية . ولذلك بنيت السفن التى أنشئت فى ترسانة الاسكندرية بمقتضى التصميمات التى وضعها بنفسه .

ومن المستطاع التأكيد بأن قسما عظيما من التنسيقات والترتيبات المرعية الآن فى بناية السفن الفرنسية الحربية ، وجدت فى السفن التى أنشئت بالقطر المصرى قبل وجودها فيهـا بزمان طويل . وهو ما يرجع الفضل فيه الى همة المسيو (دى سريزى) ودرايته .

٤٢ — عمال الترسانة المصريون

ان العمال المصريين هـم الذين كانوا ينجزون أعمال انشاء السفن وقد أظهروا فيها من الاهلية والدراية ما يوجب الدهش . وكان يشتغل منهم بالترسانة من ستة آلاف عامل الى ثمانية آلاف . أمـا العمال الاتراك فلـم يبد منهم ما يستوجب ارتياح المسيو (دى سريزى) ورضاه عنهم ، لانهم كانوا من الازدهاء بنفوسهم والنزوع الى العصيان والتمرد بما يحول دون صلوحهم لاجادة ما يناط بهم من الاعمال ، فكانوا من هذا الوجه على نقيض المصريين الذين كانوا يدركـون بسهولة أسرار الاعمال التى تنجز أمامهـم ويتفهمون دقائقها بما عهد فيهم من الذكاء ودماثة الاخلاق والامتثال

للرؤساء . دع أنهم فطروا فى محاولة فهم ما يعجم عليهم فهمه على تحكيم النظر اكثر منه على الذكاء والعقل حتى أن الرسم البسيط يرشدهم الى فهم حقائق الاشياء بمجرد النظر اليه قبل امعان الفكر والروية فيه . الا أنه مع هذا سريع النسيان لما يتعلمه ، فضلا عن أنه اذا بلغ من التعلم درجة ما لا يرغب فى تجاوزها الى ما بعدها . وهذا النقص يحول ، بلا ريب ، دون سعيه الى الكمال.

وهم أميل الى مزاولة الصناعات التى أساسها تقليد الاشكال والنماذج الثابتة . ومن ثم تراهم يجيدون صناعة البكر وقماش الاشرعة والحبال والبراميل والنجارة الدقيقة ، ويحسنون ثقب الثقوب وقلفطة المراكب . وانما لا يمكن الاعتماد عليهم فيها اذا مست الحاجة الى تغيير الاحجام واستنباط أشكال تخالف ماعهدوها عليه من المثال ، كما يتفق احيانا فى ورش الآلات والحدادة والسبك، ما لم يراقبهم أثناء ادائهم اياها الرؤساء الاوروبيون فأنهم فى هذه الحالة يقومون بما هو مطلوب منهم على خير مايرام .

وترسانة الاسكندرية التى يصنع فيها كل شىء بأيدى المصريين وتناظر لهذا السبب جميع ترسانات الدنيا دليل ناطق بمبلغ ما يمكن الاستفادة به من العمال المصريين ويقينى أن عامة الشعب فى أوروبا لا يستطيعون أن يؤدوا من جلائل الاعمال ما يؤديه العمال المصريون فى مثل الوقت القصير الذى يقومون بها فيه .

٤٣ — احواض ترميم السفن

لما انجز الوالى بناية السفن الحربية الكبرى وشعر بضرورة انشاء حوض أو أحواض لترميمها عند الحاجة ، أطلعه المسيو (دى سريزى) على الصعوبات والعقبات الجمة التى تعترض انشاءها بالاسكندرية ، وقال انها فى أوروبا تلتمس العناية المتتابعة

من حذاق المهندسين وأذكياء العمال . وكان مشروع المسيو (دى سريزى) لانشاء ترسانة بالاسكندرية يتناول بناية حوضين ، مع أن حوضا واحدا كان فى الحقيقة كافيا لسد حاجة البحرية المصرية ، ولكن المسيو (دى سريزى) كان لا مفر له من العمل بادارة صاحب السمو والمسارعة الى تحقيق أمانيه ، ولو استلزمت التحيل لايجاد كل شىء من العدم . وكانت حالة الحرب بالنسبة الى مصر تستدعى السرعة فى انجاز تسليح السفن المبنية فلم تتوافر له وقتئذ الوسائل التى تمكنه من انشاء تلك الاحواض . وعقب رحيله من الاسكندرية تصدى بعض المهندسين لانشائها فذهبت جهودهم فى هذا السبيل سدى وعندئذ لم يسع صاحب السمو الوالى الا أن رجا من الحكومة الفرنسية ، وقد كان هذا منذ عامين ، أن تبعث اليه رجلا قديرا على اتمام هذا العمل الجليل . فاختارت ادارة القناطر والجسور المهندس (مونجل) الذى ذاعت شهرته بفرنسا على أثر الاعمال الهندسية الجليلة التى قام بها فيها ، وسيبقى اسمه مرتبطا بالعمل الجليل المحفوف بالمصاعب الذى ندب للقيام به .

أما العقبات التى تعترض تنفيذ بناية حوض للسفن فى الاسكندرية فترجع فى الاصل الى طبيعة قاع البحر بهذه المدينة فان هذا القاع طينى المادة الى عمق ستين قدما تقريبا تحت الماء . وكان المطلوب أن ينشأ فوق هذا القاع الرخو حوض متين البنيان موثق الاركان لا ينفذ منه الماء ، ومن السعة بحيث يقيم بين جوانبه سفن الدرجة الاولى أى السفن التى عمق الجزء الغاطس منها فى الماء عشرون قدما . فاذا ضم الى هذا الارتفاع أربعة عشر قدما ا وهو سمك الاساس الكافى لحمل ثقل السفينة المراد ترميمها ، فلا مناص اذا من بناية أرضية الحوض بهذا السمك من الحجر على عمق أربعة وثلاثين قدما تحت الماء ، بحيث

لا ينفذ المـــاء منها . وهو ما لا يتأتى طبعا على قاع طينى هش الا اذا استعملت لتحقيق هذا الغرض وسائل خاصة .

اما المسيو مونجل فلم تهن عزيمته أمام العقبات ولم تخـذله صعوبتها ، بل رفع الى الوالى تصميما جليلا محقق التنفيذ على بساطته ، فقد اقترح عليه فيه ما يأتى :

اقترح أن تغرز بالمكان لبناء الحوض أوتاد من السمك بحيث تجعل الارض مندمجة صلبة ، ومن الطول بحيث تهبط الى القاع اليابس . وقال ان هذه الاوتاد اذا وضعت على الوجه المتقدم سلحت لان تكون أعمدة وقوائم لبناية الحوض . وأنه بعد توطيد المكان على المثال السابق واحاطته بخط من أوتاد أخر متتابعــة تنزل منه بمنزلة السياج للحظــــيرة وتختلف عن الاوتاد الاولى بطـــولها الذى تبلغ به الى مستوى الارصفة ، يصب خليط المونة المعروف بالبيتون الذى من خواصه التجمد فى المــاء بعــد زمن قصير ، وتتكون منه كتلة جسيمة من البناء او صخرة صناعيــة مصبوبة . وأن يحفر الحوض فى هذه الصخرة على مثال يجعــل اغلاقه ميسورا عقب مرور السفن الى داخله بواسطة عــوامة خاصة تشبه السفينة ، تغرق وتعوم بحسب الارادة . وهــذه الطريقة هى المتبعة تقريبا فى انشاء الحوض الجديد بثغر طولون.

ولقد بدىء العمل لانشاء الحوض على هذا النمط . وهـــو جار الآن على قدم وساق . والمرجو أن يتم فى زمن قـــريب ، لا سيما وأن الاخشاب والمواد اللازمة لاتمامه مكدســـة بالمخازن والآلات البخارية التى يستعان بها على استنزاف الماء من الحوض، قد ركبت فى المكان اللازم لقيامها بعملها .

ولقـــد قامت الكراكات بحفر القاع اما وضع الاوتاد وهـــو عمل فى غاية الصعوبة فقـد أنجز سريعا بواسطة آلات خاصة انشئت باشراف المسيو (مونجل) واطلاعه .

٤٤ ـــ النوتية والدوننمة

كان فرضا ، وقد تم انشاء الاسطول بهذه السرعة ، ايجـــاد النوتية لها فى اقرب آن . لذا بودر بتدريب عشرة آلاف رجـــل على الخدمة البحرية وأنشئت الملاحة مدرسة نظم فى سلكها الشبان المماليك لتعليمهم من فنون البحر ما يؤهلهم للقيام بالواجبات المطلوبة من الضباط ، وطبقت القوانين المسنونة لهذا الغرض فى فرنسا ، ورتبت درجات الوظائف بحسب الترتيب المرعى عنـــدنا ، ونيط بضـــــباط فرنسيين تسليح الســـفن وتعليم بحريتها . وكان من أطولهم باعا فى تشكيل البحرية المصرية وأعظمهم أثرا فى تدريب رجالها ومعاونة سمو الوالى بجهودهم العظيمة ومساعيهم المبرورة، كل من المسيو (بيسون بك) الذى أسفت مصر جد الاسف لوفاته، والمسيو (هوسار) الذى لا يزال يؤدى اجل الخدم لسمو الوالى.

ومما لا ريب فيه أن ايجاد ترسانة وابداع أسطول على ذلك الوجه من السرعة لما يقضى بالعجب ، ويدل على قوة العبقرية. فقد كان شاطىء البحر بالاسكندرية كالصحراء الخالية من كل أثر لكائن ، فلم تمض سنوات أربع حتى عمر بترسانة كاملة الادوات مستجمعة لشتات اللوازم والتجهيزات . فمن قواعد منحدرة لانشاء السفن عليها وتزليجها الى البحر ، وورش ومخازن ومصنع الحبال امتداد بنايته طولا الف وأربعون قدما أى كطول مصنع الحبال فى ثغر طولون . وأنشئت خلال تلك المدة دوونته مؤلفة من ثلاثين سفينة سفينة وسلحت وجهزت بالعدد والرجال وجربت للمرة الاولى من انشائها فى مطاردة أحد الاساطيل العثمانية .

وما هى الا فترة قصيرة من الزمن حتى أدهشت البحـــرية المصرية أساطين علم البحر وثقاته سواء بدقة حركات الســـفن وضبطها أو بدربة البحرية وحسن قيـــامهم على الاعمال المنـــوطة

بهم وقد أصبح المصريون ، وهم شعب مفطور على الامتثال ومحامد الخصال ، كأنهم خلقوا أكثر صلوحا لممارسة البحر من غيرهم . ولقد سبق لنا ذكر فضائلهم الحربية ومناقبهم العسكرية ونقول الآن انه بالنظر الى سكناهم شواطىء النيل ، وهو النهر الذى بلغ من السعة فى نظرهم ما دعاهم الى تسميتهم اياه بالبحر ، كانوا من اقدر الناس على السباحة وأميلهم الى معاناة فنون الملاحة . ومن المناقب التى توافرت فيهم ، غير ما تقدم ، تأثرهم الشديد بعوامل المناظرة وحبهم أن لا يحرز قصب السبق سواهم.

ومعلوم أن ثغر الاسكندرية تتردد عليه برسم الزيارة سفن كثيرة تخفق عليها أعلام دول مختلفة فكان منظر هذه السفن يبعث فى نفوس الشبان المنتظمين منهم فى سلك بحرية الوالى روح الغيرة والحماس ويستفزهم الى الرغبة فى اطلاع الخبيرين فى الفن كل يوم على ما حذقوه من الحركات فى المناورات ونما بذلك فى نفوسهم أحساس الشمم وتنبه الشعور بالكرامة فكانت هذه المظاهر من أقوى العوامل على تنافسهم فى احراز أوفر قسط من العلوم والفنون . ويؤخذ من آراء الاخصائيين فى حالة البحرية المصرية أن الفرق بينها وبحرية القسطنطينية كالفرق بين جيوش محمد على البرية وجيوش الباب العالى .

وامتازت بحرية محمد على ، أول وهلة ، بالتفوق فى شبه جزيرة (موره) وكان من دلائل تفوقها العظيم أن الحراقات اليونانية التى طالما هلعت لمرآها قلوب أهل الاستانة وقبعت بسببها أساطيلهم ، لم تخش بأسها السفن المصرية التى كان يقوم على أمرها فى ذلك العهد ربان السفينة الفرنسى المسيو (لوتلليه) .

ولقد شرف الاسطول المصرى الجديد مصر ورفع ذكرها أثناء حملة الشام اذ قامت بمراقبته سواحل الشام ومنعت الاتراك من

النزول اليها وقبضت فى أنحائها على بعض السفن العثمانية وساعدت المصريين على حصار عكا واقتفت أثر الدوننمة العثمانية التى كانت اكثر منها عددا وأوفر مددا حتى حصرتها فى مرسى (مارماريل) ثم دفعتها أمامها حتى مضيق الدردنيل الذى أشرفت أن تجتازه لولا مداخلة الدول الاوربية التى حالت دون تحقيق هذه البغية مدفوعة بما هو معروف من عوامل السياسة .

وتتألف الدوننمة المصرية من احدى عشرة سفينة كبيرة وسبع فرقاطات وخمس سفن من طراز الكورفيت وتسع من نوع البريك والجوبليت . وبلغ مجموع عساكر هذه السفن (الأطقم) ١٦٠٠٠ رجل تقريبا . ونورد فيما يلى بيانا وافيا للقوات البحرية المصرية . واذ قد أصبحت البحرية العثمانية فى قبضة محمد على ، فقد عنيت ببيان قوات هذه البحرية تجاهها ، مع ذكر عدد نوتية كل سفينة مصرية وتركية .

القوات البحرية المصرية

الدوننمة العثمانية		الدوننمة المصرية	
السفن الكبرى			
أسماء السفن	عدد رجالها	أسماء السفن	عدد رجالها
محمودية	١٣٧٢	المحلة الكبرى	١٠٣٤
مسعودية	١٣٢٣	المنصورة	١٠٣٤
نيضسيان	١٠٣٤	الاسكندرية	١٠٣٤
فتجيبة	١٠٣٩	أبو قير	٧٣٦
ممدوحية	١٠٧٥	مصر	١٠٩٧

نصرتية	٩٠٦	عـكا	١١٤٨
تعريفيـة	٩٧٢	حمص	١٠٣٤
توفيقيـة	٩٤٨	بيـلان	٩٠٠
برج ظفر	٧٦٥	حلب	١٠٣٤
		بنى سويف	١٠٣٤
		الفيـوم	١٠٣٤
المجموع	٩٤٤٥	المجموع	١١١١٩

الفـــرقاطات

الدونمه العثمانية		الدونمة المصرية	
نظامية	٦٧١	المنوفية	٥٥٨
جهـادية	٦٧٥	البحيرة	٥١٠
نائيـك	٥١٦	الدمياطية	٤٧٠
شـهاب	٥٤٨	سر جهاد	٥١٠
خوز أمان	٦٦٢	رشـيد	٥١٠
تافـير	٥٣١	وابور النيل	١٥٢
مراد ظفر	٤٨٤		
سـوريا	٥٥٥		
راسم ظفر	٥٣٤		
قائد ظفر	٤٧٨		
فضل الله	٣٨٦		
المجموع	٦٠٤٠	المجموع	٢٧١٠

الكـــــــورفيت

الدونانمة العثمانية		الدونانمة المصرية	
مسير فرج	٢٧٧	جهاد فكر	١٥٩
		طنـــطا	١٨٣
		جنه بحرى	١٥٩
		بلنك جهاد	١٥٩
		دمنهور	٢٦٢
المجموع	٢٧٧	المجموع	٩٢٢

الجـــــــوبليت

الدونانمة العثمـــانية		الدونانمة المصرية	
		الصاعقة	١١٥
		واشنطن	١١٥
		شاهين داريا	١١٥
		التمســـاح	٩٧
		المجموع	٤٤٢

البـــــــريك

الدونانمة العثمانية		الدونانمة المصرية	
جاى فرح	١٣٩	سمند جهاد	٩٧
قوس ظفر	١٥١	شباس جهاد	٩٧
بحر سفيد	٨٤	وابور الجوكا	٥٢
		الوابور الجديد	٢٧
		وابور بولاق	١٧
المجموع	٣٥٤	المجموع	٢٩٠

نمرة ١ ٢٩
نمرة ٢ ٣١

المجموع ٦٠

الدوننمة العثمـــانية		الدوننمة المصرية	
مجموع القوات التركية	١٦١٢٤	مجموع القوات المصرية	١٥٤٦٣
يضاف الى ما تقدم الايان من الجنود للنزول الى البر	٥٠٠٠	يضاف اليهم عمال ترسانة الاسكندرية المندرجين فى سلك البحرية	٤٠٧٦
المجموع الكلى	٢١١٢٤		١٩٥٣٩

٣

حشد الرجال للخدمة البرية والبحـــــرية

الاسلوب المتبع فى التجنيد ـ عيوب هذا الاسلوب ـ اسباب هذه العيوب ـ جهود محمد على لعلاج هذا الداء ـ كراهة المصريين للخدمة العسكرية ـ النتائج المحتملة لتشكيل الحرس الاهلى .

٤٥ ـ الاسلوب المتبع فى التجنيد

اعترض الكثيرون بحق على الاسلوب المتبع فى التجنيد للجيش بمصر . فقد كان هذا الاسلوب ولا يزال حتى الآن جم العيوب ، مخالفا لطبيعة البشر ومقتضيات العمران ، وموجها لما لا مزيد عليه من الاسف .

فانه لا نظام ولا قانون بمتبع فى التجنيد للجيش . فالجيش فى القطر المصرى لا يتشكل ، كالجيش الفرنسى قبل الثورة ، بالتطوع أو بالاتفاق بين الطرفين على أجر معين ، ولا يتكون بطريق القرعة الخالية من شوائب الظلم والاجحاف حيث اختيار المطلوبين للتجنيد موكول الى الاقتراع بين المتساويين فى حظ القبول فى الجندية . كلا بل أن القوة الغاشمـــة وحدها فى مصر ، وهى فيها على أقصى ما يتصور من الوحشية والعملية ، هى التى يرجع اليها فى تزويد الجيش بمن يحتاج اليهم من المجندين . فالتجنيد فى مصر من وجوه الظلم البين بالاجحاف المتلف الضار بها . ولا شك فى أن ما رواه الرحالة عنه فى كتب رحـــلاتهم صحيح ولا اعتراض عليه ، لانه يكفى فى موسم التجنيد أن يتوجه بلوك من العساكر الى احـــدى القرى فينقض عليها ويجردها من سكانها الذكور بالقـــائه القبض عليهم بمجرد وصوله اليها . وبعد أن يشد وثاقهم بالحبال ويربط

بعضهم ببعض يسير بهم الى بندر المديريه ، يتبعهم امهـــاتهم وزوجاتهم وأولادهم صائحين مولولين . وهنـــاك يختار الطبيـــب منهم من يكونون أهلا للخدمة العسكرية .

٤٦ ــ عيوب هذا الاسلوب

هذا الاسلوب لم يكن همجيا فقط ، بل سيء العاقبة أيضا ، وعيوبه بادية للعيان . لانه ، بصرف النظر عن الاعمـــار وحالة العائلات التى تحـــرم بالتجنيد من رجالها ، يحول دون نمو عدد السكان ويلقى هذه العائلات فى مخالب الحزن والفاقة . فانه بمجرد توارد الاخبار على القرية بدنو الموكلين بالتجنيد يلجأ الشـــبان الاصحاء الابدان الى الفرار الى الفلوات التى يعـــرفون بأسرار وهادها ونجادها فيختفون بها شهورا ، فينشأ عن اختفـــائهم أن تتعطل حركة الزراعة وتقضى الضرورة للسبب عينه بتجنيد غيرهم ممن يجب اعفاؤهم من الخدمة العسكرية برية كانت أو بحـــرية لعلة أو عاهة فيهم .

ولست أستر هنا الضرر الناشيء عن هـــذا الاسلوب ، بل الخطر الذى يتهدد كيان الامة المصرية . فليس فى مقدور احد أيا كان أن ينكر عواقبه المشئومة ونتائجه الضارة وسمو الوالى نفسه عالم علم اليقين بضرره ويتمنى أن يوفق لعلاج يستأصل به شأفة هذا الداء لانه يرى أن مصلحته الذاتية مرتبطة بمصلحة مصـــر الخالدة وأن لا شيء يفصل المصلحتين عن بعضهما . فلنجتهد فى البحث عن سبب الداء واستكشاف ما يلائمه من الدواء .

٤٧ ــ أسباب هذه العيوب

لـــا هم محمد على بادخال النظام العسكرى الجديد الى مصر قامت عليه الاعتراضات من الاهالى الوطنيين بل بلغ من نفـــورهم عنه بسبب تمسكه بهذا الاصلاح أن ازدروا به وحقروه ولقبـــوه

« باشا النصارى » ولم يكن قد سبق للمصريين أن خضعوا لنظام عسكرى ما . دع أنه لم يكن في نفوسهم من روح الوطنية ولا في رؤوسهم من الذكاء والحصافة ما يدركون به حقيقة المثل الاعلى الذى ترنو مصر اليه بعينها ، فيستفزهم الى الانقياد لتلك اليد القابضة على زمام أمورهم . ثم لا ينسى أنهم لا يفهمون لغة يتكلم بها لسان السلطة غير لغة القوة الجائرة والاستبداد الغاشم ، فكان هذا باعثا منذ البداية على استعمال الشدة ليضطرهم الى معاونته على اصابة مقاصده وتنفيذ أغراضه .

ولقد خبرت المصريين بالمخالطة الطويلة فعرفت من خلالهم ما يدعونى الى التأكيد بأنه يستحيل حملهم بالحسنى على الانتظام فى سلك الجيش . ولكننى أؤكد فى الآن نفسه أنه كان لا بد من مضى وقت طويل لانتقالهم من الحالة التى ألفوها الى حالة مغايرة لها ، بل الى حالة لم يعهدوا لها مثيلا من قبل ، لا سيما وهى تنافى عاداتهم واخلاقهم ومذاهبهم فى الفكر والتصور . تلك هى الحقيقة . غير أن محمد على ما كان يستطيع الانتظار والتريث طويلا حتى تتطور الامة . اذ لا بد من اعتبار أنه هبط القطر المصرى لتنشئة المصريين على مهل التنشئة التى يتمناها لهم . نعم ان ما قام به من جلائل الاعمال يعد بناء فى جدار المستقبل ولكن ينبغى النظر الى أن الحاضر يتطلب منه العمل السريع والاحتفاظ بدقائق الزمن ويأمره بالاحتفاظ بمركزه ودرء الأخطار المحدقة به ، وبأن يكون منيع الجانب على من يرومه بسوء ليصون ما ربحه من جهة، ويدرأ عن حياته ومستقبل أسرته من جهة أخرى ما يتهددهما من الخطر . فكان مما لا مفر منه أن يتوافر لديه فى الحال جيش كثيف وأن لا يقف فى التجنيد له عند أوفق الوسائل لمبادىء الحرية والانصاف بل عند أدعاها الى اتمام الحشد له بأسرع ما يستطاع . واتفق لسوء الحظ أن اقترنت الوسائل التى ترمى الى هذا الغرض بالشدة والعنف ، فاذا أفضت السرعة الى تكبد فريق من الناس

حول الشدائد والآلام ، فان الانسانية تأسف من اجلهـــا وليس المسئول عنها سمو الوالى بل أولئك الاشرار الذين لا يكفون عن دس الدسائس له والمؤامرة على حياته وتلك الظروف القـــاهرة القاسرة التى حفت به .

ولمـــا اتم محمد على تشكيل جيشه أراد أن يطبق على العمل اسلوبا عادلا للتجنيد تقدم اليه به بعض قناصل الدول الجنرالية رفقا بالاهلين . ولا يسعنى هنا الا الجهر بأننى لم اكن قط آخر المتحمسين والمشايعين لهذا الاصلاح ، علما منى بما جبل عليـه الوالى من عواطف البر بالانسانية . ولهذا أراد ، مضـيا مـع ميوله الشريفة واحساساته العالية ، أن يطرق باب التجربة مرة أخرى رجاء أن تفضى نتيجتها الى ما يتفق مع الانسانية ومبـادىء العـــدل .

٤٨ — جهود محمد على لعلاج هذا الداء

لمـــا اتجهت رغبات محمد على الى حسم هذا الداء وعـلاجه بالانسب من الدواء ، شكل مجلسا للتجنيد مؤلفا من كبار الضباط فى جميع الاسلحة ، وعهد رياسته الى احد قواد الطوبجية ، وكنت أنا بالذات من أعضائه . فبدأنا بانجاز مهمتنا فى مديرية قليـوب ، لانها اقرب المديريات الى القاهرة . ولمـــا تقابلنا مع المـــدير واستقر بنا المقام عنده استدعى مشائخ البلاد حتى اذا كمل عددهم وانتظم عقدهم طرح القول الآتى عليهم : « ان جميع أقطار الدنيـا فى حاجة الى القوى العســكرية للمحافظة على كيانها بتوطيد دعائم الامن والسلام فى الداخل والدفاع عن استقلالها ضد الفاتح المغير . وهذه الحاجة تدعو الى تشكيل الجيوش ، والجيوش لا تتشكل ولا تتم هيئتها الا اذا قدمت الامة رجالها لهذا الغرض ، والرجـال الذين تتألف الجيوش منهم ينبغى أن يكونوا حائزين على الشروط المطلوبة فيما يتعلق بالسن وصحة البدن .

« ومن المفروض على طبقات الامة كافة وعلى جميع الاقاليم والمديريات التعاون فيما بينها على تشكيل القوات العسكرية كل بما يتناسب مع قدرته ، وما هو متوافر لديه من الوســـائل . ومعلوم أن الحرب تتطلب من الرجال الاقـــوياء الذين لا تربطهم بالهيئة الاجتماعية روابط وثيقة تجعل لوفاتهم فى نفوس أسرهم الاثر السيء . وهـــذا معناه أن العساكر ينبغى أن يؤخذوا من شبيبة القطر الممتلئة بالقوة والنشاط . وانما يحدث أن يوجد بين أفـــراد هذه الشبيبة من يستحقون الاعفاء من تلك الخدمة المفروضـــة قانونا على السواد الاعظم ويدخل فى عـــدادهم من لهم اخ او اخوان فى سلك الجيش أو يكونون أياماً . على أن الحكومة لم تكن بحاجة الى جميع الشبان ، فمن الواجب بناء على ذلك وضع قاعدة من شأنها ، بعد جعل الحظ مقسما بالسواء بين الجميع ، تعيين الافراد الذين يتحتم عليهم بكيفية جازمة الانتظام فى ســلك الخدمة العسكرية » . .

وعلى أثر ذلك شرحت لهم كيفية التجنيد فى فرنسا وأنهـــا مؤسسة على القرعة . فلما سمع الحاضرون من المشائخ هــــذا التفسير لقاعدة التجنيد المعمول بها فى أوربا أعربوا عن استحسانهم وصاحوا جميعا بالموافقة عليه داعين الى اتباعه والعمل به .

فطلب منهم عندئذ أن يعود كل منهم الى قريته وأن يحـــرر كشفا بأسماء الشبان الذين تختلف أعمارهم فيها من الثانية عشرة الى الثانية والعشرين وأن يشرحوا لمن تحت ادارتهم المبادىء العادلة التى ستجرى عليها أعمال التجنيد منذ الآن فصاعدا . فعاد المشائخ تبدو على وجوههم علائم البشر والابتهـــاج ، ولكنهم ما كادوا يفاتحونهم فى أمر تلك الطريقة الجديدة . والاسلوب الحادث حتى ولى جميع السكان الادبار واركنوا الى الفرار ، فلم تجد الحكومة

ازاء هذه الحالة الا الالتجاء الى القوة وأن تأخذ الآفاق على الذين فى سن التجنيد لتنظمهم فى سلك الجيش .

ومن النوادر التى يحسن ايرادها فى هذا المقام ، أن ابراهيم باشا كان يشرح ذات يوم لبعض علماء دمشق أسلوب التجنيد فى فرنسا ، فتحمسوا له ووافقوا عليه ودعوا اليه واعترفوا بما انطوى عليه من رفق وعدل . ولما آنس منهم ابراهيم باشا هذا الاستحسان العام قال لاحدهم : « بما أنك موقن بمزايا توزيع عبء الخدمة العسكرية على الشبان التوزيع العادل فمما لا ريب فيه أنك ستعطينا واحدا من أبنائك الخمسة فأجاب العالم وكان الجزع قد ملأ فؤاده : « أنا ... أنا ... لا أقدر على مفارقة ولد من أولادى » .

٤٩ — نفور المصريين من الخدمة العسكرية

لا يستطيع مصرى أن يتخيل امكان اندراج انسان فى سلك الجيش بمحض ارادته ، لان المصريين يجزعون من العسكرية ويبغضونها الى حد أن الامهات يتعمدن اتلاف بعض أعضاء أبنائهن ليصيروا غير صالحين للتجنيد . فهن يسملن عيونهم أو يبترون أصابعهم الى غير ذلك . ولقد شوهد بعض الفلاحين الذين على وشك الانتظام فى سلك الجندية يقطعون جملة من أصابع يدهم اليسرى بل يبرونها بريا بالسيف من غير ما تردد ولا اكتراث . ولكنهم كانوا ، بمجرد استياقهم الى العمل فى الجيش ، يخضعون للقوة القاهرة لارتياعهم منها ويرضخون لاحكامها باعتبار أنها قضاء واقع ليس له من دافع . ومع هذا فانهم متى انتظموا فى هيئة الجيش تطوروا سريعا بطور العسكرية واعتادوا حالتهم الجديدة ومحوا من ذاكرتهم سيرة نفورهم القديم . وتراهم اذا دارت النوبة دورتها فكلفوا بمباشرة التجنيد ، يعاملون المجندين بمثل

الشدة التي عوملوا بها من قبل وقتما انتزعوا من بيئاتهم لحمـــل السـلاح .

٥٠ ــ النتائج المحتملة لانشاء الحرس الوطنى

ولكن أيستنتج من هذه الخصية الغريبة فى نحيزة المصـرى أنه لا يرجى ، فيما يتعلق بمسألة التجنيد ، الوصول الى سـن نظام له أفضل من النظام المعمول به ؟ كلا ، فان بالصبر يكون الظفر والتغلب على الصعوبات وتذليل ما يعترض فى الطريق من العقبات . ولا بد أن يأتى يوم يكونون فيه قد اعتادوا ممارسـة الاعمال الحربية وشغفوا حبا بالمعيشة العسكرية . فمتى أتيح لمحمد على بذلك أن يحصر كل افكاره فى مصر ويقصر عليها أنظاره وقلت حاجته الى الجنود ، فلا جدال فى أنه سيضع للتجنيـد أسلوبا يجعل قوامه النظام والانصاف . وعندئذ يتمسك بأهداب الصبر وبه يتغلب على الصعوبات ويكتسح بهمته ما يعترضه من العقبات . وها هو الحرس الوطنى الذى أنشأه فى الازمة الاخيرة لسوف يفلح فى تعويد المصريين حب الخدمة العسكرية واستفزازهم الى القيام بواجباتها عن طيب خاطر . فانه متى قضى الفلاح بعض الزمن فى التدرب على الرماية بالبنادق والمناورات وألف معيشـة المعسـكر بالقرب من أهله ، زال ما كان يغشـاه حتى الآن من الكراهية للجندية وحل محل نفوره منها ميله الشديد اليها . ولسوف يتمهد له ، وهو يتدرب فى المدرسة العملية للحرس الوطنى ، سبيل التحول والانتقال من النظام الملكى الى النظام العسـكرى . ومتى

راق له هذا النظام وحسن فى نظره ، لما يكون قد استقر فى خلده من مطابقته لمبدأ الرفق والرعاية ، فانه لن يلجأ فى مقـاومته للتجنيد ، وهو الضرورة التى ساقها واجب الدفاع عن الوطن ، الى تشويه نفسه ذلك التشويه الذى لم يجرأ عـلى ارتكابه الا

بدافع من الطيش والجهل والعناد . وعندئذ لا ترى الحكومة ان هناك ما يدعوها الى الانبراء لمكافحة تلك النزعات الشـــريرة والنزعات الباطلة التى ليس من ورائها الا الضرر المحقق لاصحابها فتتبع الطريقة الفرنسية للتجنيد الا وهى طريقة الاقتراع التى لم توفق للعمل بها .

ولا ريب فى أن الامة والحكومة ستجنيان من هذه الطريقـــة فوائد جليلة . أما الامة ، فبتوزيع المطلوبين للخدمة العســكرية عليها توزيعا أساسه المساواة والعدل ، وقوامه رعاية الرفــق والانسانية . وهو ما يبث فى نفسها الاقدام شيئا فشــيئا بمحض ارادتها على الانتظام فى السلك العسكرى ، فلا يعتمد وقتئذ على وسائل الشدة والاكراه فى التجنيد . وأما الحكومة فبما تربحــه من مزايا تنظيم جنديتها شــأن كل حـكومة رشيدة . وأهم هذه المزايا : الوحدة والبقاء والقوة .

رقم الايداع ٨٢/٤٥٢٢

المطبعـــة الفنيـــة
ت ٩١١٨٦٢

لمحة عامة ٣
إلى مصر

يعتبر هذا الكتاب لمحة عامة الى مصر الذى ألفه د. كلوت بك أهم مرجع فى وصف الحياة المصرية خلال الفترة التى تلت الحملة الفرنسية على مصر، وابتدأت بحكم محمد على باشا.

والكتاب يتناول أدق التفصيلات عن حياة المصريين وعقائدهم وملبسهم. وعاداتهم وتقاليدهم. كما يتعرض بالتفصيل لسكان مصر. ونظام الحكومة. والموارد المالية. والزراعة والصناعة والتجارة. وغيرها من الامور.

وقد رأت دار الموقف العربى أن تقدم هذا المرجع التاريخى النادر فى عدد من الاجزاء ليكون فى متناول الدارسين والمهتمين بالتاريخ ... وهذا هو الجزء الثالث من كتا... بك «لمحة عامة الى مصر».

والمؤلف كما قدم نفسه فى ... الـ...جيون دوتور، من درجة أو... أخرى من درجة كوماندور ... والجراحة ورئيس مجلس الصحة ... الملوكية بباريس واكاديمية العلوم ...



طبعت بالمطبعة الفنية القاهرة